

48

كتابي

ستيفان زهاويج



عاشقات

في ! لخيريف

Looloo

www.dvd4arab.com

عاشق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
طبع ونشر في بيروت
جميع الحقوق محفوظة

ستيفان زفانج

١ - الأرملة العاشقة



Looloo

www.dvd4arab.com

الفصل الأول

■ احترم النقاش حول المائدة ، في المنزل (البسيون) الصغير الذي كنت أقيم فيه ، في (الريفييرا) ، حيث كنت أقضي الشتاء ، قبل الحرب بعشر سنوات . وتطور النقاش — دون أن نقتطع — إلى خلاف حاد أوشك أن يغدو شجاراً مصحوباً بالسباب . فلقد أوتى معظم الناس آفاقاً ضيقة ، يجعلهم لا يكادون يتأثرون بشيء ما دام لا يحسم مباشرة . ولا يفرض نفسه على مداركهم عنوة ! .. أما الحادث النافذ الذي يقع تحت أعينهم ، وفي نطاق أحاسيسهم ، فإنه لا يلبث أن يذكر فيهم من الانفعالات العاطفية مالا يتناسب مع قيمته .. وفي مقابل ندرة اهتمامهم تلك ، نجد من ناحية أخرى — إذا ما استيقظ اهتمامهم أخيراً — يتفعلون في حمس ينطوى على مغالاة لا مبرر لها !

وكان هذا شأن أفراد الجماعة التي اعتادت الجلوس إلى مائدتنا ، وكلهم من أبناء الطبقة الوسطى . فقد اعتادوا أن يثمنوا بالأحاديث القصيرة ، المفاداة ، تتخللها بعض الدعابات التي لا معنى لها ، ثم يتفرقون بمجرد الفراغ من الطعام ، ويذهب كل منهم في طريقه : فكان الزوجان الألمانيان ينصرفان إلى التزهات وإلى ممارسة هوايتهما وهي التصوير الفوتوغرافي ، ويفرغ الدانيمركي الممتليء الجسم — إلى صيد السمك — الذي يتطلب منه نشاطاً وحركة .. كما كانت السيدة الإنجليزية الوقور تغلو إلى كتبها .. والفرنسيان الإيطاليان يترددان كل

حين على (مونت كارلو) : أما أنا ، فكنت أستلقي في مقعد من القماش ، أو أعكف على التأليف ..

على أننا في هذه المرة لزمنا أمّاكتنا : وقد اشتبكنا في الجدل العنيف .. وكان يحدث أن يقفز أحدنا عن مجلسه لحظة ، ولكن لم يكن قفزه هذا - كما جرت العادة - استئذانا بمقارفة الجماعة ، وإنما كان مجرد مظهر لانفعال اشتد حتى انقلب غضباً متقدماً ..

والواقع أن المسألة التي أثارت جماعتنا الصغيرة إلى هذا الحد كانت غريبة حقاً .. كان النزول الذي أقمنا فيه - نحن السبعة - يبدو في ظاهره داراً صغيرة - « فيلا » - قائمة بذاتها ، تشرف نوافذها على منظر رائع على الساحل الصخري .. أما في حقيقته ، فكان النزول قسماً خجافاً رخيص الأجر ، ملحقاً بفندق (بالاس) ، وتصله بهذا الفندق حديقة تمكنا - نحن نزلاء المالحق - من أن نختلط بنزلاء المبنى الرئيسي اختلاطاً تاماً ..

وكانت ثمة ضجة كبرى قد حدثت في الفندق في اليوم السابق .. ففي قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة العشرين - ولابد من تحديد الموعد بالدقة : لما له من أهمية فيما يحدث ، وفي نقاشنا الختدم - وصل شاب فرنسي ، واستأجر إحدى الحجرات الأمامية المطلة على البحر ... وكان حرصه على اختيار موقع حجرته دليلاً كافياً على أنه من ذوي الثراء .. كما أنه كان يسترعى الأنظار : لا لأناقة ملبسه - في غير بهرجة - فحسب ، بل لأنه كان على تروجة غير عادية من الوسامة واللفظ . كان وجهه ناعلاً ، أشبه بوجه أنثى .. وكان فيه يوحى بالدفء

والعواطف المرحقة ، يعلوه شارب أصفر ناعم .. أما شعره فكان كسكتانياً ، ناعماً ، يشوبه توج يروق للعين .. وكانت عيناه تنان عن لطف وحنان . وبالاختصار ، كان في مجموعه فائتاً ، رقيقاً حقاً ، ومع ذلك كان غاية في البساطة ، خلواً من كل تكلف ! والواقع أن شكله كان يذكر الناظر - لأول وهلة - بتلك الوجوه الوردية المصنوعة من الشمع التي ترى في نوافذ متاجر الأزياء .. أو بتلك التماثيل التي تصور أجمل الشبان في أوضاع رشيقة ، متكئين على عصي أنيقة ، كتناجح الأعلى مثل الجبال بين الرجال ! .. ولكن تأمل التزييل الجديد عن قرب كان ينقص هذه الفكرة غير المستصلحة عنه « فلا يلبث الناظر إليه أن يتبين أنه إزاء مثل من الأمثلة النادرة - كل النادرة - للطف الطبيعي الكامن في نفس صاحبه !

■ وأخذ التزييل الجديد يحكي كل شخص بطريقة تجمع بين التواضع والخفاوة .. وكان من بواعث السرور حقاً أن تشهد حرصه على إضفاء حسن طباعه ، وعلى أن ينتهز كل فرصة ليؤدي بعض المجاملات الرقيقة .. فكان يسرع إلى مساعدة أية سيدة تخرج إلى البهو بحثاً عن معطفها ، ويقابل كل طفل بنظرة ودود ، أو كلمة لطيفة : كان ظريفاً في غير إزعاج .. وباختصار ، كان من أولئك المحظوظين ، الذين يدرك الواحد منهم - بالتجربة - أن الآخرين ينتهجون بشبابه وحسن مظهره ، فيزيده هذا الإدراك سحراً وفنتة ! .. وكان لوجوده مفعول الدواء المقتوى في نفوس النزلاء الآخرين ، الذين كان أغلبهم من المسلمين :

وقد استطاع أن يستولى دون عناء على مشاعرهم جميعاً ، بفضل شبابه الذى كان يغزو القلوب ، وبما أوتي من المرح القياض والنشاط البدافى . فلم تنقض ساعتان على وصوله ، حتى كان يلعب « التنس » مع ابنتى الرجل البدين ، البادى الميسرة ، والذى يمتلك مصنفاً فى (ليون) . وكانتا فتاتين فى الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر ، تدعى أولاهما (آيت) والأخرى (بلانش) .. وكانت أمهما - (مدام هنرييت) - سيادة محترمة ، رقيقة ، مهذبة .. وقد راحت ترقب فى ابتسام كيف كانت الصبيتان تداعبان الشاب الغريب فى دلال برى .. حتى إذا كان المساء ، انضم هو إلينا ساعة حول رقعة الشطرنج ، وروى لنا - فى أدب - قصتين أو ثلاثاً من القصص الشيقة ، ثم أخذ يتمشى فى الشرفة ، مندججاً فى حديث مع مدام (هنرييت) ، التى كان زوجها مستغرقاً فى لعب (الدومينو) مع صديق له من رجال الأعمال .. فلما تقدم الليل ، رأيت فى مكتب سكرتيرة الفندق ، وقد انتهكت الانان فى حديث خاص كاد يبدو سرّاً خاصاً بينهما !

وفى الصباح التالى ، انطلق الفتى لصيد السمك مع التزويل الدانيمركى مبدئياً للمأوى واسعاً بهذه الرياضة .. ثم انصرف إلى الحديث مع صاحب مصنع (ليون) ، فتناولا المسائل السياسية .. وبدأ أن الشاب الفرنسى كان محادثاً ظريفاً ، إذ أن قهقهة الرجل المسن كانت تنبعث - من وقت لآخر - عالية ، حتى لقد كانت تطغى على هدير البحر !

وبعد تناول الغداء - وليس بوسعى إيضاح الموقف دون إيراد هذه التفصيلات جميعاً - جلس ساعة مع مدام (هنرييت) فى الحديقة

يحتسيان القهوة ، ثم لعب (التنس) مرة أخرى مع ابنتها ، وانصرف بعد ذلك إلى الحديث مع الزوجين الألمانين فى بهو الفندق .. حتى إذا كانت الساعة السادسة ، التقيت به فى محطة سكة الحديد « حيث ذهبت لإلقاء خطاب فى صندوق البريد ، فأقبل على فى خطوات متعجلة ، وقال إنه مضطر إلى أن يودعنى » إذ استدعى للسفر فجأة » ولكنه لن يلبث أن يعود بعد يومين .. وبالفعل ، لم يكن بيننا عند العشاء .. على أنه وإن غاب بجسمه ، فقد كان حاضراً بروحه » إذ كان المحور الرئيسى للحديث . فقد أخذ القوم - على كل مائدة - يطرون طباعه العذبة ، المرححة !



● وغلوت فى غرفى - فى تلك الليلة - إلى كتاب أردت أن أفرغ منه .. ولعلها كانت الساعة الحادية عشرة ، حين سمعت فجأة - خلال النافذة المفتوحة - جلبة فى الحديقة ، وأشخاصاً يتنادون ، بينما بدا أن أمراً غير عادى يجرى فى الفندق .. وأسرعت - بدفعنى القلق أكثر مما يحلونى الفضول - فاجتزت الiardات الخمين التى تفصل بين الملتحق والفندق ، وإذا بى أجد التزلاء ومستخدماً الفندق فى قلق صاخب ..

كان زوج مدام (هنرييت) قد انصرف إلى لعب « الدومينو » مع صديقه القادم من (نامور) ، كعادتهما فى مثل تلك الساعة من كل ليلة ، ولكن الزوجة لم تكن قد عادت من نزهتها المسائية على شاطئ البحر ، فإذا كل امرئ يوجس خيفة من أن يكون قد أصابها مكره .. واندفع الزوج - الذى كان يديننا - ولعل بطيخاً زائلاً - تخيف

الحركة - وراح يجرى على الشاطئ كحيوان مذعور .. وعندما أخذ يناديها بصوت يخنفه الانفعال : « هنرييت ! .. هنرييت ! » .. بدا صياحه وحشياً ، رهيباً ، كصراخ حيوان ضخم دمه الموت بغثة .. وراح السقا والسعاة ينهون السلام - صغوداً وهبوطاً - موقظين النزلاء . واتصل مدير الفندق تليفونياً بالبوليس .. والزوج البدين بهم - طيلة هذه الأثناء - متخبطاً كعته ، وقد قك أزار حديريه : وراح يصيح دون انقطاع : « هنرييت ! .. هنرييت ! » ، بصوت جمع بين العويل والصراخ ..

وما لبث ابتاه أن استيقظنا ، فوقفنا بقمصين النوم في النافذة تناديان أهمها .. وإذ ذاك ، هرع الأب صاعداً إليهما أملا منه في أن يهدئ روعهما ..

ثم حدث أمر من البشاعة بدرجة لا أكاد أجده عبارات أحفه بها ، إذ أن الطبيعة - في أويقات الأزمات العصبية - كثيراً ما تتلع على تصرفات الناس طابعاً أليماً ، لا سبيل للرسم ولا للكلام إلى وصف قوته المائلة ! .. إذ ما لبث الرجل البدين ، الجزع ، أن هبط السلم وقد تبدلت أساريره ، وبدا عليه الإعياء والحوشية في آن واحد ، وهو يسلك بيده رسالة مفتوحة .. وصاح في رئيس الخدم ، وقد استرد صوته وزأنته : « ادع رجالك للعودة .. لم يعد في وسعهم أن يفعلوا شيئاً .. لقد هربت زوجتي ! » .

كان في مسلك الرجل شيء من ضبط النفس ، رغم أنه أصيب لتوه بطعنة نجلاء .. بل لقد أبدى جلدأ يقوق طاقة البشر ، أمام كل الناس

الذين أحاطوا به متساثلين ، وأخذوا يرمقونه بأنظارهم .. ثم لم يلبثوا أن انفضوا من حوله ، وقد غشيم الفزع والنجل فجأة ! .. وكانت ما تزال به بقية من قوة مكنته من أن يمر بئامترخاً - دون أن ينظر إلى أحد منا - متجهاً إلى قاعة المطالعة ، حيث أطفال الأنوار .. وسمعا صوت ارتظام جسمه الضخم وهو يتهاك على أحد المقاعد ، ثم انبعث تخيب حيواني وحشى .. بكاء رجل لم يعرف البكاء منذ طفولته ! .. هذا المظهر البدائي للألم المبرح ، كان له في نفوسنا جميعاً - حتى أضعفنا إحساساً - تأثير أذهلنا ، فلم يجرؤ أحد من خدم الفندق ، ولا من الفضوليين من النزلاء ، على أن يتسم أو ينبس بكلمة تتصل بالموضوع .. وإنما انسحبنا في صمت .. وكأنما أخجلنا هذا الانفجار العاطفي المادوي ، فسللنا إلى حجر اتنا ، واحداً إثر واحد .. بينما ظل هذا الخطام البشري ينهيك ويشق في عزلة وظلام الحجر التي لاذ بها ، وقد شملته وحدة مطلقة في هذا الفندق الكبير الذي ملأته همسات لم تلبث أن انحلت تخفت رويداً ، متلاشية في الظلام ، ليسود صمته لم يكن يعكره سوى تخيب الرجل ..

● وقد يتبادر إلى الذهن أن حادثة كهذا - يقع فجأة ، وتحت أبصارنا - كفيل بأن يترك أثراً قوياً في نفوس قوم كانوا - بوجه عام - يعيشون بمنأى عن الهموم والشواغل ، ولا يجدون لهم من عمل عادة سوى البحث عن ملهات تخنهم الضجر . بيد أن النقاش الذي احتمل حول ماقدتنا ، والذي أوشك المشرك فيه أن يتناولنا خلاله

الكلمات .. هذا النقاش كان في صميمه - برغم اتبعائه عن الحادث الذي رويته لنوى - مظهراً لخلاف حول مبدأ معين .. كان صراعاً عتيفاً بين وجهتي نظر متعارضتين في الحياة ! .. فقد كان الزوج المهجور - في غضبه الأحمق - قد فرك الخطاب وألقاه على أرض قاعة المطالعة ، فإذا بخادم تلتقطه وتقرؤه .. وعن طريق لسانها المغلوت ، عرف الجميع أن مدام (هنرييت) لم ترحل بمفردها ، ولكنها سافرت بصحبة الشاب الفرنسي ! وإزاء هذا النبأ بدأت نظرة العطف التي كان معظم التزلاء يبدونها للشاب الغريب في الانحسار .. وإن كان من الطبيعي - في الواقع - أن تهجر (مدام بوفاري) الصغيرة هذه : الرجل الريفي الكئيبة ، البدين ، - زوجها - لتلقى بمصيرها إلى شاب وسمٍ لطيف !

على أن الذي أثار سخط الجميع ، هو أن لا صاحب المصنع ولا ابنتيه ، ولا مدام (هنرييت) ، كانوا قد رأوا (لوفلاس) - الشاب الفرنسي - من قبل .. وأن حواراً لمدة ساعتين في الشرفة مساء ، وحديثاً لمدة ساعة أثناء تناول القهوة في الحديقة ، كانا كافيين لإغراء امرأة في نحو الثلاثين من عمرها - كانت حتى ذلك الوقت محترمة - على أن تهجر زوجها وابنتيه ؛ وتسلم مصيرها إلى أهواء شاب غريب عنها تماماً !

وافقت كلمة الجماعة - التي ضممتها مائدتنا - على أن هذا العمل - بظروفه التي لا لبس فيها ولا غموض - كان خيانة منكورة من العاشقين .. وأن مدام (هنرييت) كانت ولا بد على علاقة خفية بذلك

الكتاب قبل اليوم بأمد طويل ، وأن هذا (الساحر) ما جاء إلا ليرسم معها آخر دقائق خطة هريما .. فن المؤكد أن أربة سيدة محترمة يستحيل عليها أن تهجر زوجها لأول إشارة من رجل لم تنقص على تعارفها به أكثر من سويغات قلائل ! .. هكذا رأى الجميع .. أما أنا ، فقد راق لي أن أخونخوا مخالفاً ، وأن أعلن في مجلس أن من المعقول ، إن لم يكن من المحتمل ، أن يصدر عمل كهذا عن امرأة لم تصادف في حياتها الزوجية - على مر السنين - سوى خيبة الأمل .. أو منيت من الزواج يصعجر لم تجد مفرأ منه إلا بالاستسلام عند أول هجوم قوى تغزو قلبها ! .. وسرعان ما أثار هذا الرأي غير المرتقب نقاشاً عاماً ، لم يلبث أن اشتد واحترم ، إذ رفض الزوجان الألمانيان ، والزوجان الإيطاليان - في استهجان - أن يعترفوا بما يسمى بالحب الداهم .. الحب الذي يستولى على القلب من النظرة الأولى .. وقالوا - في عبارات تجاوزت حدود الحجامة - إن القول بوجود شيء كهذا حماقة ، لأنه من وحي خيال الروائيين !

ولا مجال هنا لإعادة سرد النقاش العاصف - الذي دار أثناء تناول الطعام - بخلافه .. على أن أحداً لم يؤث من حضور البديهة في مثل هذه المحاورات ، قدر أولئك الذين ألقوا تناول الوجبات في المجال العامة . ذلك لأن الحجة التي تمن في عمرة جدال طارئ حول مائدة ، تكون نافهة في العادة ، لأنها مرتجلة ، تنفجر إلى الخاطر في عجلة . كذلك من العسير أن نبين سبب احتدام مناقشتنا بمثل هذه السرعة . واعتقد أن التوتر الذي سرى في الجو - شأن أول الأمر عن

حرص الزوجين - الألماني والإيطالي - على أن يبيتا بجلاء أن زوجتيهما بمنجاة تماماً من الإقدام على مثل هذا التصرف الطائش الذي أقدمت عليه مدام (هنرييت !) .. وشاء الحظ ألا يجدا ، لإيضاح رأيهما ، أفضل من أن يقولوا إن آرائي لا يمكن أن يحتفظها سوى رجل يحكم على نفسية المرأة في ضوء خبرته مع من عرف من النساء في مغامراته البارحة .. النساء اللاتي يسهل وقوعهن فرائس لكل رجل أعزب . وأذكرني هذا الرأي غصبي بعض الشيء ، فلما قالت السيدة الألمانية ، بنفس اللهجة القاسية ، إن النساء نوعان : « نساء فاضلات » و « نساء فطرن على الفجور » ، وأن مدام (هنرييت) - في رأيها - لابد أن تحسب من النوع الثاني ، فقد صبري تماماً ، وعمدت إلى الهجوم ، قائلاً إن المرأة تصادف في حياتها ساعات كثيرة تتعرض فيها لدوافع غامضة أشد قوة من إرادتها ، ومن علمها .. وأن هذا التهرب من الحقيقة الواضحة ، وذلك الكبت للواقع ، لا يبدان إلا إلى إخفاء استباحتنا لغرائزنا ، وخوفنا من القوى الأولية الكامنة في طبيعتنا . وجاهرت بأن كثيراً من الناس يستطيون أن يتصوروا أنفسهم أصلب عوداً ، وأقوى خلقاً ، وأظهر نفساً من « أولئك اللاتي التزقن بسهولة إلى الزلل » .. أما أنا ، فأرى من الأشرف للمرأة أن تسلم قيادها - في حرية وانطلاق - لغريزتها ، بدلاً من أن تغمص عينيها وتخون زوجها وهي بين ذراعيه ، كما جرت عادة النساء عامة !

كان هذا خلاصة ما قلت على وجه التقريب .. وكانت المناقشة - في هذه الأثناء - قد اشتدت قسوة ، بطبيعة الحال .. وكلما عتف

الآخرون في مهاجمة مدام (هنرييت) المسكينة ، ازدادت تحمساً في الدفاع عنها .. وإن كنت في الواقع قد شعرت بأنني قد تجاوزت حدى شأن المرء إذا ما استثير ! .. ولاخ للزوجين الألمانيين وزميليهما الإيطاليين أن تهوري أشبه بالإهانة التي يعمد إليها الصبية للاستغزاز ، ومع أنهم كانوا يؤلفون (رباعياً) غير متناسق ولا منسجم ، إلا أنهم استطاعوا أن يشعلوا قواهم في مهاجمتي بشدة ، ومن ثم زاد هياجنا إلى درجة حدث بالسيد اللاتيمركي الممن إلى أن يتطلع نحونا ببشاشة - ذكورتني بالتحكم حين يقف في مباريات كرة القدم ممسكاً بساعة التوقيت (الستوب - ووتش) في يده - وأن يطرق المائدة بأصابعه عدة مرات ، متنبهاً إيانا ، وهو يقول : « أرجوكم ، أيها السادة ! .. » .. وكان هذا التدخل يحملنا على الهدوء إلى حد ما ، ولكن .. للفضة واحدة ! .. ولقد ففز أحد الزوجين ثلاث مرات مستوياً على قدميه ، وقد احتقن وجهه غضباً ، فكانت زوجته تجعد عناء في تبهلته . وكنا مسوقين - بلا مراء - إلى أن تشبكت بالأيدى بعد دقائق قليلة ، لو لم تتدخل مسز (م .) فتلطف من حدة هياجنا ..

● كانت مسز (م .) سيدة إنجليزية متقدمة في السن ، بيضاء الشعر ، بادية الوقار ، استطاعت أن تكون (زعيمة) لمائدتنا دون ما انتخاب رسمي ! .. فهي تصدر المائدة ، في جلسة معتدلة ، وتوزع على كل منا قسطاً من الرعاية ، في عدل ومساواة .. وكانت قليلة الكلام بعض الشيء ، ولكنها تحسن الإصغاء .. وكل من علمها في حادثة يشرح

الصلبر ، إذ كان يبدو أن رزاة رائعة تشع من شخصيتها الوقور ، المترفعة ! وكانت لا تخلط بنا إلا بقدر ، وإن كانت تعرف دائماً - في لباقة بديعة - متى تبدى الود ، ومتى تقبل الزمالة .. على أنها كانت عادة تجلس في الحديقة منصرفة إلى القراءة أو تعزف على (البيانو) في بعض الأحيان . وكان من النادر جداً أن ترى منهكة في حديث خال من الكلفة مع أي إنسان .. كانت ميالة للعزلة ، ومع ذلك فقد كان لها على زملائها من التزلأ تأثير غريب .. فما أن تكلمت - في هذه المناسبة ، مثلاً - حتى شعرنا جميعاً باستحياء من أنفسنا ، إذ فطننا إلى أننا سلكننا مسلكاً غير مستحب ولا لائق ..

واستغلت مسز (س) الوجوم الذي ساد حين قفز الألماني على قدميه ، ثم أغرى على الجلوس ثانية ، فرفعت عينيها الرماديتين الصافيتين ، على غير توقع ، ورمقتني لحظة والتردد يبدو عليها ، ثم تناولت الموضوع ، من وجهة نظرها ، في حنكة وبراعة ، فقالت : « إذن فأنت ترى - إن كنت قد أصبت في فهم حديثك - أن من المحتمل أن تكون مذام (هنرييت) قد وجدت نفسها مسوقة إلى هذه المغامرة في سذاجة ، ودون تدبير سابق .. وأن مثل هذا قد يحدث لأية امرأة ، فتجد نفسها متورطة في تصرفات كانت تبدو لها - قبل ذلك بساعة واحدة - مستحيلة ، ومن ثم فهي لا تكاد تكون مسئولة عنها ! »

— هذا ما أراه بالتأكيد !

— ولكن هذا يجعل معاييرنا الخلقية غير ذات قيمة ، ويبرر أي

انتهاك للقوانين .. وإذا كنت تعتقد حقاً أن (الجريمة العاطفية) ليست جريمة على الإطلاق ، فما حاجتنا إلى نظام قضائي ؟ .. إنك إذا شئت - (وهنا ابتسمت) - وأحال أن اتجاهك يميل فعلاً إلى هذا ، ففي وسعك أن تجد وراء كل جريمة دافعاً عاطفياً يبررها : بناء على رأيك !

وأطربني نبرات صوتها .. كانت واضحة « بل إنني أكاد أقول إنها كانت مرحلة .. فقلت بين الجد والفكاهة ، محاولاً بدوري أن أقنعها : « لا مرء في أن العدالة العامة ترى في هذه الأمور رأياً أقسى من رأيي .. فإن اجتماع المنظم مسوق إلى حماية الأخلاق العامة والتقاليد ، ومن ثم فهو مضطرب إلى أن يلدين بدلاً من أن يعلم .. أما أنا فلست أرى ما يضطرون - كفرد عادي - إلى أن أقوم بدور المدعى العام ، وإنما أفضل أن أؤدي دور الدفاع .. إنني أؤثر أن أفهم الناس بدلاً من أن أحكم عليهم ! »

وحاجتني مسز (س) بنظرة ثابتة ، ثم ترددت قبل أن تجيب : « وكنت قد بدأت أحشى ألا تكون قد فهمت تماماً ما رميت إليه ، فهمت بأن أكرر بالإنجليزية ما سبق أن قلته بالألمانية . بيد أنني لم أجد ما يدعو إلى ذلك ، إذ لم تلبث أن عاودت تساؤلها في طعنة صابرة ، وكأنها أستاذ ممتحن : « ألا تراه عملاً شائناً .. ألا تراه عملاً معيياً أن تترك امرأة زوجها وابنتها لكي تربط مصيرها بمخلوق ألقته المصادفات في طريقها ، وهي لا يمكن أن تكون قد أدركت بعد ما إذا كان أهلاً لحبها ؟ .. أترى حقاً أن من الممكن أن تكون قد أدركت بعد ما إذا

الثاني .. لهذا المسلك الطائش ، من امرأة لم تعد في باكورة الشباب :
امرأة كان يخلق بها أن تحترم نفسها ، ولو من أجل ابتئها ؟

ولكنني تثبت بوجهة نظري . قائلا : « لا يسعى إلا أن أكرر
أنني أتردد في أن أتخذ رأياً ، أو أن أدين السيدة ، في هذا الحادث :
على أنني مستعد لأن أقر أمامك أنني كنت مهالغاً في تصوير الحادث ،
فليست مدام (هنرييت) المسكينة بظلة ، بالطبع .. ولست أحسبها
كانت مدفوعة بحب المعامرة المتزه عن أية شائبة .. وكذلك أراي أن أقل
ميلاً إلى اعتبارها « عاشقة مدله » .. لقد لاحظت في - فيما رأيته منها -
امرأة لا تزيد عن أية امرأة عادية في شيء .. بل إنها امرأة ضعيفة ،
ومع ذلك فلاني أكن لها شيئاً من الاحترام ، لأنها تبعت رغبتها في
جرأة .. كما أكن لها شيئاً من العطف - كذلك - لأني موقن من
أنها ستكون في أقصى حالات العاسة غداً ، إن لم تكن اليوم .. ولعلها
اندفعت في حماقة ! ومهما يكن الأمر ، فلأنها كانت متعجلة في اندفاعها
أكثر مما ينبغي ، ولكن مسلكتها - في حد ذاتها - لا يتطوى على شيء
من اللذاعة أو الخسة .. وما زلت - كما كنت من قبل - أنكر على
أي إنسان الحق في أن يحتقر هذه المرأة المسكينة ، التمسة ! »

- إذن فأنت ما زلت - في قرارة نفسك - مقيماً على احترامك
وتقديرك لها ؟ .. ألا تفرق بين المرأة الشريفة التي كنت في صحبتها
حتى أول أمس : وهذه المرأة الأخرى التي هربت أمس مع رجل
غريب عنها تماماً ؟

- لست أفرق بينهما على الإطلاق : لا أقل تفرقة .. بل
ولا أفههما !

فهتفت بالإنجليزية - على الرغم منها - إذ استغرقها موضوع
النقاش إلى أقصى حد : « أهذا رأيك حقاً ؟ » : وأخلدت إلى التفكير
فترة وجيزة ، ثم تطلعت إلى ثانية بنظرها الصافية « وعادت تقول :
« وإذا حدث أن التقيت غداً بـ مدام (هنرييت) » في (ليس) - مثلاً -
وهي بين ذراعي ذلك الشاب ، فهل تحبها كالعادة ؟ »

- بالتأكيد !

- وهل نتحدث إليها ؟

- بالتأكيد !

- فإذا كنت .. أو لو كنت متزوجاً ، أفكنت تعرف زوجتك
بامرأة كهذه ، وكأن شيئاً ما لم يحدث على الإطلاق ؟ !

وإذ أجبت : « بالتأكيد » هتفت بالإنجليزية - مرة أخرى -
وقد استبدت بها اللعشة ، فأذكرت ما سمعت : « أحياناً كنت تفعل
هذا ؟ » .. فأجبت بالإنجليزية مثلاً ، دون ما تردد : « كنت أفعله
حقاً ! »

ولاذت مسز (م . س) بالصمت ، وبدا عليها الاستغراق في
تفكير عميق . وما لبثت أن قالت بالإنجليزية - فجأة - وهي تحسق
في وجهي ، وكأنها في دهشة من جرأتها : « ما الذي يدريني بما كنت
أفعله أنا ؟ ربما كنت قد حدثت حلوها »

ونهضت فبسطت لي يدها مصافحة . بذلك الاطمان الذي لا سبيل إلى وصفه ، والذي لا يحق استخدامه سوى الإنجليز ليضعوا - حداً لأى نقاش ، في بساطة ، دون ما جفاء أو غلظة .. وعاد الهدوء يسودنا بفضل تدخلها .. وشعرنا - في دخائل أنفسنا - بأننا مدينون لها ، إذ أسقطتنا ، نحن الذين كنا على وشك الخعاصم . أن نفرق على شيء من الوثام ، وأن نرى التوتر الخطير يتلاشى من الجو ، دون أن يخلف نتيجة أو جفوة !

الفصل الثاني

■ بالرغم من أن نقاشنا انتهى بوثام وتصاف ، إلا أن شيئاً من الفتور ران على العلاقات بيني وبين أولئك الذين خالفوني في الرأي .. فإذا الزوجان الألمانيان يديان تحفظاً وبروداً ، بينما أخذ الزوجان الإيطاليان يظفان إلى . فكانا لا يكفان في الأيام التالية عن سؤالى - في شيء من التهمك - عما إذا كانت لدى أنباء عن (الكاراسنيورا هنريتا) ! .. ومع أننا احتفظنا بما للمعاشرة من آداب ومحاملة ، إلا أن صيداعاً لا سبيل إلى إصلاحه أصاب ما كان بيننا من إخلاص وصراحة ..

وخفف عني الود الضافي الذي اختصتني به مسز (س .) . منذ تلك المناقشة - ذلك البرود الساخر الذى بدأ من خصومي الألداء .. فقد تحيقت عدة فرص لتجاذبي الحديث في الحديقة ، وهي التى كانت تلزم عادة أقصى درجات التحفظ ، فلم يحدث قط أن أسرفت في الحديث مع أحد من زملاء المائدة .. وأستطيع أن أقول إن مسلكها إزائى كان تكريماً لى . فإن ما امتازت به من تحفظ مترفع ، كان يجعل أى حديث تختص به أحداً ، صعباً تؤثر به .. أجل ، بل إننى لأذهب صادقاً إلى أنها كانت تبحث جادة عني ، وتنتهر كل مناسبة للحديث معي .. وكان حرصها على هذا واضحاً لا يمكن إغفاله ، مما كان خليقاً بأن يوحى إلى غرورى . فليس أتذكر شيئاً - أولاً أنها كانت متقدمة في السن . بكل الشجر الأبيض ومباني

على أنه ما من مرة دار فيها الحديث بيننا : إلا وأتجه بنا .. دون أنه
 تلك له دفعا .. إلى نقطة البداية .. إلى ملهم (هنرييت) .. ويبدو أن
 ميم (س) .. كانت تستشعر لذة خفية في اتِّهام هذه المرأة .. التي
 نسبت ما عليها من واجبات .. بعدم الرزاق ، وضعت الحق .. وبكثرتها
 كانت في الوقت ذاته تبادي اغتياباً بشائ على ما كنت تظهر كعمرات
 المراد من عطف دقيق مهذب كما كانت تجور بسرورها من أن ترى أن
 شيئاً ما لم يقو على أن يرحلني عن ذلك العطف .. ! كانت ميم (س) ..
 تذكر لي هذا : وهي توجه أحاديثنا دائماً نحو هذه الناحية ، حتى
 حرت .. في آخر الأمر .. من سر هذا الدأب العجيب .. الذي كاد
 ينقلب إلحاحاً ممضاً !

وخل الأمر على هذه الحال بضعة أيام .. لعلها خمسة أو ستة .. دون
 أن يبدو منها ما يشي بسر اهتمامها بهذا الموضوع .. ولكن من هذا
 الاهتمام تلمي واضحاً لي .. حين قالت لها عرضاً .. في إحدى زياراتنا
 إن إقامتي في الفندق أوشكت على نهايتها ، وأنتى أفكر في السفر بعد
 غد .. فقد علا وجهها .. الذي كان في العادة هادئاً .. كأنه في الحيرة
 وغامت بحاية معتمة على عينيها اللتين كانت في لون البحر ، ثم قالت :
 « يا لألمي ! .. ما يزال عندي أمور كثيرة أود أن أتحدث إليك عنها :

وعشيها منذ تلك اللحظة ارتباك وحيرة .. كما لو كنت فكرها في
 شغل بوضوح غير الذي كانت تتكلم فيه .. وتغير سرور ذهابها
 فدأبت .. إذ لم تلبث أن سمعت بعتة .. ثم بسطت يدها في عجة .. فقلت :

« أرى أن عاجزة عن أن أعبر عما أريد الإفشاء به إليك .. وأفضل
 أن أكتب لك ! .. واتجهت على الفور إلى الفندق بخطى سريعة لم
 أعهد لها قبل ذلك الوقت ..

وبالفعل .. وجدت في حجرتي .. قبيل موعد العشاء .. خطاباً
 كتب بخط سريع ، واضح .. وكنت - للأسف .. مهملاً في الاحتفاظ
 بالخطابات التي تنفثها في شبابي ، ومن ثم لا يسعني أن أورد نص ذلك
 الخطاب ، وإنما أكتفي بأن أورد مضمونه على وجه التقريب .. فقد
 سألتني عما إذا كنت أسمح لها بأن تروى لي حادثة صادفها في حياتها ..
 وقالت .. في رسالتها : إن هذا الحادث من التقدم بحيث أنها لم تعد
 تعتبر .. جزءاً من حياتها في الواقع .. وبما أنني راحل بعد غد ، فإن
 سفرني يسهل عليها الحديث عن أمر ظل يشغل بالها ، ويعذبها - في
 قرارة نفسها .. زهاء عشرين عاماً .. فإذا لم أر بأساً في الإصغاء إلى
 هذا الحديث .. فلتأسع إلى لقائها في ساعة حداثتها لي ..

■ أسلمني هذا الخطاب - الذي لم أملك هنا سوى الإشارة إلى
 مضمونه .. بل دعوته تفوق الوصف .. كان أسلوبه الإنجليزي واضحاً
 دقيقاً إلى درجة لا تقبى لغير تلك السيادة ، مما جعل الرد أمراً غير
 يسير ، حتى أنني مزقت ثلاث مسودات : قبل أن أصل إلى صيغة
 نهائية ، قلت فيها : « إنه لشرف أن تؤثرني بمثل هذه الثقة ، وأعدك
 بأن أجيبك حصصاً إذا ما طلبت رأيي .. » .. ثم .. ثم .. ثم ..
 إلى أن أرجوك ألا تفضي إلى إلحاحها تشاؤم ..

الحقيقة الخالصة .. نحو نفسك ونحوي .. في رواية ما تزين روايته ..
وأرجو أن تؤمنى بأني أعتبر ثقتك تقديراً خاصاً أعتر به !

ونقلت رسالتي هذه إليها في نفس الليلة ، فنتقبت في الصباح التالي هذا الرد : « أنت متي تماماً فيما قلت . فإن الحقيقة النافعة لا تساوئ شيئاً .. ولابد من أن تكون مكتملة دائماً .. سأحشد كل قواي لكي لا أخفي شيئاً عن نفسي أو عنك .. فتعال - بعد العشاء - إلى حجرتي .. فلست أخشى ، وأنا في السابعة والستين ، أي تأويل سيء لزيارتك » إذ أنني لن أستطيع الكلام في الحقيقة ، أو على مقربة من الناس .. وصادقني حين أكرر أن اتخاذ هذا القرار لم يكن أمراً حيناً على ..

والثقينا قبل نهاية ذلك النهار على المسافدة ، فتبادلنا حديثاً خفيفاً تناول أموراً غير ذات بال . لكن المرأة تخبئني في اضطراب جلي حين التقينا في الحقيقة بعد ذلك .. وكلمتني وآثار إشغافتي أن أرى تلك السيدة العجوز ، ذات الشعر الأبيض ، تفر مني - في أحد الدروب المخوفة بأشجار الصنوبر الوارفة - كما لو كانت فتاة في مستقبل الشباب وطرقت بابها في الموعد المناسب من ذلك المساء . ففتحت لي على الفور .. وكانت الغرفة مضأة بنور باهت ، كليل .. كان ثمة مصباح صغير واحد ، على منضدة - يرسل ضوءاً مخروطي الشكل ، خلال الظلام الداكن الذي سيطر على الغرفة .. وتقدمت مني - مس (ص :) في غير ما ارتباك - فقدمت لي مقعداً ، واتخذت لنفسها آخر في

مواجهتي .. وشعرت بأنها كانت ترون كل حركة من حركاتها ! .. وسادنا صمت واجم فرض نفسه علينا دون إرادة منا .. صمت كذلك الذي يسبق قراراً بشئ اتخاذ .. صمت استمر طويلاً .. وطويلاً جداً ، دون أن نجس على خرقه بأن أبدأ الكلام ، إذ أحسست بأني لزاء إرادة قوية . نصطرع في عتف مع مقاومة قوية .. وكانت تترامى إلى سمعي في تلك الأثناء أنغام خافتة منقطعة من موسيقى راقصة : كانت تدب من قاعة الاستقبال في الطابق السفلي . فتعمدت أن أصغى إليها بكل جوارحي : لكي تخفف من وطأة الصمت الممض ..



● وكأما شعرت المرأة بدورها بوطأة هذا الصمت غير الطبيعي ، فابليت أن استجمعت قواها : كمن تتأهب لمجوم ، ثم شرعت تقول : « ليس أشق على من أن استهل الحديث .. لأنني أتأهب منذ يومين لكي أكون صريحة ، صادقة في كل ما أقول . وأمل أن أوفق فيما اعزمت . ولعلك لم تهتد بعد إلى ما يبرر إقدامي على أن أروى لك كل هذا . وأنت الغريب بالنسبة إلي .. ولكن ما يكاد يمضي يوم . أو تقضي ساعة . دون أن أفكر في هذا الحادث .. وبوسعك أن تصدق العجوز التي تجلس أمامك : إذا ما قالت إن من الأمور التي لا نطاق : أن يظل فكر الإنسان مركزاً طيلة حياته على جاد حدث لم يستغرق سوى يوم واحد .. فإن ما أنا مقدمة على روايته لم يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة من سني عمري السبع والستين ! .. وكما أخذت أردد لنفسي حتى أوشك قولتي أني سأفعل هذا ما :

الخطر الأكبر من السنة في مزارعنا ، ونقضى (الموسم) في لندن .. وتعرفت إلى الرجل الذي صار زوجي ، في أحد المجتمعات التي كنت أرتادها وأنا في الثامنة عشرة من عمري .. وكان ثاني أبناء أسرة « ر » المعروفة . وقد خدم في الجيش ، وقضى عشر سنوات في الهند .. ولم يطل بنا الوقت حتى تزوجنا ، وأخذنا نعيش الحياة المترفة التي تحظى بها طبقات المجتمع .. فكنا نقضي ثلاثة أشهر في لندن ، وثلاثة في مزارعنا .. أما بقية السنة ، فكنا نقضيها منتقلين بين فنادق ليطانيا وإسبانيا وفرنسا ، لا نقيم على هنائنا الزوجي قط .. وأحبنا ولدينا هما الآن رجلان في أوسط العمر ..

وكانت في الأربعين من عمري ، حين مات زوجي فجأة .. إذ كانت في سبب بداء الكبد . أثناء الأعوام التي قضناها في الإسكندرية ، وقدسنا بعد أسبوعين على فيها أفجع الآلام .. وكان ابني الأكبر حين مات أبوه ، قد التحق في ذلك الجيش ، أما الأصغر ، فكان في الكلية ، وهكذا وجدت نفسي بين عشيقة وضمحائها - وحياة تماماً . لا ينس وحشتي أحد .. وكانت هذه الوحلة دائماً مضطرباً ، أنا التي ألفت الحياة مع رفاق أحباء ، فيما لي أنني لن أطيع البقاء يوماً واحداً . بعد ذلك - في البيت الخالي ، الذي كان كل ما فيه يذكرني بشجعتي في زوجي الحبيب . ومن ثم عقدت العزم على أن أكسر من الأسفار في سنواتي المقبلة ، لاسيما وأن ولدي لم يكونا قد تزوجا واستقرا ..

ومنذ تلك اللحظة ، بدأت في حياتي حاليه من كاهنة باروم

« ما قيمة أن تعترض المرء لحظة حماقة .. لحظة واحدة في كل هذا العمر الطويل ؟ .. ولكن المرء لا يستطيع أن يقلب بسهولة من ذلك الشيء الخامض المهب ، الذي تسميه : الضمير ! .. فلما قبلت أن أسمك تستعرض حادث (حرييت) بمثل هذه النظرة الوافية ، خطر لي أنني قد أستطيع أن أضبع حداً لهذا الوضع القطيع .. هذه الحال التي تجعلني أتلفت دائماً إلى الماضي ، فلا أفأ أنهم نفسى بنفسى .. خطر لي أنني قد أنطس من هذه الحال إذا أقنعت نفسي بأن أفنى بصراحة لأي امرئ بقصة ذلك اليوم الأوحى في حياتي .. ولو أنني كنت كاثوليكية - بدلاً من أن أكون من رعايا الكنيسة الإنجليزية - لتخفقت من ذنبي بالاعتراف منذ زمن طويل . ولكن غرومون من هذه السلى .. لهذا كله أقدم اليوم على هذه المحاولة الغريبة . فإني إليك بسرئ « متظهرة منه .. وإني لأدرك أن هذا التصرف مني ، أمر شاذ ، غير عادي .. ولكنك قبلت ما عرضت عليك دون ما تردد ، فأشكرك ..

« وعلى هذا ، فإنني - كما ذكرت من قبل - أود أن أفص عليك ما حدث لي في يوم واحد من أيام حياتي .. أما بقية الأيام ، فتبدو غير ذات قيمة ، بل إنها قد تبعث الفسجر في نفس كل امرئ سوى ..

« كانت حياتي عادية جداً ، حتى بلغت الثانية والأربعين .. إذ كان أهلي من كبار الملاك في (اسكتلندا) ، وكنا نملك مصانع كبيرة ، وضياعاً شاسعة ، ونعيش على غرار النبلاء في بلادنا : نقضى

كل نفع في الغالب .. فقد مات الرجل الذي شاطرني كل ساعة .
وكل فكرة ، ثلاثة وعشرين عاماً .. ولم يكن ولدائي في حاجة إلى ..
بل لقد خشيت أن أنقص عليهما صفو شبابهما بحزني وأسأى .. ثم إنني
لم أعد أفسد إلى شيء ! .. وقد سافرت - في بادئ الأمر - إلى
(باريس) .. وأخذت أرتاد ، في فراغي الطويل ، المتاجر والمتاحف .
ولكنني شعرت بالوحشة والملل . إذ كانت المدينة غريبة عني بأهلها .
وكنت أجنب الناس ، إذ لم ترق لي نظرات العطف المحذبة التي كانت
تثيرها في أعينهم ملابس الحداد ..

« من العسير على اليوم أن أقص عليك كيف انصرفت تلك الأشهر
الأولى الحزينة « المعتمة » .. كل ما أذكره هو أن الرغبة في المسوت
أخذت تلاحتني ، ولكنني لم أجِد الجرأة على أن أعجل بقاء هذا
المصير الذي كنت أشبهه في لوعي وأحزاني ..

« ووجدتني في نهاية شهر مارس - من العام التالي لترمل ،
والثاني والأربعين من عمري - في (مونت كارلو) ، وقد سافنتي
إليها الرغبة المستترة في الفرار من حياة لم يعد فيها ما يستوييني أو يشغل
وقتي .. أجل ، لم يدفع بي إلى تلك المدينة ، في الواقع ، سوى
الضجر والفراغ اللذين يلبقان على النفس تنافلاً تحاول أن تجد مهرباً
منه في أفقه الأحداث التي تقع .. وكنت كلما فطنت إلى تبليد أحاسيسي
ازددت رغبة في أن ألقى بنفسي في دوامة الحياة وهي متغلظة بأقصى
سرعتها .. فالمرء الذي يفتقد ما يستويبه في الحياة ، يجد في الخرات

العنيفة التي تصيب حياة الغير ، ما يثير أعصابه من جديد .. كما يفعل
المسرح والموسيقى في نفوس الرواد والمستمعين !

* * *

■ وهذا السبب أخذت أكثر من التردد على (الكازينو) .. فقد
كان يلذ لي أن أشاهد أمارات السعادة ، أو الشقاء ، ترسم على
وجوه الآخرين . في الوقت الذي لم تكن تهتم فيه جارحة واحدة من
جوارحي .. أضف إلى هذا أن زوجي - رغم بعده عن التزق - كان
يميل إلى التردد على قاعة اللعب ، كلما زرنا (الكازينو) في الماضي ،
فرايت في الوفاء لعاداته القديمة نوعاً من التبعيد في عراب الأحزان !

« وفي تلك القاعة ، بدأت تلك الساعات الأربع والعشرون ، التي
كانت أكثر عنفاً وإثارة من أية لعبة أخرى في دنياي ، والتي قلبت
مصيري رأساً على عقب ليضع سنوات .. فقد تناولت الغداء ظهر
ذات يوم مع دوق (م) ، وهي سيالة تربطها بأسرق صلة نسب ..
ثم جاء الليل ، فلم أشعر بتعب يجب لي أن أوى إلى مضجعي بعد
العشاء ، ومن ثم ولجت قاعة اللعب ، ورحت أفسح من مائدة إلى
مائدة ، دون أن أشارك في اللعب على الإطلاق ، بل كنت أرقب
« بطريقة خاصة » أولئك اللاعبين المتجمعين هنا وهناك .. وأقول
« بطريقة خاصة » .. لأن المرحوم زوجي علمني إياها ذات يوم ،
إذ رآني وقد برح في الضجر لطول تحديق في الوجوه التي لم تكن تتغير .
وجوه أولئك العجائز المتغشبات الجباه ، اللواتي يقضين ساعات طويلة
جالسات إلى موائد اللعب ، دون أن تجازن إعطائهن إلقاءً (المنعكس)

واحدة .. أو وجوه أولئك المختارين المخترفين ، أو الغايات المتمازجات ..
هذا الخليط المتناثر . القادم من كافة أرجاء العالم . والذي هو في
حقيقته . كما تعلم .. أقل رواء وإثارة لخيال من تلك اللوحة التي اعتدنا
أن نتخيلها ونحن نقرأ القصص التهمة التي تصورها وكأنهم أعلى أمثلة
الأنانية . وصفوة الأرسطراطية الأوروبية !

« إنني أصف لك ما كان منذ عشرين عاماً . عندما كانت الأموال
وفيرة . فكانت الأوراق المالية الجديدة ، والعملية الذهبية التي نعمل
رسم نابليون . والقطع الكبيرة ذات الخمسة فرنكات ، تهال على
موائد اللعب .. عندما كان « الكازينو » - قاعة القمار الفخمة - أروع
وأقفل مما هو اليوم ، وخاصة بعد أن أعيد بناؤه .. وعندما كان السباح
الذين ساهبوا شركة « كوك » يهبطون الأموال فيه دون وعي ولا حساب ؟
» ومع كل هذا ، كنت أضيع بالمشابهة والترتيب . حتى أوشفتي
زوجي - الذي كان ذا ولع خاص بعلم الكف - إلى تلك الطريقة
المبتكرة لأمل الناس .. طريقة مثيرة . خلافة . لا ينس المرء معها
بذلك المجهول الذي يثابه وهو يقف جامداً كالصنم . بلا حراك ..
هذه الطريقة تملخص في عدم النظر إلى أوجهه على الإطلاق . وتركيز
البصر على صفحة المائة وحدها .. على هذا المربع الذي لا ترى فيه
سوى أيدي اللاعبين ، بأدق حركات هذه الأيدي !

« ولست أدري إن كان قد قدر لك يوماً أن تمنع النظر في الموائد
الخضراء . وأن ترى ذلك المربع الأخضر الذي تترنج داخله الكرة .
كشخص على . منتفخة من رقم إلى رقم .. وأوراق النقد . والقطع

التقصية والذهبية المستديرة . تتساقط على مربعاته تتساقط البنود على
الأرض . ويجرفها مراقب اللغب بعد ذلك ، حاصداً إياها بضربة قاضية
من مجردة الشبهة بالمتجمل ، أو ليدفعها نحو الرابع !

.. الحصر الوحيد الذي كان يختلف في هذه الناحية من المنظر .
هو الأيدي .. ذلك الحشد من الأيدي الشاحبة . المرتعشة . أو المرتجة
حول المائدة حتى تحين ساعة العمل .. أيد كلها تحفز « وقد أحاط بكل
مهما كم جعلها تبدو كحيوان .. على فوهة مغارة - يتأهب للانقضاض ..
أيد « لكل يد منها شكلها الخاص ، ولونها الخاص .. أيد عارية ، وأيد
مشفة بالجوام والسلاسل الذهبية البراقة ، وأيد كثرة الشعر كالحليوانات
الكارسة . وأيد ناعمة بيضاء تتلوى كالأفاعي ! .. على أنها برغم تباينها ،
كانت تتشابه جميعاً في توتر عضلاتها ، وفي حركاتها المنفعلة ، المرتعشة ،
التي تنم عن صبر نافذ ..

وكنت في كل مرة لا أتمالك من أن أنخيل نفسي في ميدان لسباق
الخيال ، في اللحظة التي تسبق الانطلاق . وقد شادت أكلة الجياد كبحاً
للملاحين . حتى لا تنطلق قبل الموعد المحدد .. هكذا تبدو أيدي اللاعبين .
ترجيف ، ونزاجع ، ثم تندفع .. وهي في ترددها ، وفي طريقة
مسالكها بالنقود أو (الفيشات) ، وفي توقفها عن الحركة ، تفصح
عن شخصية اللاعب .. فالأيدي ذات الأطراف الطويلة تشي بالبخل
والأيدي المسترخية تنم عن إسراف « والأيدي الهادئة الرزينة تدل على
اعتماد مبنى على دقة في الحساب « والأيدي المرتجفة تكشف عن يأس
ماتة سببية وخلق . تفصحها في لمح البصر تلك الخفة السريعة التي تبار

من اليد وهي تلتقط الأرياح .. فن الناس من يفرك الأوراق المالية في يده ، ومنهم من يثرها في حركة عصبية - ومنهم من يقبض يده عليها - إذ تكون موارده قد نضبت - ثم يلقي بها بعد ذلك على الأرض في غير اكتراث !

« ومن الأقوال الدارجة ، أن « اللعب يكشف عن حقيقة اللاعب » ! .. أما أنا فأقول إن يد اللاعب نفسه هي التي تكشف - خلال اللعب - حقيقته في أوضح صورها .. فجميع الذين يتابعون انفعالاتهم - أو معظمهم على الأصح - يتعلمون كيف يكتمون انفعالاتهم ، فلا ترسم على وجوههم .. إنهم يسدلون على كل ما يعلو ياقة القميص قناعاً من الجمود البارد - ويجهدون في إخفاء تلك التجاعيد التي تتجمع حول الفم ، ويعيسون اهتزازاتهم النفسية بين أسنانهم وهم يصرون عليها ، ويسدلون بين أسرارهم وأعينهم ستاراً - حتى لا تنعكس ومضات اضطراباتهم خلال نظراتهم ، ويتسقين عضلات وجوههم في أوضاع مصطنعة توحى بعلم الاكتراث - وهم إذ يركزون كل غنايتهم على وجوههم ... لأنها أكثر أجزاء الجسم إفصاحاً عما في النفس - ينفون أيديهم - ويخفون عن أن من الناس من يرقبون هذه الأيدي دون سواها ، ويستشفون منها ما تحاول إخفاءه الشفة ذات الانقسام المتكلفة ، والنظرات التي تصطنع عدم المبالاة !

« وإن اليد لتفصح أعمق أسرارهم دون استحياء - إذ لا مناص من أن تأتي لحظة تنقب فيها الأصابع من السبات الذي كانت تجبر عليه لتبدو هادئة .. وفي اللحظة الفاصلة التي تسقط فيها كرة (الروليت) في الفتحة ،

وينبعث الصياح الذي يعلن الرقم الرابع ، تصدر من هذه الأيدي المائة - أو الخمسمائة - حركة لا إرادية ، هي التعبير الفردي للفرجة البدائية .. فإذا تعود المرء ما تعودته أنا من مراقبة معركة الأيدي هذه ، وخبر ما خبرت - بفصل هواية زوجي - من حركات تصدر مفاجأة وعلى غير توقع ، على اللوام ، فتكشف سافرة عن التوتر العصبي الذي يتملك صاحبها ، ألقى نفسه بفعل ويتهمس كما لو كان يشهد مسرحية ، أو يسمع الحائناً موسيقية مثيرة !

« وليس يوسعي أن أصف لك - تفصيلاً - آلاف الحركات التي تصدر من الأيدي أثناء اللعب .. فبعض هذه الأيدي حيوانات وحشية ، ذات أصابع خيلة يكسوها الشعر « تنقض على النقود كما ينقض العنكبوت على الذباب .. وبعضها مرتجفة « ذات أطراف شاحبة ، تكاد لا تجرؤ على لمس هذه النقود .. وسواء أكانت الأيدي مترفعة أو وضعية ، وحشية أو حية - خبيثة أو مترددة ، فإن لكل يد منها طابعاً يميزها عن سواها .. بل إن كل يد من يدي الشخص الواحد ، تعبر عن حياة تختلف عن حياة الأخرى .. فها عدا أيدي مراقبي اللعب « فهي آلات صماء في دقتها ، وانتظام حركاتها المكتسبة بالمران ، وحيادها المطلق إزاء النشاط المستعر في أيدي اللاعبين .. فتراها تلوح محدثة صريراً كذلك الذي يصدر عن باب حديد يدور حول محور أقيم عليه عداد « مثل باب حديقة الحيوان .. ومع ذلك ، فإن لهذه الأيدي المحايدة تأثيراً عجيبياً ، إذ أنها بتناقضها مع الأيدي الشرهة ، المتوثبة ، تلوح كما لو كانت ذات زى خاص موحد ، كرجال الشرطة وسطاً ، حشد هائج متحرد !

« أضف إلى ذلك لوناً من المتعة يستشعره المرء إذا ما اندمج - عادة أيام - في هذه العادات والانفعالات التي يراها من بعض الأيدي ! .. على أنه لم تلك تنقضي بضعة أيام ، حتى أتعرف على أيدي جديدة ، أفحصها وأضع كلا منها في المرتبة التي تلائمها .. كنت أراها كالآدميين تماماً ، فيها ما تكون خفيفة الظل ، ومنها ما تكون ثقيلة .. وكنت أفر من عدد كبير منها لفظاظتها وجشعها ، حتى أنني لم أكن أتمالك أن أشرح بوجهي عنها كلما وقع بصري عليها ، وكأني أرى فيها شيئاً نائياً ! .. وكانت كل يد جديدة تظهر على مائدة اللعب ، حدثاً جديداً بالنسبة لي - يثير فضولاً واستطلاعاً .. وكثيراً ما كنت أغفل النظر إلى الوجه الذي يعلو اليافعة ويظل جامداً فوقها بلا حراك - كأنه قناع بارد فوق قبض إلى (سيمونج) - أو الوجه الذي يعلو العنق المزدان بعقد براق - إذا كانت اليدان لامرأة !

● « وعندما دخلت « الكازينو » في ذلك المساء - الذي بدأت فيه قصتي - مررت بمائتين اشتد زحام الناس حولها « حتى إذا اقتربت من الثالثة ، بدأت أعد بعض القطع الذهبية ، وإذا بي أفتأ بما أدهشني .. كان الوجوم يسيطر على المائدة .. وجوم صامت مفعم بالتقرز العصبي - حتى ليخيل إليك - لفرط السكون - أنك توشك أن تسمع للصمت ذاته رفيقاً أو حقيقاً .. وفي غمرة هذا الوجوم الذي يسود اللاعبين عادة عندما تكون الكرة وشبكة الوقوف « وقد أخذت تتأرجح بين رقيق قبل أن تسقط في غمرة أحدهما .. في غمرة هذا الوجوم : أدهشني أن

أسمع في الجانب المواجه لي صوتاً غريباً ، وقرقرة خيل إلى أنها تبعث من عظام تهشم .. وتطلعت - على الرغم مني - إلى الجانب الآخر من المائدة ، وإذا بي أجفل ! .. فقد رأيت يدين لم أر لها مثيلاً من قبل « على الإطلاق .. يدين أطبقت كل منهما على الأخرى ، كحيوانين يتحفر كل منهما كي يعض الآخر ! .. وكانتا تشبكان ، وتتصاولان في غنغ وحشي ، فتحدث عظام أصابعهما - في غمرة الاحتدام الخشن - قرقرة أشبه بتلك التي تبعث من ثمرة الجوز وهي تتكسر !

« أما جمال هاتين اليدين ، فكان باهرًا ، نادراً .. كانتا مفرطتي الطول ، مسرقتي التحول ، ومع ذلك فقد تمللتها عضلات ذات قوة غير عادية .. وكانتا ناصعتي البياض ، تنبئان بأظافر شاحبة ، لامعة ، مستديرة في اتساق .. ووجدتني أحرق فيهما طوال السهرة .. أجل ، كنت أتأمل في دهشة لا تنضب هاتين اليدين غير العاديتين .. اليدين الفريديتين ، اللتين لم يكن لها نظير حقاً .. أما ما أثار في نفسي دهشة أوشكت أن تكون جزعاً ، فقد تمثل في تلك الحصى التي كانت تسرى فيهما « وتلك التعبيرات التي كانت تصدر عنهما وهما تشبكان وتتصارعان .. وأدركت لأول وهلة - إذ رأيتهما - أنهما لرجل فاضت قوته جاعحة « فحشد كل انفعالاته في أصابعه ، لكن لا تحتبس في أطواء نفسه فلا تلبث أن تنفجر وينفجر معها كيانه ! .. وفي اللحظة التي هوت فيها الكرة في الفجوة - محدثة بارتمامها صوتاً مكثوماً - وصاح مراقب اللعب معلناً الرقم الرابع .. في تلك اللحظة الخامسة ، انفصلت كل من اليدين عن الأخرى ، كما لو كانتا حيوانين ارتدعا صاحبهما واحدة ،

مثل هذه القدرة المعبرة الخارقة ، التي تجلت في اضطرابهما ، واختلاجاتهما العصبية .. فإذا كل ما كان يجري تحت تلك القبة الكبيرة .. وإذا المهمة السارية في أجواء الحجرات ، وصياح مراقبي اللعب ، وحركة الناس في غدوهم وذهابهم ، بل وحركة الكرة ذاتها ، إذ ألقيت — إذ ذاك — من عل « فأخذت تنفّز كمنون في قفص مستدير مصقول القضبان .. كل هذه الصور التي تداخل بعضها في بعض ، وامترجت في تعاقبها ، وأناخت على الأعصاب بكل ثقلها .. كل هذه بدت لي — فجأة — مية ، إذا قيس بتلكما اليدين المرتعشتين المتضلعين . اللتين استسلمنا للانتظار وهما تنفضان .. تلكما اليدين العجيبتين اللتين صرنا وحملنا على أن أركز كل انتباهي عليهما وحدهما . « ولم أعد أقوى على المقاومة .. لا بد من أن أرى وجه الرجل .. الوجه الذي يملك صاحبه هاتين اليدين الساحرتين .. وأرسات بصرى في حذر وخشية — أجل ، خشية ، إذ كانت هاتان اليدان تحيفاني — فتسلسل على طول كمي السترة حتى بلغ الكتفين الضيقتين ، وإذا بي أجفل مرتاعة مرة أخرى .. كان الوجه ينطق بنفس تلك اللغة الثائرة ، المتطرفة في جموحها وانفعالها .. اللغة التي كانت تنطق بها اليدان . فقد اجتمع في ذلك الوجه نضال رهيب ، وجمال رقيق — يكاد يكون نسوياً — في آن واحد ! .. ما رأيت من قبل وجهاً كذلك الوجه ، لا تمت تعبيراته إلى جسد صاحبه بصلة ما « فكأن الوجه وصاحبه شخصان لا علاقة بين كل منهما والآخر في حياته ، ولا في أحاسيسه وانفعالاته ! « وأنيح لي — وأنا أحلق فيه من فوق — أن أتأمله في أفاء فترامى

وارتما على المائدة ميتين ، لا منهوكتي القوى فحسب ! .. وكاننا في ارتماشهما فتان عن دعر ولوعة تعجز فصاحتني عن وصفهما ، وكأنما باغتهما صاعقة ! .. ما رأيت قط من قبل — ولا بعد — مثل هاتين اليدين الناطقتين ، المعبرتين . كأن كل عضلة فيهما قم .. وكأن شهوة المفارقة تكاد تلبث من مساهما !

« وظلت اليدان مستلقتين على المائدة الخضراء برهة . وكأنهما حيوانان بحريان قدفت بهما الأمواج على الشاطئ ، ميتين . يشير منظرهما التفرز .. وما لبثت إحداهما — اليد اليمنى — أن شرعت ترفع أصابعها في عناء « وهي ترتجف .. ثم انكشفت ، وأخذت تدور حول نفسها مترددة .. وإذا بها قد أمسكت بإحدى « الفيشات ، في حركة عصبية واضحة ، وراحت تدبرها — في حيرة — بين السباية والإيهام ، وكأنها عجلة صغيرة .. وفجأة ، تراجعت تلك اليد كنمر يتحفز « ثم قدفت بتلك « الفيشة » — من فئة المائة فرنك — إلى وسط المربع الأسود ، وكأنها تلفظها ، أو تبصقها ! .. وكأنما كانت هذه الحركة إيذاناً ليد اليسرى ، فإذا بها تضطرب — بعد أن كانت مستلقية بلا حراك — وتنفض بدورها فتسلسل زاحفة إلى أختها التي كانت ترتجف بعنف ، كما لو كان إلقاء « الفيشة » في المربع الأسود قد أنهكها واستنفد قواها .. ولاحت اليدان « وهما ترتجفان جنباً إلى جنب « كالأسنان حين تصطك في عنقوان الحمى .. وأخذتا في ارتعاشهما ترتطبان بالمائدة برفق « دون أن تحدثا صوتاً ..

« لا .. أبداً .. ما رأيت من قبل — على الإطلاق — يدين أوتيتا

لى كتنساع ، أو كرجل من (البلاستيك) لا ديب للحياة فيه ! .. كانت عينه - تلك العين الجامدة - لا تلتفت يمنة ولا يسرة . اللهم إلا فى لحظات خاطفة ، وقد قبع تحت جفنها المفتوح إلى أقصاه . حدة سوداء ، لا تتحرك . كأنها كرة من زجاج لا حياة فيها . بنعكس عليها طيف الكرة الزرقاء الأخرى . التى كانت تدور وتقفز فى جنون أرعن ، داخل صندوق (الروليت) الصغير . المستدير ..

* * *

● « وأكرر مرة أخرى أننى لم أر من قبل مثل ذاك الوجه المتعطل . القائن .. كان لشباب فى الرابعة والعشرين من عمره تقريباً .. وكان وجهاً نحيفاً ، لطيفاً ، على شيء من الاستطالة ، يطفح فى مجموعه بآيات ما كان ينتابه من انفعال .. وكان هذا الوجه - كالثيلين - خالياً من كل أثر الرجولة ، كما لو كان وجه طفل ينصرف إلى اللعب بكل مشاعره .. على أننى لم لاحظ كل هذا إلا فيما بعد .. إذ كان الوجه - حين تأملته للمرة الأولى - يستتر خلف تعبيرات صارخة تدل على جشع جنونى مستعر .. كان فيه صغيراً ، مفتوحاً ، وقد يلمت أسنانه خلال شفتيه القرمزيتين .. واستطعت أن أتبين - وأنا على بعد عشر خطوات منه - أن أسنانه كانت تصطاك فى رعدة محمومة ، بينما ظلت الشفتان ثابتتين فى انفراجهما .. وانسدلت على جبينه خصلة من شعر أشقر ناعم ، لامع ، تدلت من حافة رأسه كإنسان على وشك أن يسقط .. وانتهت طائقتى أنفه اختلاجة متواصلة . وكأن موجات صغيرة أخذت تندفع تحت بشرته ... وكان رأسه يزداد الخناء إلى الإمام

— دون أن يقطن حتى ليخال الناظر إليه أن ذلك الرأس كان يتجذب إلى الندامة التى راحت الكرة تدور فيها ..

« إذ ذاك فقط . أدركت مر العنف الذى كانت يدها تنضغطان به .. كان اشتباكهما واصطراحهما يحفظان التوازن لهذا الجسد الذى انتزع من مجال ارتكازه ! .. ومرة أخرى - أجدنى مضطرة إلى أن أكرر باستمرار أننى لم أوقف من قبل وجهاً تنبثق منه المشاعر فى غزارة دافقة ، ووحشية سافرة - عارية ، كذلك الوجه .. ووجدتني أتقرص فيه بكل جوارحي وأنا مشدوهة . مأخوذة بتلك النظرات المختبلة التى كانت تندلع من عينيه . وهو يرقب الكرة فى قفزها ، وحركتها ، ودورها ! .. منذ نبت اللحظة لم أعد ألنفت إلى أى شيء آخر ، فقد بدا لي كل ما عداها باهتاً ، صائفاً . لا قيمة له .. ولا ح كل شيء مظلماً إلى جانب ذلك اللهب المتبثق من ذلك الوجه !

« وبقيت لا ألنفت إلى شخص آخر سواه نحو ساعة من الزمن ، قضيتها فى تأمله وحده . وفى تأمل كل حركة من حركاته .. وفجأة ، انبعث من عينيه وميض وهاج ، وانشقت راحتي يديه المختفتين ، فانفصلت الأصابع بعضها عن بعض فى حركة عنيفة وهى تنفض .. كان ذلك حين دفع مراقب اللعب إلى اليمين عشرين قطعة ذهبية ، فأعطيتا عليها فى شراهة ونهم .. وإذ ذاك أشرق الوجه فجأة ، وارتدت إليه ميعة الصبا كاملة . وانبسط أساريره فى رفق ، وأبرقت عيناه .. أما جسده المتحنى إلى الأمام فقد اعتدل فى شاقة وخفة . والتعب كجسم فارس على صهوة جواده ، وقد انشده الخيل والحدوتين

القطع الذهبية يتردد بين أصابعه التي راحت تدبرها في شغف ووله ،
فتستط الواحدة منها على الأخرى ، وتراقص ، وتبعث رنيناً ..

« وما لبث الشاب أن أدار رأسه إلى المائدة من جديد .. في
قلق - وأخذ يدرج الرقعة الخضراء بنظراته ، ككلب صغير يتشم
الأرض بحثاً عن فريسة ! .. وفجأة ، وضع القطع الذهبية جميعاً على
أحد المربعات . بحركة عصبية سريعة ، وارتد لقوره إلى الترصّد
والتربص .. ومن جديد ، انساب من بين شفثيه ذلك الأزيز المهرت .
وعادت اليدان إلى توترهما ، وتوارى الوجه الصبياني خلف الرغبة
القلقة .. ودام هذا إلى اللحظة التي بلغت فيها خيبة الأمل درجة الانفجار
فتراحت تقلصات يديه ، وإذا الوجه .. الذي كان منذ لحظة يشبه
وجه الطفل .. قد ذبل ، وأظلم ، واكتهل ، وخد يريق عينيه !

« حدث كل هذا خلال ثانية واحدة . إذ استقرت الكرة على
رقم غير الذي كان قد اختاره .. وخسر ! .. ومرت ثانيتان حملق
الشاب خلالها في بلاهة وكأنه لا يفهم . ولكن .. ما أن عادت صيحة
مراقب اللعب « حتى نبهته كما لو كانت سوطاً ألحظ ظهره . فأثب
أصابعه في قطع ذهبية أخرى .. ولم يكن قد استقر على رأى في البداية
فوضع القطع الذهبية على مربع ، ثم غير رأيه ووضعها على مربع
آخر .. حتى إذا شرعت الكرة في الدوران ، سارع - ويده ترتعش -
فألقي بورفتين مالتين مبعدين على المربع ذاته ، كأثنا هبط عليه إلهام
مفاجئ ..

« وتعاقب عليه الريح والحسرة ، زهاء ساعة تقريباً ، كنت
خلالها لا أحول بصرى عن ذلك الوجه المتغير - بتأثير تعاقب
الانفعالات في مدها وجزرها - ولا عن تلكما اليدين الفاتنتين اللتين
كانتا ترتعان وتنفضان كقذيفة على سطح الماء ، وقد تجلبت على
كل عضلة فيهما سلسلة متصلة من صور الأحاسيس التي كانت تخالج
صاحبهما .. وما تطالعت في حياتي إلى وجه يمثل مسرحي يمثل هذا
الاهتمام الذي رحّت أرمق به ذلك الوجه الذي توالى عليه أفواج من
كافة الأحاسيس ، كما تعاقب الأضواء والظلال على المناظر الطبيعية ..
ولا استغرقت بكل جوارحي في تأمل شيء ، قدر استغراقى في التطالع
إلى هذه النيرة العارمة . العجيبة . ولو أن إنساناً راقبني في تلك الفترة
ورأى نظراتي المسندة التي كانت ثابتة لا تتزعزع .. لنحيل إليه أنه
أمام أدراة مبهمة تنوباً مغناطيسياً .. إذ كان استغراقى قد سلبني حسي
كما يفعل التنويم المغناطيسي تماماً !

« لم أكن أملك أن أكيح نفسي عن النظر إلى هذه التعبيرات
المتعاقبة .. وكان كل ما يحيط بي من أضواء ، وضججكات ، ومخوقات
متناثرة .. ونظرات .. كل هذه كانت تطفو حولى كما لو كانت
خيالات . أو كسحابة من دخان شاحب ، برز في وسطها ذلك الوجه
تخيظ به هالة من لب .. لم أعد أسمع شيئاً ، أو أحس بشيء ، أو أرى
الناس حولى وهم يندافعون .. لم أعد أبصر سوى تلكما اليدين تمتدان
فجأة كالأسلاك لتتدافا بالنقود فوق رقعة اللعب « أو لتجمعاها !
ولم أعد ألتفت إلى الكرة ، أو أسمع صوت مراقب اللعب .. ومع

ذلك كنت أرى كل ما يدور حولي ، مجسماً ، ومضخماً ، بتأثير
الانفعالات والاختلاجات التي كانت تنتاب يدي الشاب ، كما لو كنت
أحيا في حلم ، وليس في الواقع !

« وهكذا لم أكن بحاجة إلى أن أنطلق إلى مائدة (الروليت) ،
لأثبتن ما إذا كانت الكرة قد وقعت على اللون الأحمر أو على اللون
الأخضر . وما إذا كانت ماضية في الدوران أو أنها توقفت .. إذ كانت
كل مرحلة من مراحل اللعب .. سواء أكانت خسارة أو ربحاً ..
انتظاراً أو خيبة .. تقرأ بحروف من نار على ذلك الوجه الذي استبدت
شهوة المقامرة بأعضابه وحركاته !



« على أنه لم تلبث أن حلت لحظة رهيبية .. لحظة كنت أشيب
.. في قرارة نفسي .. من حلولها طيلة الوقت .. لحظة كانت غريبة
على أعصابي ، التي اشتد بها التوتر . كذا تخيم العاصفة ، قبل انقضائها
فجأة .. فقد بدأت الكرة تتناقل ، معدة تلك الارتطامات التي تشبه
التصفيق الخفيف .. ومرة أخرى تأرجحت تلك اللحظة الحاسمة التي
انطبقت فيها مائتا شقة لتحبس الأنفاس ، إلى أن علا صوت مراقب
اللعب ، معلناً في هذه المرة فوز رقم (الصفر) . بينما كانت بحرقته
السريعة الحركة تجمع القطع الذهبية الزائنة وأوراق النقد من جميع
جوانب المائدة .. ففي تلك اللحظة ، صدرت من اليدين حركة مفعمة
بالذعر ، إذ وثبتا على شيء ما ، لم يكن له وجود .. ثم نهالكتا في إعياء
.. وكانهما من الثقل بحيث شدتهما الجاذبية الأرضية إلى المائدة ! ..

سيفان وقايح

« احنا تخلصان في ألم .. على أن النشاط لم يلبث أن دب فيها ثانية ،
فانطلقتا تعديوان .. شحومتين .. من المائدة إلى الجسم الذي تنتميان
إليه . تنسلتان جذعه كقطعتين متوحشتين ، وتنقبان في الجيوب العليا
والسفلى . واليمنى واليسرى . بلهفة منفعة ، لتستوثقا من أنه لم يبق
في أي منها قطعة نقدية مضية .. ولكنهما كانتا ترتدان خاويتين دائماً ،
ثم لا يلبثان أن تعودا إلى البحث والتنقيب في لفظة ، ولكن .. دون
جدوى ! .. وبدأ قرص (الروليت) الصغير يدور من جديد .. في
نلك الآثناء .. فاستأنف اللاعبون لعبهم ، وتجاوب رنين القطع النقدية ،
وتجاوبت المقاعد تنزحزح . وآلاف المسمات الطائرة تملأ الجو
بالأقاويل .. والضحكات ، وقد توالى الجزع ، إذ اندمجت .. على
الرغم مني .. في تلك المشاعر جميعها . كما لو كانت أصابعي هي التي
راحت تبحث في جنتون ويأس عن أية قطعة من النقود قد تكون
متوارية في أحد الجيوب .. أو في ثنايا السترة التي تهدلت !

« وما لبث الشاب أن قفز مستوياً على قدميه فجأة ، وكأنه أحس
بتعب مبالغت .. وأخذ يشد قامته حتى لا يخطئ ، بينما هوى المقعد
خلفه . مرتطملاً بالأرض في صوت حاد .. ولكنه لم يعبأ بما حدث .
ولا التفت إلى جيرانه الذين انكشوا في دهشة وخوف من ذلك المترنح
الذي لم يلبث أن ابتعد عن المائدة بخطى متعاقلة .

« وممرت في مكاني حين رأيت ذلك المنظر ، فقد أدركت لفوري
إلى أين كان يسعى ذلك الرجل .. إلى الموت .. هالداً .. ينسحب من
المائدة بهذا الشكل ، لا يمكن أن يكون هذا إلا قديراً بالطبع ،

ولا ساعياً إلى ملهى : ولا ذاهباً إلى مخدع امرأة ، أو إلى مقعد محجوز له في أحد القطارات : ولا إلى أى مكان آخر في الدنيا .. وإنما هو يولى وجهه شطر .. العدم ! .. كان في وسع أبلد الناس إحراكاً .. في تلك القاعة الجهنمية — أن يدرك أن هذا الرجل قد غدا معدماً ، لا يملك مورداً في بيته ، أو في أى مصرف ، أو لدى أسرته .. كان قد قامر بآخر درهم معه .. بل قامر بحبائه ، ثم انطلق بتلك الخطى المتشافة ، المتعثرة ، إلى مكان ما ، لا يسه موقعه ، ولكن من المؤكد أنه خارج نطاق الوجود !

* * *

● « وكنت دائماً أوجس — وقد ساورني هذا الشعور منذ اللحظة الأولى ، بطريقة خفية — من أن اللعب هنا لا يقتصر على تنافس على الربح أو الخسارة .. ومن ثم وقع على وقوع الصاعقة أن أرى الحياة تغض من عيني هذا الشاب فجأة ، والموت يسطع صبغته الساحبة على ذلك الوجه الذي ما يزال في نضارة الفتوة .. فلما نهض من مكانه في عناء ، مترنحاً ، ضمنت قبضتي بشدة ، دون وعي مني .. إذ كنت قد تأثرت بحركاته المرنة إلى أقصى حد ، فسرت في جسدي مشيته المتعثرة ، كما سرت انفعالاته في عروفي وأعصابي من قبل .. ولم يسعني أن أقف مكتوفة اليدين « بل وجدتي مسوقة إلى أن أتبعه ، وأخذت قدماي تتحركان من تلقاء نفسيهما ودون ما إرادة مني .. كان ذلك دون وعي مني .. لم أكن أنا التي تتصرف ، ولكن الذي

حدث أنني اندفعت — دون ما انتباه إلى نفسي ، ولا وعي إلى حقيقة حركاتي — أجرى نحو الرعدة المنفضية إلى الخارج ..

« كان الشاب في غرفة إيداع الثياب ، وقد حمل له الخادم معطفه « ولكن ذراعيه لم تعودا تطيعانه ، فأسرع الخادم يعاونه على إدخال يديه في كمي المعطف . كما لو كان يساعد عاجزاً أو مشلولاً ! . وحينئذ يدس أصابعه بطريقة آلية في جيوب صدرية بحثاً عن مبلغ ينفع به الخادم ، ولكنها ارتدت خاوية بعد أن غاصت إلى قاع كل جيب .. وإذ ذاك ، بدا أنه تذكر فجأة كل ما مر به منذ لحظات ، فتمتم موجهاً للخادم بعض كلمات غير مفهومة .. وكما حدث منذ برهة « وثب فجأة إلى الأمام ، وهبط سلم الكازينو متعثراً كالمثل ، بينما ظل الخادم لحظة يرمقه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة « تمت في البداية عن ازدراء ، ثم لم تلبث أن تمت عن إدراك الحقيقة ..

« وكان هذا المنظر مثيراً إلى درجة جعلتني أنجمل لوجودي في ذلك المكان .. ووجدتني أشمخ بوجهي على الرغم مني ، لفرط ما انتابني من ضيق ، إذ خيل لي أنني أشاهد مسرحية عن مأساة من مآسي اليأس ، تحمل بإنسان لا أعرفه .. ودفعني ذلك الألم — الذي استولى على كيافي كله — إلى أن أمضي خلف الرجل فجأة .. فطلبت معطفي في عجلة . وبحركة آلية غريزية ، ودون ما تفكير ، اندفعت في الظلام ، أقتني خطوات الشاب ! »

* * *

الفصل الثالث

● أمسكت مسز (س.) عن الكلام برهة .. وكانت - طوال الوقت الذى مضى - جالسة فى مقعدها أمامى ، لا تحير حراكاً ، وهى تسرد حاديتها دون ما توقفت تقريباً ، بذلك الهدوء والوضوح اللذين امتازت بهما ، واللذين لا يتوفران إلا لشخص أعد نفسه لموضوع الحديث ، ونسق ترتيب الحوادث بعناية .. وكانت هذه أول مرة تمسك فيها عن الاسترسال .. وبعد تردد قصير ، تحت موضوع قصتها جانباً ، واتجهت بالحديث إلى مباشرة :

« لقد تعهدت أمامك وأمام نفسى بأن أروى لك كل ما حدث بصراحة خالصة من كل شائبة ، ولكنى - بدورى - أطلبك بأن تنق بصديق أقوالى ثقة مطلقة ، وألا تعزو تصرفى هذا إلى بواعث خفية أتجهل إذا فكرت اليوم فيها .. لأنك إن فعلت ، فستترسل فى احتمالات لم يكن لها قط أى ظل من الحقيقة ! .. ومن ثم ، أرى أن أؤكد لك أننى عندما أسرعت فى الطريق وراء ذلك المقامر المتداعى ، المخطم ، لم أكن قد وقعت فى غرامه - مثلاً - بأى حال من الأحوال . لأننى لم أكن أفكر فيه كما قد تفكر امرأة فى رجل !.. فالواقع أننى - وكنت قد جاوزت الأربعين إذ ذاك - لم ألقى اعتباراً لأى رجل قط . بعد وفاة زوجى ، بل صار ذلك بالنسبة لى شيئاً دفن مع الماضى !.. إننى أوضح لك هذا خصيصاً ، إذ لا بد لى من أن أبينه لك ، وإلا فلن يبدو لك كل ما تبغ ذلك من أحداث ، مفهوماً لا لقرط بشاعته !



أمسكت مسز (س.) عن الكلام برهة .. وكانت - طوال الوقت الذى مضى - جالسة فى مقعدها أمامى ..

« ومن ناحية أخرى ، يشق عليّ في الواقع أن أصف بدقة ذلك الشعور الذي لم أفو على مقاومته ، والذي دفعني إلى تعقب ذلك التعس . كان فيه شيء من الفضول ، ولكن الحافز الأكبر عليه كان أوثقاً من الخوف الرهيب .. أو بالأحرى ، التوجس من شيء رهيب شعرت به يستولي عليّ منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصرى على ذلك الشاب ! وليس في الوصف تحليل تلك المشاعر ، ولا بحثها ومناقشتها ، لا سيما وأنها تأتي متشابكة بعضها ببعض ، في قوة وسرعة ، ودون ما سبق تدبير أو تفكير .. بل لعل الباعث الذي دفعني إلى ذلك التصرف لا يختلف عن ذلك الحافز الغريزي الخفس ، الذي يدفع المرء إلى أن يخف إلى إنقاذ طفل يوشك أن يلقى بنفسه تحت عجلات سيارة في الطريق ١ .. وإلا ، فكيف نبرر تصرف أولئك الذين لا يبتعدون السباحة ، ومع ذلك يلتقون بأنفسهم من فوق قطرة ، إذا رأوا إنساناً يفرق ، رغبة منهم في إنقاذه ١٢ .. إن قوة خارقة .. إرادة خفية غامضة ، هي التي تدفع بهم إلى إلقاء أنفسهم في الماء ، قبل أن يتفحس لهم الوقت الكافي للتفكير في ذلك العمل الجنوني الجريء الذي يقدمون عليه !

« وهكذا كانت حالي تماماً .. فقد انطلقت - دون ما تفكير أو تدبير ، بل دون ما وعي على الإطلاق .. - أتعقب ذلك التعس ، من قاعة اللعب حتى الباب الخارجي .. ومن الباب الخارجي ، إلى فناء (الكازينو) .. وإلى لأومن بأنك ... بل بأن أي امرئ أوتي عينين مبصرتين ، ما كان ليقوى على أن يكبح نفسه عن ذلك الفضول

القلق ، المثير .. فليس أدعى للرائاء والأسي من تصور ذلك الشاب - الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره ، على الأكثر - وقد أخذ يجر قدميه في عناء ، هابطاً السلم ، ومتجهاً إلى فناء (الكازينو) الخارجي مترنحاً وكأنه ثمل . وقد التوت أطرافه وتخلخلت !



■ وهناك - في الفناء الخارجي للكازينو - تهالك متثاقلاً على أحد المقاعد . وكأنه زكية !.. ومن جديد ، ارتجفت حين عاودني الإحساس بأن هذا الرجل قد استنفذ كل حيويته .. فلا يمكن أن يتهالك بهذه الطريقة سوى ميت ، أو إنسان لم تعد فيه جاذبة حية !.. كان رأسه مائلاً إلى الوراء ، ومترنحاً على مسند المقعد ، وذراعه متدلّيتين نحو الأرض في استرخاء .. ولو أن عابراً شه تحت الضوء اتخافت الواهن .. المنبعث من المصاييح - لما ارتاب في أنه جثة فاقدة الحياة !

وهكذا اعتبرته أنا في تلك اللحظة ! وليس بوسعي أن أفسر كيف تبلورت هذه الصورة أمام ناظري فجأة .. ولكن هكذا كنت أراه إذ ذاك .. كأنني كنت أرى حقيقة بشعة مروعة .. كأنني كنت أشهد جثة !.. وكنت واثقة تمام الثقة من أنه يحمل مسدساً في جيبه ، ومن أن جسمه هذا لن يلبث أن يكشف في اليوم التالي على هذا المقعد ، أو على سواه ، هامداً ، غارقاً في بركة من الدم !.. كان شكله - في هذا الوضع - يشبه الحجر الذي تقذفه هاوية ، فيظلم وينحرج

دون توقف حتى يصل إلى قرارها .. أبداً لم يقدر أن أرى من قبل جسداً في وضع ينم عن اليأس والإعياء ، مثل هذا !

والآن « نخيل موقفي ! .. لقد وجدت نفسي على بعد عشرين أو ثلاثين خطوة ، خلف مقعد استقر عليه رجل فاقد الحركة، متداعٍ واحترت ماذا أفعل ! .. كنت — من ناحية — مدفوعة بالرغبة في إغاثة .. ومن ناحية أخرى ، كان يصدني الخوف من مخاطبة رجل غريب في الطريق .. وهو خوف متولد عن التربية والوراثة ! .. وكانت مصابيح الغاز ترسل ضوءها مستديراً ، شاحباً . نحو السماء المليدة بالغيوم .. والمسارة القلائل يسرعون الخطى ، إذ كان الليل قد أوشك أن ينتصف » ومن ثم كنت بمفردي .. تقريباً .. في المنتزه . مع ذلك الرجل الذي كان على شفا الانتحار !

واستجمعت قواي — خمس أو ست مرات — وهممت بالاقتراب منه ، ولكنني كنت أترجم بدافع الحياة ، أو بدافع من تلك الغريزة أو ذلك الإحساس العميق الذي يوحى إلينا بأن أولئك الذين يهزون من حائق ، يحدبون معهم في سقوطهم كل من يتجف لتجدتهم ! .. وفي غمرة هذا الموقف ، تبينت بوضوح مدى حماقتي وطيشي وحرص مركزي .. لم أستطع أن أتكلم ، ولا أن أنصرف ، ولا أن أفعل شيئاً ، ولا أن أترك الشاب وشأنه ! .. صدقتني إذا قلت إنني ظلت على هذه الحال .. في تلك البقعة — زهاء ساعة .. ساعة لم تتأ أن تنتهي .. بينما كانت أمواج البحر غير المنظورة تنبه الزمن بالآلاف متعاقبة من خفقاتها

الخفيفة .. وأنا ما زلت حائرة ، مضطربة ، إزاء هذه الصورة التي كانت تمثل النهاية الحزينة لمخلوق .. من البشر !

أجل . لم أجد من نفسي جرأة على أي قول ، أو أي عمل .. وكان من الممكن أن أقضي النصف الباقى من الليل في الانتظار على هذا النحو ، أو أن أعود أدراجي ، في نهاية الأمر ، بدافع من الأنانية .. نعم ، أعتقد أنني كنت قررت بالفعل أن أترك هذه الحزمة من التماسه لمصيرها : لولا أن تغلبت على ترددي قوة خارقة .. إذ بدأت المياه تتحدر ! .. كانت الريح قد ظلت الليل بطوله تجمع .. من فوق البحر . صب الريح المثلثة بالبخار ، حتى إن المرء كان يحس — برئتيه وقليه .. أن السماء تنوء بثقلها على الأرض ! .. وما لبثت أن سقطت قطرات من مطر ، أعقبها سيل منير من تلك السحب المليئة التي كانت الريح تطاردها .. ووجدتني أحتسى .. دون أن أفطن ... يستف إحدى مغزلات المنتزه .. ومع أنني استقيت مطلق مفتوحة ، إلا أن السيل اللدافق نثر على ملاييمي (كسلا) من الماء .. بل إنني شعرت بالرداذ المتبعث من ارتظام القطرات الثقيلة بالأرض يصيب وجهي ويدى .. ولكن .. شد ما كان المنظر رهيباً ، حتى أنني ما زلت إلى اليوم أشعر بغصه في حلقى كلما تذكرته .. أقول : ولكن التعس بقي .. برغم كل هذا . جامداً في مقعده لا تبدر منه أية حركة على الإطلاق ! .. وظل الماء يتدفق ويحيرى في المسارب ، بينما كانت قفحة عجالات العربات تنهالني إلى سعي من ناحية المدينة .. وكان الناس يعبرون هنا وهناك وقد تسربلوا بالمعاطف البيضاء كان على مخلوق

حي ينكمش على نفسه، وينشد ملاذاً وقد استبد به الفزع .. وبالإجمال
سيطر الخوف - من الطبيعة الثائرة - على كل إنسان وحيوان .. فيما
عدا تلك الحزمة الآدمية السوداء، التي ظلت في مكانها على المقعد
دون حركة ٥

■ ولقد ذكرت لك من قبل أن هذا الرجل أوفى مقدرة خارقة على
التعبير - بمرونة - عن مشاعره « بحركاته وإيماءاته . على أنه لم يكن
في الوجود ما هو أقوى في التعبير عن اليأس المطبق ، وعن التخلي
الكامل عن النفس » وعن (الموت الحى) « من ذلك الجمود .. تلك
الحال من فقدان الحركة وفقدان الشعور تحت وابل المطر .. وذلك
التخاذل البالغ ، الذى حال بين الرجل وبين الوقوف ليخطو الخطوات
الضاللة اللازمة حتى يبلغ أى ملجأ يحمى به .. كان عدم أكثراته
بنفسه قد بلغ حداً لا تصدقه العين .. أبداً لم يقدر لئال أو لشاعر
... ولو كان (ميكال أنجلو) أو (دانتى) .. أن يصور لى كيف يكون
مظهر اليأس الطاغى ، والنعاسة المطلقة في الدنيا ، ذلك التصوير القوى
المثير الذى تجل في مسلك ذلك المخالو الذى ترك نفسه تغرق في
العاصفة .. فقد بلغ من الانحلال والتخاذل مبلغاً عجز معه عن الإتيان
بأية حركة 11

ولم أستطع إلى المقاومة سبيلاً « إذ لم يكن ثمة يد من عمل شيء ..
فما لبثت أن وئيت تحت المطر الغزير الذى كان يتساقط بعنف فهزرت
تلك الحزمة البشرية التى كانت على المقعد » والتي أغرقها السيل

المنهمر .. وقلت له وأنا أسلك بذراعيه : « تعال ! .. وتطلع إلى »
- فى عشاء - وجه غامض المعالم .. وخيل لى أن ديبياً من الحركة
يمر فى أوصاله « ولكنه لم يفقه ندائى .. فقلت وأنا أجره من كم
معلنه المبطل ، وقد أوشكت لهجى أن تم عن غضب : « تعال ! .. »
فتبض إذ ذاك فى بطاء ، مسلوب الإرادة ، مترنحاً .. وسألنى : « ماذا
تريدين ؟ »

ولم أجده لسؤاله جواباً ، فقد كنت لا أدري إلى أين أذهب به ..
لم يكن يعنى سوى أن أترعه من ذلك المطر الغزير البارد « ومن ذلك
التخاذل وعدم الاكتراث الذين كانا بمثابة الانتحار » واللذين أبقياه
فى ذلك المكان فريسة ليأس قاتل .. وظللت ممسكة بذراعيه ، ثم
أخذت أجرك تلك الحزمة البشرية ، حتى وصلت بها إلى « كشك »
بأفحة الزهور ، إذ كان لسقفه حافة منبسطة قليلاً ، تستطيع أن تسمى
الرجل من المياه التى كانت تنصب انصباباً ، فتدفعها الريح فى عنف .
لم أكن قد فكرت فى شيء .. بل لم أكن أبهى سوى هذا « إذ لم يكن
يشغل فكرى سوى أمر واحد : هو أن أسلم ذلك الرجل إلى ملجأ ..
إلى مكان آمن من الليل !

وهكذا وجدنا نفسي - جنباً إلى جنب - فى ذلك الحيز الضيق
الذى احتسبنا به ، ومن خلفنا باب « الكشك » المغلق ، وفوق رأسي
حافة السقف التى كانت من الضيق بحيث أن مياه المطر الدافقة كانت
تسلسل عبرها ، لتقفنا برشاش تجعله أنفحات الهواء الشديدة إلى
ملاييننا ووجهينا .. ولم يلبث الموقف أن أصبح يبعثنى إلى .. فما كنت

أملك - برغم كل الاعتبارات - أن أبقى أكثر مما بقيت إلى جوار هذا الغريب المثقل بالليل .. كما كان من المستحيل عليّ أن أتخلى عنه بعد أن زحزحته عن مكانه - ليجرد رغبتي في تركه ، ودون أن أحلّته بشيء ! .. كانت الضرورة تحتم أن أفعل شيئاً ! .. وما لبثت أن انتهيت رويداً إلى فكرة صائبة ، واضحة .. فكرت في أن خير ما أستطيع أن أفعله - هو أن أرافقه في عربة إلى المكان الذي يقيم فيه ، ثم أعود إلى حيث كنت أقيم .. ولسوف يعرف .. في غده - كيف يتصرف في مصيره ..

« ومن ثم سألت الرجل الواقف بجواري ، والذي كان يحمل في الليل البهيم : « أين تقيم ؟ » .. فقال : « لا مأوى لي .. لقد حضرت الليلة بالذات من (نيس) ، ولا سبيل لأحد أن يرافقتي ! » .. ولم أدرك في الحال ما كان الرجل يرمي إليه ، ولكنني فهمت فيما بعد أنه كان يظن أنني .. أنني .. أنني من أولئك النسوة اللاتي تحوم أفواجهن حول (الكازينو) في الليل ، أملاً في الظفر ببعض المال من اللاعبين المحظوظين ، أو ممن لعبت الخمر برعوسهم !

■ « ترى ، كيف كان من الممكن أن يظن غير ذلك لا .. إن ظنونه لم تبعد كثيراً عن الحقيقة ، فأنا ما زلت أشعر - إذ أروى لك الآن قصتي - بغربة موقني في ذلك الوقت ! .. وإلا ، فأية فكرة أخرى كان يمكن أن تراوده ، وقد انتزعته من مقعده ، وجرفته معي دون ما حرج أو تردد ؟ ! .. ما كان هذا في الحق مسلك سيدة محترمة ! ..

يبد أن هذا لم يخطر ببالي إذ ذاك ، ولم أفطن - إلا فيما بعد - وحين فأت الأوان - إلى مدى ازدهاره المتذرع لي .. ولو كنت أدركت لفوري مغزى كلامه ، ما انطلقت من في هذه الألفاظ التي كانت تخلقة بأن تدعم ظنونه الخاطئة ، إذ وجدته أقول له :

.. استأجر الآن حجرة في فندق ، فليس يوسعك أن تبقى هنا .. يجب أن تعثر لك على مأوى في الحال !

« وإذ ذاك فقط ، أدركت ظنه القاطع ، إذ قال في شيء من السخرية ، ودون أن يلتفت نحوي : « لا ، لست بحاجة إلى غرفة .. لم أعد بحاجة إلى شيء ، فلا تتعب نفسك .. لا منفعة ترجى مني .. لقد أخطأت الاختيار ، فليست أملك نقوداً ! » .. قال هذه الكلمات في شجاعة بشعة ، وفي استهتار مثير ..

« وكان يبدو - في وقفته المسترخية وطريقته في الاعتماد على سباح الكشك » - مثيراً للاشمئزاز ، إذ كان خائر القوى ، مبهلاً حتى عظامه .. وأثار مسلكه في نفسي ألماً شديداً لم يدع لي وقتاً للإحساس بالإهانة التي وجهها إليّ في قفحة وحماسة .. كان الشعور الوحيد الذي تملكني وظل يلازمني - هو نفس ذلك الشعور الذي داخلني حين رأيته يغادر بهو (الكازينو) مترجلاً ، والذي رافقتي طوال تلك الساعة التي لا تخطر ببال .. الشعور بأنني أرى إنساناً - في عنفوان الشباب ومقتبل الحياة - يسعى إلى الموت ، فن واجبي أن أنقذه ! .. لذلك ما لبثت أن دنوت منه قائلة : « لا تحبل للمال هباء .. بل انتبه ! .. إنك لا تستطيع

البقاء هنا طويلاً .. سأبحث لك عن مأوى .. لا تقلق .. لما عليك إلا أن تتبعني ! » .

« وتحرك رأس الشاب في إيماءة تدل على أنه اقتنع بنواياي ، إذ كان المطر ينهمر حولنا في عنف محدثاً خريراً عالياً . وينساب تحت أقدامنا في غزارة .. وأحسست خلال الظلام بأنه يجاهد كي يتأمل وجهي للمرة الأولى .. وبدأ كأن جسمه قد أخذ يستيقظ من سباته . ثم قال :
« ليكن ما تشائين .. كل الأمور تستوي عندي .. لم لا ؟ » لنصرف ! »

« وفتحت مظلتي . فاقترب مني . وأخذ ذراعه تحت ذراعي ، فشعرت بالاشمئزاز من هذا التبسط المفاجيء .. أجل - أزعجني إقدامه هذا على رفع الكلفة ، فداخلني دعر نفذ إلى أعماق قلبي . ولكنني لم أجد ابشراً على أن أصاب الرجل عن هذه الألفة . فإن صدعني كان كفيلاً بأن يرده إلى المحاوية . فيضيق كل ما بذلت حتى الآن بدءاً !

« وسرنا بضع خطوات في اتجاه (الكازينو) .. وإذ ذاك فقط ، أدركت أنني تورطت معه . ورأيت .. بعد تفكير سريع .. أن أفضل الحلول هو أن أحبه إلى فندق .. ثم أضع في يده بعض النقود ليستطيع أن يدفع أجر غرفته ، وأن يسافر إلى (نيس) .. لم يخطر ببال قط أي شيء آخر ! .. وإذ كانت العربات تمر تباعاً وهي مسرعة . أمام (الكازينو) ، فقد استدعيت إحداها ، وصعدنا إليها .. وعندما سألتني الخوذة عن مقصدنا ، لم أدر - في البداية - بماذا أجيبه .. ثم خطر لي بغية إن هذا الرجل الغارق في الليل من رأسه إلى قلبه - والذي

كان إلى جوارى - لا يمكن أن يجد ترحياً في فندق محترم .. كذلك لم يدرك بخلتي قط .. لفلة تجربتي - إن من المحتمل أن يرتاب أحد في أمري وأنا على ذلك الوضع مع شاب - فاكثفت بأن قلت للخوذة :
« إلى أي فندق صغير ! » .

« وللب الخوذة الغارق في الماء ظهر جواده بقوة .. أما الأجنبي الذي كان يجلس إلى جوارى . فقد بقي صامتاً . بينما أخذت عجالات العربية تفرق في سيرها . والماء يرتطم بنواخذ العربية في عنف .. ويخيل إلي وأنا في ذلك الحيز الضيق . المعتم . أنني برفقة ميت في تابوت ! .. وسأولت أن أفكر .. أن أوق إلى كلام أخف به غرابة وقسوة هذه الزمالة الليلية ، ولكنني لم أحتد إلى شيء ! .. وإن هي إلا دقائق ، حتى توقفت العربية عن المسير ، فهبطت . ونقذت الخوذة أجره ، بينما كان الشاب قد هبط وأفل باب العربية . والنحاس يغالبه .. ووجدنا نفسي أمام باب فندق لم أكن أعرفه ، وفوق رأسنا مظلة زجاجية تلو الباب . وتبيننا المطر الذي كان يتساقط في استرسال ممل ، فظلم فيشق أنسياله الليل البهيم ..

« واستند الشاب إلى الحائط على الرغم منه ، والماء يقطر من قممته ومن ثيابه المهدلة . كما لو كان ينساب من ميزاب .. كان كفريق انتشل من اليم . ولم يسترد بعد رشده تماماً ! .. وأخذ الماء يتجمع حول البقعة الصغيرة التي وقف فيها .. على أنه لم يبال بقل جبهه كسي يهز نفسه فيخرجها من هذا الخور ، أو ينصرف عن قبعته الماء الذي

كان يتقاطر باستمرار على جبهته ووجهه ، بل ظل جامداً في وقفته ..
إنني لأعجز عن أن أصف لك مدى تأثرى لمنظر هذا الإنسان المهمل ..
ولكن ، كان لابد من تصرف ينقذ الموقف ، ومن ثم وضعت يدي
في جيبي وقلت له :

.. هاك مائة قرنتك تدفع منها أجر الغرفة ثم تسافر غداً إلى (نيس) .
« فطلعت إلى بدشة ، بينما استمرت قائلة ، إذ لاحظت تردده :
« لقد كنت أراقبك في قاعة اللعب . وعرفت أنك خسرت كل
ما معك . فخشيت أن تقدم على حفاقة .. ليس من العار في شيء أن
تقبل معونة .. هيا . خذ ! » .

« ولكنه دفع يدي بقوة لم أكن أتوقعها منه ، وقال : « إنك فتاة
طيبة ، فلا تبعثرى نقودك .. لم يعد هناك ما يمكن عمله لي ، ولم يعد
يبنى إذا حظيت الليلة بمرقد أو لم أحظ .. فغداً يتبى كل شيء ! ..
لم يعد هناك مجال للأمل ! .. فخشيت في إصرار : « لا .. يجب أن
تقبل هذا المبلغ . وسوف يتغير رأيك غداً .. أما الآن ، فادخل
الفندق ، وانعم بنوم هادئ .. إن الليل خير صديق تأتمنه على متاعبك .
حتى إذا أقبل النهار ، فسوف تجد الأمور على حال تناقض ما يبدو
لك الآن ! » .

« وإذا حاولت أن أفسد النقود في يده مرة أخرى ، دفعني ببعض
الغضب ، مردداً بصوت أجش : « لا جدوى ! .. ليس هذا من
نفع ! .. من الخير أن أنقذ ما أنا مقدم عليه . خارج الفندق . حتى

لا أُلْطِخ حجرة أصحاب هذه الدار بالدم ! .. لن تنقذني مائة فرنك !
ولا ألف فرنك .. لن يكون لما يتبقى من هذه الترنكات من أثر سوى
أن تردني مرة أخرى إلى (الكازينو) غداً . فلا أبرحه حتى أخسرها
جميعاً .. لماذا أبدأ من جديد ؟ .. لقد عانيت ما فيه الكفاية ! ..

« ... ليس بوسعتك أن تتصور ما أحدثته ذلك الصوت الأجش
من أثر في نفسي ! .. قدر موفقي ! .. تصور إنساناً . شاباً ، ذكياً ،
مليئاً بالحياة والصحة ، يقف على بعد خطوتين منك . وما لم يستخدم
المرء معه كل حيلة ، فإن هذا الشاب المزدهر . المفكر ، المتكلم ،
المتبجح الأنفاس ، لن يلبث أن يستحيل إلى جثة هامدة . في خلال
ساعتين ! .. لقد استبدت في إذ ذاك رغبة جامحة في أن أذلل إصراره
الجنوني ، فأمسكت بذراعه قائلة : « كف عن هذا الهذيان الأخرق ! ..
ستدخل الفندق وتستأجر غرفة ، وسأتيك صباح غداً فأصحبك إلى
الخطبة .. إذ يجب أن تغادر هذا المكان ، وأن تعود إلى بلدك غداً ..
ولن يبدأ لي بال حتى أراك بنفسى وقد اتبعت تذكرة السفر ، واحتلت
مكانك في القطار .. إن الإنسان لا يبدد شبابه بالانتحار ليجرد أنه خسر
بضع مئات . أو بضع آلاف من الترنكات .. هذا جبن .. إنها نزوة
حقاء من نزوات الغضب والسخط .. وسوف تتبين بنفسك غسداً
أنني على حق !

« فقال في لهجة أفعمت بالسخرية والمرارة إلى درجة غريبة :
« غداً ! .. غداً ! .. ليتك تعلمين أين سأكون غداً ! .. أعلم

— أنا نفسي — أين أكون غداً ! .. الواقع أنني جدد مشوق إلى معرفة هذا .. لا ، عودي إلى دارك يا صغيرتي ، ولا تعجب نفسك ، ولا تبدي مالك ! .. غير أنني لم أثنأ أن أراجع ، فقد كدت أجن لفرط سخطي وحتى ، ومن ثم أمسكت يده بعنف ، ودمست قبسا الورقة المالية قسراً ، وأنا أقول : « خذ هذه ، وادخل في الحال » .. وسرت إلى الباب في حزم ، ففسطت زر الجرس ، وأنا أقول : « ها قد ضغطت الجرس ، ولن يلبث حارس الباب أن يفد ، فتصعد لتنام .. ولسوف تجدني في انتظارك أمام الفندق في الساعة التاسعة غداً ، لأصحبك فوراً إلى المحطة .. ولا تشغل بالك بما يعتب ذلك . إذ سأدير لك كل ما يمكنك من العودة إلى بلدك . أما الآن ، فاذهب ، ونم في هدوء ، ولا تفكر في أي شيء مطلقاً !

* * *

■ « وانبت صرير المفتاح في قفل الباب في تلك اللحظة ، ثم ظهر الحارس .. وإذا بالشاب يقول في فجأة . وفي صوت حاد ، حازم ، آمر : « تعالى ! » .

وأحسبت بأصابه الحديدية تطرق معصمي بقوة ، فجزعت .. بل بلغ من فزعي أن تبيست مفاصلي ، وكأنما مستقي صاعقة ، فلم أعد أحس بأني في كامل وعي ! .. وأردت أن أذود عن نفسي ، وأن أتملص وأفلت . غير أن إرادتي تددت .. ولعلك تفهم موقفي .. كنت .. لقد خجلت — أمام حارس الباب . الذي كان صبره قد

أوشك أن ينفد — من أن أشتبك في نضال مع شخص غريب .. وهكذا .. وهكذا وجدته فجأة في بهو الفندق .. ووددت أن أتكلم .. أن أقول شيئاً .. ولكن صوتي احتبس في حلق .. كانت يده تمسك بذراعي في قوة وجبروت .. وأحسست ، وأنا في شبه غيبوبة ، بأنه يجبرني — دون أن أفطن إلى ما ينبغي أن أفعل — إلى أعلى السلم .. ثم سمعت صرير مفتاح ..

« وفجأة . انلبت إلى أنني وحيدة مع ذلك الشاب الغريب ، في حجرة غريبة . في فندق مجهول . لم أعرف اسمه حتى اليوم ! !

* * *

الفصل الرابع

■ عادت مسز (س .) إلى التوقف عن الحديث .. وتهضت عن مقعدها فجأة ، وقد أحبت بصوتها بعصاها ، فالتجأت إلى النافذة ، وراحت تطلع خلال زجاجها ليضع دقائق . وهي صامتة .. أو لعلها لم تكن تطلع ، وإنما استراحت إذ ألصقت جبهتها بزجاج النافذة البارد !.. الواقع أنني لم أحرز على أن أثبت من هذا تماماً ، إذ ألتني أن أرقب السيدة العجوز وهي فريسة لانفعالاتها .. ولبت في مكاني صامتاً ، لا أسأل ، ولا أحدث صوتاً .. ومكنت أنتظر حتى عادت في خطي هادئة ، وجلست أمامي ، قائلة :

« حسناً .. لقد فرغت من سرد أفضع ما في القصة .. وأرجو أن تصدقني إذا أكدت لك مرة أخرى ، وأقسمت بكل مقدس عندي - بشرى وبخية أولادى - أنه لم يكن قد خطر ببالى مطلقاً ، حتى تلك اللحظة » أى خاطر عن احتمال وقوع أية علاقة بدنية بيني وبين هذا الشاب الغريب ، وإنما كنت - بحق - مسلو به الإرادة .. لقد انزلت فجأة من حيالي المستقيمة إلى هذا الموقف .. دون ما وعى - كمن تعثرت في شرك !.. لقد أقسمت لك بأن ألزم الصديق إزاهك - وإزاء نفسى .. ومع تمسكى بنفسى أؤكد لك للمرة الثانية أنني لم أكن مدفوعة بشئ - على الإطلاق - سوى الرغبة الجامحة في أن أسدى عوناً ، فلم يدانلني أى شعور شخصي .. وأكرر لك مرة أخرى أني تورطت في هذه المغامرة الختزية دون ما رغبة أو توقع !

ستيفان ذئاج

وأرجو أن تعفني من أن أروى لك ما حدث في تلك الغرفة .. أبداً لم أنس ، ولن أنسى دقيقة واحدة من دقائق تلك الليلة .. كنت في صراع مع إنسان ، لكي أنقذ حياته !.. أجل ، وأكرر القول بأن الأمر - في ذلك الصراع - كان متعلقاً بحياة رجل أو موته .. كانت كل جارحة في كياني تشعر بإحساس جازم ، لا يشوبه أدنى شك ، بأن ذلك الرجل .. ذلك الغريب - الذي كان إذ ذاك يقف وإحدى قدميه في العدم - كان أشبه بالفریق الذي يتشبث بآخر قشة ، في لفة الإنسان وانفعاله حين يحس بقبضة الموت !.. كان يتعلق في تشبث المرء الذي يرى المساوية تحت قدميه .. أما أنا ، فقد استجمعت كل قواي - بل كل ما في كياني من طاقة - لكي أنقذه !

إن المرء لا يعيش ساعة كهذه إلا مرة واحدة في حياته .. وليس كل امرئ يعيشها ، ولكن واحداً من ملايين الناس هو الذي يقع له هذا !.. وما كنت لأعرف - قبل هذا الحادث الفظيع - ولو على سبيل الخس - مدى تلك القوة المستتية . ولا ذلك السعار الجامع ، اللذين يستعين بهما رجل تخلت عنه الدنيا .. رجل ضائع ، كمن يتشبث بأصائل قطرة حمراء من دم الحياة ، للمرة الأخيرة !.. ولما كنت قد قضيت عشرين عاماً بملأى عن كل ما في هذا الوجود من قوى الشر ، فقد شق على إذ ذاك أن أتبين الروعة العجيبة ، الخارقة ، التي تحشد الطبيعة بها - أحياناً - في بضعة أنفاس لا هذه - كل ما تملك من حرارة وبرودة ، ومن حياة وموت ، ومن هناقة وشقاء !..

كانت تلك الليلة مفعمة بالصراع . والكلام . والشهرة ، والغضب والحق ، والدموع ، والضراعة ، والنشوة ، حتى خيل إلى أن هذه الليلة الواحدة دامت ألف عام .. فهذان الآدميان .. هو وأنا .. اللذان ترديا ، واعتبرا معاً إلى قرار المحاوية ، يحمل أحدهما في أعماقه لورة الموت ، بينما يجرد الآخر من كل إحساس .. هذان الآدميان اللذان خرجا من هذا الصراع وقد تغيرت معالم كل منهما تغيراً تاماً .. خرج كل منهما مختلفاً ، متبايناً كل التباين عما كان .. خرج بروح جديدة . ومشاعر جديدة !

على أنني لن أحدث عن تلك الليلة ، فلست أبني .. ولا أنا راغبة .. في أن أكتشف عما جرى فيها ، ولو أنه لا بد من أن أذكر شيئاً عن تلك الدقيقة الفذة التي استيقظت فيها ، في صبيحة اليوم التالي .. فلقد مات من نوم عميق ثقيل .. من ظلمة حالكة لم يكن لي بها عهد من قبل ، مطلقاً .. واستغرقت وقتاً طويلاً حتى استطعت أن أفتح عيني ، فإذا أول ما أرى سقف غرفة مجهولة يعلو .. ثم تبين .. بعد مزيد من التأمل .. أنني كنت في مكان غريب ، مجهول مني .. مكان كئيب . لم أدر أي ذنب رماني فيه .. وجهدت .. في البداية .. كي أفتح نفسي بأنني في حلم .. حلم جلي ، واضح ، ساقى إليه ذلك النوم الثقيل . المملء بالرؤى المضطربة .. ولكن ضوء الصباح كان يتجلى خلال النوافذ ، وجبله الطريق تتناهى إلى منى : قرقة العربات ، وأجراس قاطرات الترام ، وأصوات الناس .. فأدركت أنني لم أكن حاملة ، بل مستيقظة .. ورحت أناضل كي أستعيد شتات ذهني .. وفيما كنت

أنفت جانياً . رأيت - ولن أستطيع أن أصف لك الذعر الذي غشيني إذ ذاك - رأيت رجلاً مجهولاً . ينام إلى جوارى في السرير الواسع .. كان غريباً .. غريباً .. غريباً تماماً ! .. رجلاً شبه عار . لا أعرفه ! « لا .. إنني واثقة من ألا مبيل إلى وصف ذلك الذعر الذي استولى على في عنف . حتى جعلني أتهاك في الفراش مرة أخرى . جامدة الحراك .. على أنني لم أصب بإعواء حتى أفقدني الرشد . وإنما .. على التيقض .. رأيت كل شيء يتجلى لإدراكي بسرعة البرق .. تبينه ، ولكني لم أدرك له كنهاً . فإذا بي أتخي الموت لفرض الاشترازي واستحيائي من أن أجعل نفسي بفتة . وفي هذا الوضع ، مع مخلوق غريب عنى تماماً . وفي فراش غريب . في فندق وضع ، وبغرفة تثير الشبهات ! .. وما زلت إلى اليوم أذكر أن قلبي كف عن الوجدية . أن أنفاسي احتجست . وكأنما كنت أبقي بذلك أن أضع نهاية لحياقي ولوعني بوجه خاص .. ذلك الوعي الذي انجلى بدرجة هائلة ، فأدرك كل شيء .. ولكنه مع ذلك لم يفقه لشيء معنى !

ولست أدري كم من الوقت قضيته في هذا الوضع . وقد تبست أطرافي جميعاً . كما تبس أجساد الموتى في أكفانها .. فأغمضت عيني ، وتضرعت إلى كل ما في السماء من قسوى - أيأ كانت .. ألا يكون كل هذا حنيفة .. ولكن حواسي المرهقة لم تدع لي مجالاً للارتياح .. إذ كنت أسمع في الحجرة المجاورة أشخاصاً يتكلمون . وماء ينزى . وخطوات في الزددة .. كلها علامات تؤكد يقظة حواسي .. وصحة ما وعته .. يا للقسوة !

قلت : إنه ليس في وسعي أن أحدد مدى الوقت الذي استغرقه هذا الموقف الفظيع .. فإن الزمن - في موقف كهذا - لا يقاس بثواني الحياة العادية .. ولكن .. ما لبث أن استحوذ على خوف من نوع آخر .. الخوف الجبار ، البشع ، من أن يستيقظ ذلك الغريب - الذي لم أكن أعرف اسمه - فيخاطبني !.. وأدركت لقوري أن ليس أمامي سوى مخرج واحد - ذلك هو أن أرتدي ثيابي وأفر قبل أن يستيقظ ذلك الغريب ، حتى لا يراني ولا أقصده إلى .. كان لا بد من أن أجد بنفسي في الوقت المناسب - وأن أنصرف .. أن أنصرف لأسترجع حياتي الأصلية - بأية طريقة - ولأعود إلى الفندق الذي أقيم فيه . ثم أبارح - في الحال . وفي أول قطار - هذه البقعة اللعينة - أن أهجر هذه البلدة كئي لا ألتقي بعد ذلك مطلقاً بذلك الرجل ، فلا أرى عينيه ، ولا أرى فيه شاهداً ، وشريكاً ، وقاضياً يدينني !

وتغلبت هذه الفكرة على الجمود الشارد الذي اعتراني ، فتسللت من الفراش - في حيلو وبمركات اللص الجريص - وتناولت ملاهي بأطراف أناملي ، وأنا أتحرّك في احتراس تام حتى لا أحدث صوتاً .. وارتميت ثيابي في حذر بالغ . وأنا أخشى أن يستيقظ بين لحظة وأخرى . وما لبثت أن أصبحت على أهبة الخروج وخفي غاييتي .. لم تبق سوى قيعتي التي كانت في الجانب الآخر من الفراش .. وسرت على أطراف أصابع قدمي ، أسعى إليها .. وفي تلك اللحظة ، لم أتمالك من أن ألقى نظرة على وجه ذلك الرجل الذي هوى في حياتي كحجر انفصل بغتة عن حافة بناء .. ولم أكن أبني أن ألقى عليه سوى نظرة

واحدة - ولكن .. حدث إذ ذاك أمر عجيب .. تبين أن الشاب الغريب النائم - كان غريباً حقاً بالنسبة لي .. فلم أعرف في معامه لأول وهلة على ذلك الوجه الذي رأيت بالأمس : إذ تلاشت تلك الأساور المتورقة - المتشعبة التي كان الانفعال يمسحها .. وإذا أمامي وجه آخر .. وجه صغير .. وجه صبي يتألق .. والحق يقال - بالطهر والسمانة .. وبذت الشفتان ، اللتان كانتا بالأمس متقلصتين بين منوالهما . وقد انفرجتا عن ابتسامة حاملة . عذبة .. وتهدلت على جبينه خصلات ناعمة من شعره الأشقر . بينما تنابعت أنفاسه في هدوء .. وقد سرت الراحة في جسده . فكأنها موجات وضوء تدب من صدره ..

ولعلك تذكر ما سبق أن قلته من أنني لم أر أبداً في حياتي علامات الجشم الضاوي . والانفعال العارم . تتجلى بمثل تلك القوة وذلك العنف اللذين تجلت بهما على وجه ذلك الشاب الغريب . حين كان جالساً إلى مائدة الميسر .. أما الآن فأقول لك : إنني لم أر قط على وجه ما - ولا وجوه الأطفال الرضع ، التي تحف بها هالات من الرقة الملائكية - مثل ذلك التعبير الذي نهم عن طهر صاف . وعن نعاس هادئ .. كانت كافة المشاعر ترسم على ذلك الوجه في روعة لا نظير لها ، كما لو كان يحظى براحة فردوسية .. يتحرر من جميع الموم النفسية .. بخلاص وتخفف من المتاعب وأسباب الشقاء !

وما أن ترأى لي في هذا المظهر الرائع ، حتى انجابت عني كل رهبة . واتراج كل قلق . كما يتراج العطف الأموة النسيم عن

المثكين .. ولم أعد أشعر باستحياء .. بل لاني - على العكس - أحسست بالسعادة !.. وفيجأة : بدأت أدرك مغزى هذا الحادث المروع ، غير المتفهم بالنسبة لي .. وشعرت بالزهو والغبطة حين تصورت أنه لولا رعايتي ، لكان هذا الشاب اللطيف الجميل - النائم في وداعة الأثرار - ملقاً إلى جوار مخفزة ، محطماً ، غارقاً في الدماء ، وقد لبس وجهه ، وحفظت عيناه . وفارقته الحياة !.. لقد أقتلته !.. لقد نجاة !.. وبين الأم - ولست أجده تعبيراً آخر - أخذت أتأمل ذلك المراهق النائم ، الذي رددت إليه حياته . وعانيت في سبيل ذلك الأمل تفوق تلك التي عانتها وأنا أضع ولديّ عند مولدهما .. وفي تلك الغرفة الفخمة ذات الأثاث القديم . وفي ذلك الفندق الزرى الذى تباح فيه محاولات التنس . شعرت فجأة بنفس الشعور الذى بداخلني وأنا في الكلية .. وهو أمر خليق بأن يؤثر تحريكك ، ولكنني أحسست في فوق تلك الغبطة التي يبعثها الكمال معجزة خارقة .. أحسست بالظهور والتداسة !!

وتولدت من أظفح لحظة عشقها في حياتي . لحظة أخرى صنوها .. لحظة هي أعجب اللحظات وأشدّها وقعاً على نفسي .. ولست أدري ، هل بدرت مني ضجة ما كان ينبغي أن أحدثها ، أو أنني تكلمت دون أن أعني أو أفعل .. إذ فتحت النائم عينيه فجأة ، فجزعت وترجعت مأخوذة .. أما هو ، فأخذ يتلفت حوله في دهشة ، تماماً كما فعلت أنا من قبل . ولاح كمن يخرج بعناء من حوة عتيقة مائلة .. وجماس بصره في الغرفة الغريبة - في جهد غير بسيط - ثم استقرت نظراته على في



تبينت أن الشاب الغريب النائم ، كان غريباً حقاً بالنسبة لي ..

دهشة بالغة .. وقبل أن يتمكن من الكلام أو من استيعاب شتات ذهنه كنت قد استعدت رباطة جأشى .. وما كان ينبغي أن أضع له فرصة لينطق بكلمة واحدة . أو ليوجه أى سؤال . أو يبدئ أية ألقة .. إذ يجب ألا يستعاد شيء من أحداث الأمس . أو يذكر شيء عن تلك الليلة .. لا إيضاح . ولا مناقشة !

وقلت له : « يجب أن أنصرف .. أما أنت . فلتبق هنا .. ارتد ثيابك ، وسأنتظرك عند الظهر أمام (الكازينو) . حيث أدير لك كل شيء ... »

« وقبل أن ينبس بكلمة واحدة . كنت قد لذت بالفرار ، حتى لا أرى تلك الغرفة لحظة أخرى . واندفعت إلى الخارج .. غير ملتفتة بنسبة ولا يسرة . مغادرة ذلك المنزل الذى لم أعرف اسمه . ولا اسم الغريب الذى قضيت معه ليلة بين جذيراته !



الفصل الخامس

■ أمسكت مدام (إس) عن متابعة قصتها هنيئة ، ريثما تسترد أنفاسها . فلما عادت إلى الحديث . لم يكن ثمة أثر للألم أو الانفعال في صوتها .. كانت كالعربة التى تصعد منحدرًا ، فتبذل في صعودها جهداً مقصداً .. ولكن ما أن تصل إلى القمة حتى تأخذ في هبوط الجانب الآخر من المنحدر ، وعجلاتها تدور مندفعة في سهولة وسرعة .. الآن أصبح لها جناحان تحلق بهما في آفاق قصتها ، ومن ثم استأنفت الرواية متخففة عما كانت تعاني من انفعال :

هكذا عدوت إلى فندقى ، مجتازة الشوارع التى عمرها نور الصباح بعد أن ملدت العاصفة جميع الغيوم التى كانت متجمعة في السماء ، كما انشعبت جميع يواغث الألم عن نفسى .. ولا تنس ماسبق أن قصصته عليك من أننى ... منذ وفاة زوجى .. أصبحت زاهدة في الحياة كل الزهد .. فلأن ولدى لم يكونا بحاجة إلى : ولم يكن هنالك ثمة ما يعينى أو يثير اهتمامى .. وكل حياة لا ترى إلى هدف معين تصبح لغواً باطلاً !.. ومن ثم فقد وجدت نفسى - للمرة الأولى ، وعلى غير استعداد .. متوترة برسالة : لقد أنقذت رجلاً وانترعته من براثن الفناء باذلة في سبيل ذلك كل قوى .. ولم يبق إلا أن أعطي على صعوبة هيئة باقية - حتى تكتمل رسالتى ..

وحين بلغت فندقى ، حملت حارسى الباب في مشاهاة ، وهو يرانى أعود إلى الفندق في الساعة التاسعة صباحاً .. ولكن نظرتي لم تثرب في

(الكاينو) في الساعة المتفق عليها . حتى رأيت شاباً ينهض عن مقعد ،
وبعد نحوى .. وكان الشعور الذي اعتراه إذ فوجئ برؤيتي والحركات
التي صدرت عنه عفواً ، تصطبغ بصيغة صبيانية ، ساذجة ، سعيدة
معبرة !.. وأقبل نحوى وكأنه يوشك أن يطير . وفي عينيه وميض يتم
عن اغتباط . وعرفان بالجميل . واحترام .. في آن واحد !.. وما أن
تطلع إلى فؤاى في عيني ذلك الاضطراب الذي اعتراني إذ واجهته ،
حتى أطرق إلى الأرض في وداعة .. آه !.. عرفان الصنيع !.. ما أندر
ما زراه في الرجال !.. إن أكثر الناس تصديراً للجميل لا يوقفون إلى
التعبير عنه كما ينبغي .. فهم بصمتون ، ويرتج عليهم القول ، ويحسون
بالجبن . ويتولاهم رد فعل ينتج عنه ذلك الارتباك الذي يدفعهم إلى
بجفاء حقيقة مشاعرهم .. أما هنا . ولدى هذا المخلوق الذي أضفى
عليه الله - المثال الأعظم - جميع الحركات التي تعبر عن مشاعره أدق
وأجل وأحسن تعبير . فإن عرفانه بالصنيع كان ينبعث دافقاً : وضاء
من كل ذرة في كيانه !

.. على يدي . وانحنى خاشعاً برأسه الصغير الذي يشبه رأس
حقل . .. وأحد يديه أصبح ينادي ويسبأ بشغفه لمسا رقيقاً ، لدقيقة
كثيرة .. ثم تراجع وسكنني عن صغتي وهو ينظر إلى في حثان . وقد
تحلى الأدب في كل كلمة من كلماته . فلم تنقش بضع دقائق حتى
زاد غنى كل إحساس بالحق أو الخوف !.. وكانما انعكست حاجتي
المعنوية المتجهة على الطبيعة الخبيثة بشأها حشوت عذبة .. وسمعت
وهذوءاً .. فبدا نبحر .. الذي كان في سبيل استنساخها .. ثم اعتادا

نفسى حرجاً . إذ لم تكن قد تفتت في أعماق رواسب من الخزي .
والألمى الذين خالجاتي في البداية ، وإنما شعرت بعث مفاجئ يجيب
إلى الحياة .. أحسست لوجودى بفائدة ، فبعث هذا الإحساس الخفيف
الدم حاراً متدفقاً في عروقي !.. وما أن بلغت غرفتي . حتى بادرت
إلى تغيير ثوب الحداد - دون ما تعمد - واستبدلت به ثوباً أزرق ..
وسعت مسرعة إلى الغبطة لأستفسر عن مواعيد سفر القطارات ..
فعلت ذلك في حزم أدهشني من نفسي . ثم عملت إلى إنجاز ..
الأعمال : وإلى الوفاء بعض مواعيد . ولم يبق في سوى أن أسأل
من أن ذلك الرجل الذي ألقى به القدر إلى . قد نجأ نهائياً من الخطر
المحدق به وعاد إلى بلاده !

وكنيت . والحق يقال - بحاجة إلى شجاعة كي أستطيع الاقتراب
منه .. فإن كل ما وقع في الليلة السابقة . تم في الظلام .. كنا كحجرين
ألقى بهما في دوامة . فاصطدما معاً أثناء سقوطهما !.. لم يكن أحد
منا ليعرف وجه الآخر تقريباً .. بل إنني لم أكن واثقة من أن ذلك
الأجنبي سيتمكن من معرفتي . فإن ما حدثت أمس كان محض
مصادفة .. نشوة عابرة .. نزوة شيطانية استبدت بمخوفين مشردين .
أما اليوم : فقد كنت مضطرة لأن أظهر أمامه في مظهر أوضح .
إذ كنت مكروهة على الدتو منه . ومن ثم فسوف يرى وجهي - كآدمية -
في ضوء النهار الذي لا يشفق ولا يستر !

● « على أن الأمر تم بسهولة تفوق ما كنت أظن . فما أن تدوت من

وادعاً ، ساكناً . صافياً . حتى لقد كان بوسعنا أن نرى من مكاننا كل حجر تحت المياه الضحلة عند الشاطئ .. أما (الكازينو) — تلك البؤرة الجهنمية — فقد علا شاهقاً نحو السماء الصافية الزرقاء .. واستحال (الكشك) — الذى احتمينا بمظلته من المطر المتدفق . وكل منا ملتصق بالآخر .. إلى متجر زاهر بكيات كبيرة من الأزهار البيضاء . والخمراء ، وذات الألوان المتعددة .. تنثرت هنا وهناك دون ما ترتيب .. كما كان يضم طاقات كبيرة من الورد والأغصان الخضراء ، وقد تولت البيع فتاة صغيرة فى مروة زاهية اللون ..

ودعوت الشاب الغريب إلى الغداء فى مطعم صغير .. وهناك ، روى لى قصة مغامرته المفجعة . فكانت بمثابة تأكيد لما ساور فى نحوه حين رأيته يجلس إلى المائدة الخضراء . ويدها ترتعشان وتضطربان فى انفعال قوى ..

اكان ينتمى إلى أسرة عريقة المتمدن . فى بولندا الضوية . ويتأهب للانخراط فى السلك السياسى بعد أن أنهى دراسته فى (فيينا) بضوق منقطع النظير . إذ كان الأول فى امتحاناته التى اجتازها فى الشهر الماضى .. وكان يقيم عند عم له كان ضابطاً من ضباط القيادة .. وقد رأى عمه أن يحتفل بتجانيحه فأصطحبه فى عربة إلى حديقة الملاهى ، وساحة سباق الخيل . وحالف الحظ عمه فى المراهنة على الجياد . فكسب ثلاث مرات متوالية .. وتسلم الأثمان حزمة كبيرة من أوراق النقد التى ربحها العم . ثم تناولوا عشاءهما فى مطعم فخيم ..

وأرسل إليه أبوه — فى اليوم التالى — مكافأة جزاء نجاحه .. مبلغاً

من المائى يوازى مرثب شبر تلدهو ماسى المرتقب ! .. وكان هذا المبلغ يبدو له .. منذ يومين فقط .. روة ضخمة .. له بعد السهولة التى رآها فى الريح عن طريق المقامرة ، فقد بدا المبلغ ثاقباً . ضئيلاً .. لذلك لم يكدر يفرغ من الغداء — فى اليوم التالى — حتى توجه إلى ميدان السباق « والدفع يراهن فى تبور .. وشاء له حسن الحظ — أو لعله سوء الحظ — أن يغادر ساحة السباق بعد الشوط الأخير . وقد ربح ثلاث أضعاف ما كان معه !

ومنذ ذلك اليوم استبد به سحر المقامرة . تارة فى سباق الخيل . وأخرى فى المقاهى . وأحياناً فى المنتديات .. واستولى على وقته . ودراسته . وأعصابه . وموارده .. فغدا عاجزاً عن التفكير المطمئن . وأيام الهادئ .. كما أصبح أكثر عجزاً عن كبح جماح نفسه .. حتى لقد حدث أن عاد ذات ليلة إلى بيته بعد أن فقد كل ما كان يملك ، فى أحد المنتديات .. وقبلاً كان يخلع ثيابه « عشر على ورقة مالية مجمعة ، مغنية فى أحد جيوب صدرية . فلم يقو على مقاومة نزوته ، ومن ثم عاد يرتدى ثيابه من جديد ، وانطلق ينوس خلال الشوارع ، ذات الليل وذات اليسار . حتى عثر فى أحد المقاهى على لاعب عابر من لاعبي « الدومينو » . ظل يلعبه حتى مطلع الفجر !!

■ وتطوعت أخته — التى كانت متزوجة — بمساندته يوماً . فدفعته عنه اللذين التى تراكت عليه للرايين الذين كانوا قد تهاونوا على إقراره . اطمئناناً إلى أنه وارث اسمهم ! .. فلهذا ساندته ، وحاً

من الزمن ، ولكن النحس لم يلبث أن لآزمه باستمرار .. وكان كلما ازدادت خسائره وعجزه عن سداده ، تورط في تعهدات لا سبيل له إلى الوفاء بها . ووعود لا حيلة له في البر بها . فلم يزد هذا إلا جرياً وراء كسب كبير ينفذ به الموقف . وكان قد رهن ساعته وملايسه منذ وقت طويل . فالتفت به الأمر إلى الإقدام على عمل منكر . إذ سرق من زوجة عمه زرين كبيرين مرصعين بالأحجار الكريمة . كانت تحتفظ بهما في خزانها ، ولا تستعملهما في زينتها إلا نادراً .. ورهن أحدهما لقاء مبلغ ضخم لعب به . فربح أربعة أمثاله في نفس الليلة .. وبدلاً من أن ينسحب من اللعب قائماً . أقدم على المجازفة بكل ما ربح . ففُخس !

ولم تكن السرقة قد اكتشفت بعد . حين اعتزه الرجل . فوهن الزر الثاني : وبم لثوه شطر (مونت كارلو) . أملاً في أن .. « الروليت » الثروة التي كان يحلم بها ! ولكن الأمر انتهى به .. هناك . وفي نفس يوم وصوله - إلى أن يبيع حقيقته ثيابه . وثيابه .. وأخيراً مقلته ! .. ولم يبق معه إلا مسنسه الذي كان يحتوي على أربع رصاصات . وصليب صغير مرصع بالأحجار الكريمة ، كان هدية قدمها له .. عند تعميده .. إشيئته .. وهي أميرة (.....) . وكان يحرص على هذا الصليب . لكنه ما لبث أن باعه بعد الظهور بخسيتين فرنكاً ، لا لغرض سوى أن يحاول - في الليلة ذاتها - أن يتدفق بالأميرة الأخيرة تلك اللذة الجامعة التي يستشعرها وهو يذمر .. وكان في هذه المرة يقامر على حياة .. أو موت !

روى في الشاب هذا وقد تركزت في كيانه فتنة أخاذة كانت تبعث حيوية في الكائنات ! .. وكنت أصغى إليه متأثرة . مضطربة ، مأخوذة بقصته المثيرة . إلا أنه لم يدرك بخلدتي لحظة واحدة أن وجودي على مائدة واحدة مع رجل - كان في الواقع لصاً يرغم جميع الاعترافات - يعتبر أمراً عجيباً ولو أن إنساناً ذكر لي في اليوم السابق - ولو عرضاً - أنني . وأنا السيدة التي لا غبار على ماضيها . والتي تتلقى من المجتمع احتراماً تقليدياً كاملاً . قد أجلس يوماً في غير كلغة إلى جوار شاب غريب عني تماماً ، يكاد يعادل ابني في العمر . فضلاً عن أنه سرق أحجاراً كريمة .. أقول .. لو حدث أن ذكر لي أحد أن هذا قد يصادفني . لاعتبرته نجبواً يهذي !

ومع ذلك ، فلم أشعر نحو الشاب - ولو للحظة واحدة . بنفور أو استنكار . وهو يروي لي قصته . فقد كان يسردها ببساطة وتدفق . حتى ليخيل لسامعه أن القصة التي ارتكبها إنما جاءت نتيجة إصابته بالحمى أكثر مما هي جريمة فاضحة .. ثم إن شخصاً مثل . واجه في الليلة السابقة أحداثاً غير متوقعة تدقت عليه كالشلل : كانت كلمة . مستحيل . قد فقدت في نظره - فجأة - معناها .. وقد كان ما اكتسبته خلال الساعات العشرين الأخيرة من اختبارات ، في صميم حقائق الحياة ، يفوق كثيراً كل ما اكتسبت في الأربعين عاماً التي قضيتها في حياة متحفظة !

على أن شيئاً ما في اعترافاته أخافني .. شيئاً تمثل في هذا البريق المخموم الذي كان ينبعث من عينيه ، فتنبهت ..

كأن بها مسأ كهر بائياً ! .. وكان مجرد السرد كافياً لاستقراره - كلما تحدث عن تعلقه باللعب - فإذا ملامح وجهه تفسح - في وضوح فظيخ - عن الفرح والألم اللذين كانا يتعاقبان في أطواء نفسه .. وكانت يداها - اليدان البديعتان - العصيتان ، الرشيقتان الحركة - تتحولان خلال ذلك ، وعلى الرغم منه ، إلى مخلوقين وحشين - مجنونين - جاعبين .. تماماً كما كانتا تبدوان على مائدة اللعب - وكنت أوقهما - خلال انهماكهما في رواية القصة - وهما ترتجفان فجأة ، وتلتويان ، وتلفضان في الشباشب يعقبه انبساط - ثم تنفض الواحدة منهما على الأخرى من جديد .. وفي اللحظة التي اعترف فيها بسرقة الزرين ، أخذت يداها تتحركان بشكل جماعي أنفضض جزءاً ، إذ راحتا تقلدان في حركات وثابة ، سريعة ، حركات اللصوص ، حتى لقد رأيت أمامي كيف اندفعت أصابعه في جشم جنوني نحو الحلية - الزر - ووارثها بقوة في قبضة اليد ! .. وعرفت - وقد استحوذ عليّ فزع غامض - أن انفعالات ذلك الرجل كانت تسري في كل قطرة من دمه مسرى السم الزعاف . وكان أشد ما استأثرني وأفرغني - في قصته - هو أن تكون لدى هذا الشاب الصافي النفس ، المرح - مثل هذه النزعة الجنونية !

وشعرت بأن أول واجب عليّ - هو أن أفتح .. في مود وصادقة .. ذلك الشاب الذي ألقته المصادفات في حياتي . بأن يغادر (مونت كارلو) في الحال - لما فيها من إغراء شديد الخطورة .. كان لابد من أن يسافر - في نفس اليوم - عائداً إلى أسرته . قبل أن تكتشف سرقة الزرين ويتهدم مستقبله إلى الأبد . ووعدهته بأن أمده بالمال اللازم لرحلته .

ولتخليص الحليتين من الرهن - على شريطة أن يغادر المنيمة في اليوم ذاته - وأن يتسلم بشرته ألا يس بعد اليوم ورقة من أوراق اللعب ، ولا أن يشترك بعد اليوم في لعبة من ألعاب الميسر !

■ ولن أنسى - ما حبيت - اعترافه بجميلي .. هذا الاعتراف الذي بدأ هادئاً . ثم أخذ يذكو شيئاً فشيئاً ، في نفس ذلك الرجل المضيق - لن أنسى قط الطريقة التي كان يتلقف بها كلامي وأنا أعده بالمساعدة .. ففد مد يديه فجأة إلى المائدة يمسك بيدي ، في حركة سبقي دوماً مخفورة في نفسي .. حركة ثم عن عبادة وتقديس لشخصي ! .. وترقرقت الدموع في عينيه الصافيتين اللتين كانتا ... حتى ذاك الوقت - شاردين .. واستولت على جسده رعدة عصبية من الانفعال والسعادة ..

ولقد حاولت عدة مرات أن أحصف لك التعبير المنقطع النظير الذي تجلى على وجهه وتصرقاته .. ولكن ليس في مقدوري أن أرسم لك صورة حبقية لتلك الحركة التي صدرت منه . والتي كانت تم عن سعادة مومضة في برقي يخطف البصر .. سعادة لا يرى الإنسان لها مثيلاً .. سعادة لا تقارن إلا بذلك الطيف الأبيض الذي يغيل للحالم أنه شخه في نهاية حلم رأى نفسه فيه أمام وجه ملاك يتوارى .. ولكن ، لماذا أخفى الحقيقة ؟ .. إنني لم أستطع مقاومة ما في ذلك المظهر من روعة .. إن العرفان بالجليل يعث على السعادة - فهو تعبير ينذر رؤيته متجسماً ! .. والبرقة تملأ النفس إشراقاً .. وقد كان .. هذا التعبر - هذا الطيف - أنا الزرنية - الرصينة - شيئاً جديداً : عبقاً .. عبقاً في النفس ..

وتراءت لى الطبيعة ... بعد مطر أمس الدافق - وكان يداً بحرية قد فتحت أكمامها ، كما فتحت لى نفس ذلك الشاب الذى كان فى اليوم السابق مرتجفاً ، مهدماً !

وحين غادرنا المطعم ، كان البحر ضايقاً فى برودة ، وفى صبغته زرقاء تعللت عند أطرافه الشاسعة بزرقة السماء ، لا بأس به سوى نقط سوداء تمثل الطيور الخافتة لى عنان السماء .. ولعلك تعرف برودة مناظر الطبيعة فى (الريفيرا) .. إنها دائماً تملأ النفس شعوراً بالجم ، ولكنه شعور غير مستساغ .. إنها كالطاقة المصورة ، تملأ النفس الثقيلة بالهين ، دائماً ، فى ميوعة الحسناء التى يغالبها التعاس .. فهى تستلنى خاملة ، تجذب الأنظار دون ما قصد منها ، ويسودها فى وحلها المدللة طابع شرقى مثير !

على أن الحرارة قد تدب فى هذا الجبال - فى أحوال نادرة ، فتكشف بجلاء وقوة عن ألوانه الزاهية ، الأضادة ، البراقة ، فلا تشعرو إلا وهو يسكب فى أحاسيسك بهاء المنطق !

● وكان ذلك اليوم من الأيام المتفعة بالأحاسيس المرحفة ، كما يحدث عادة عقب القلق الطاغى الذى يستولى على المرء فى ليلة عاصفة ! .. وكان الشارع الذى غسلته مياه الأمطار يلمع فى بهاء ، وقد اصططعت السماء بأرجوانية الشفق .. وحيثما قلبت الطرف فى الطبيعة الخضراء ، المتدادة بالمطر ، رأيت طاقات من الورد الزاهى ذى الألوان المشرقة .. وتبدت الجبال أكثر وضوحاً ، وقد زادها الجو الصافى السابح فى

أشعة الشمس اقتراباً ، فكأنها تجسعت وتقدمت قدر المستطاع من المدينة البهيجة .. كانت الطبيعة تفرض عليك ، مع كل نظرة ، مزيداً من لغزائها المثير ، فتستحوذ على قلبك ، على الرغم منك .

وقفت للشاب : « لستقل عربة تنطلق بنا فى نزهة على الكورنيش ! » فأوماً الشاب برأسه ، وقد بدا أن جمال الطبيعة استغرقه .. فى حين قد رأى - منذ وصوله - سوى قاعة اللعب فى « الكازينو » .. تلك القاعة ذات الجلو الثقيل ، المشحون ، الذى تحالطه رائحة العرق ، والتى تشع فيها ضوءاه أولئك الآدميين ذوى الوجوه العابسة ، المكتمهرة .. لم يكن قد رأى منذ وصوله سوى تلك القاعة ، وذلك البحر القاتم ، العكر ، النائر ، الذى تراهى له بالأمس .. أما الآن - فقد كان يترامى أمامنا الشاطئ الطويل المنبسط ، الغارق فى أشعة الشمس .. وكانت العين تنفضل من أفق إلى أفق ، فى ابتهاج وغبطة ..

وانطلقت بنا العربة البهيجة .. إذ لم تكن السيارات قد ظهرت بعد فى الطريق البديع ، مارة بعدد كبير من (الفيلا) : وشاعاتها المزدحمة من الناس .. وكلما مررنا بيت - أو فيلا - مستلقية فى أحضان الظلال الخافتة - شعرنا - مرة مرة ، بتلك الرغبة الخفية التى توقظها هذه المنظرى النفس .. ألا ما أجمل الخيبة هناك .. فى دعة ، ورفض ، ونفى عن نفس !

أفكأت هناك مسعدة تفوق سعادتى فى تلك الساعة .. كان لى جوارى - فى العربة - شاب ، كانت له رائحة عذبة عليه بالأمس - فأصبح اليوم محوطاً بهالات من أشعة الشمس .. وبدأ

كأنه استرد من عمره بضعة سنوات ، أو كأنه ارتد صليبا جديلا ينعب ، وتفيض عيناه بدمع متألّق . وباحترام مهذب في وقت واحد ! .. لم أشعر قط بمثل تلك السعادة التي داخلني وهو يرضي على احترامه القياض . ويبدى مثل تلك البقطة التي كانت تدفعه - إذا ما رأى الجواد عاجزا عن أن يصعد متحدرا - إلى أن يقفز في حفرة ، ويدفع العربية من خلفه .. وكنت لا أكاد أنطق باسم زهرة ، أو أشير بيدي إلى وردة - في الطريق - حتى يبادر باقتطافها وتقديمها لي .. ووقع بصره على صندوق صغير . فتوحت به الأنواء في الليلة السالفة وسط الحشائش الخضراء . فتناوله بعذر . ونحاذ عن طريق العربية حتى لا تسحقه .. وهو .. في هذه الأثناء - يروي لي أفاسيص مسلية . طريفة ، في لباقة بارعة ..

وخيل إلى أن ضحكته كانت وميلة يشغل بها نفسه عن تصرفات أخرى . إذ كان في بعض الأوقات لا يتألك أن يغني ، أو أن يقفز . أو أن يقدم على تصرف أحمق يثير الضحك .. وكانت تصرفاته العجائية هذه ، تطفح بالغبطة والحبور :

وبينا كانت العربية تجازينا - في تمهلها - مرتفعاً صغيراً ، إذا برقع قبعتة فجأة ، فدهشت .. ترى متذا الذي خصه بالتحية وهو غريب وسط أغراب ؟ .. وإذ سألته ، أو تضرجت وجنتاه . وقال - وكأنه ينذر عن تصرفه - : إننا قد مررنا في طريقنا بكنيسة ، وإن التوم في بولندا درجوا - كما درجت كل البلاد المتصمكة بالمنهج

الكاثوليكي - على رفع القبعتات عن الرؤوس أمام الكنائس والمعابد .. وحزني هذا الاحترام التي أبداه إزاء الأماكن المقدسة ، وتذكرت ذلك الصليب الذي حدثني عنه ، فسألته عما إذا كان مؤمناً .. وإذ ذاك سرت في وجهه حمرة خفيفة . واعترف لي في شيء من الحجل بأنه يتنى أن يتناول القربان المقدس . فصحت في الحودي : « قف ! » وأسرعني إلى مغادرة العربية . فتبعني في دهشة . وهو يقول : « إلى أين سذهب ؟ » . فأجبت في اقتضاب : « تعال معي ! » .

وانجحت به صوب الكنيسة .. كانت من معابد الريف الصغيرة ، وقد شيدت من الطوب . وطلبت جدرانها الداخلية بالجير ، فبدت قائمة .. وكان الباب مفتوحاً . يتساب منه شعاع غروطي الشكل . أحمر اللون . يشع الظلام ويحيط المذبح الصغير بهالة زرقاء .. وكانت ثمة شمعان ترسلان نوراً باهتاً خلال تلك العتمة المشبعة بعبير البخور الحثرق ..

ودخلنا - فرقع قبعتي . ونحس يده في وعاء الماء المقدس . ورسم إشارة الصليب . وثني ركبتيه .. وما أن انتصب معتدلاً ، حتى تمسكت بذرأسه . وثبت له في حزم : « تقدم إلى المذبح . أو إلى أية صورة من هذه الصور المقدسة . وردد خلفي هذا القسم الذي سأتلوه عليك ! » .. فتطلع إلى في ذهول مشوب بشيء من الرهبة ! .. ولكنه لم يكذب يدرك متصدى حتى دنا من فجوة قام فيها تمثال . فرسم إشارة الصليب « وركع في خشوع .. وإذ ذاك قلت وأنا ارتجف بشرط التأثر : « بعدى ما سوف أقول .. أقسم ! » . فقال : « أقسم ! » .

« إلى لن أشارك مطلقاً في أية نية من ألعاب القمار . أياً كان نوعها . ولن أعرض حياتي وشرقي لأخطار هذه التروء .. » !

فكرر أقوالى وهو يتنفس .. كررها بصوت واضح دوى صدها في الفراغ الواسع المحيط بنا .. وأعقت ذلك لحظة خيم فيها على المكان صمت شامل . حتى لقد كنا نسمع حفيف الأشجار التي كان الهواء يداعب أوراقها في الخارج .. وفجأة ، انحنى خاشعاً كأنه مذنب أذنبه الخطيئة . وانطلق - في نوبة من التقوى العميقة لم أعهد لها منه - ينطق بكلمات سريعة . متماسكة ، باللغة اليونانية التي لم أكن أعرفها .. ولعلها كانت صلاة حارة .. صلاة شكر وندم . إذ كان أثناء الصلاة ينحني رأسه في ورع على حاجز الهيكل . وهو يردد كلمات عبرية بخراوة .. ولأحظت بينها كلمة معينة . تذكرني بـ « ستراب » . وهي كلمة غريبة .. ما سمعت يوماً من قبل - ولا فيما بعد - صلاة تتلى في أية كنيسة من كنائس العالم بتلى هذا النوع ! .. كانت هذه الكلمات بالحاجز الخشبي للهيكل في فترة . وحسنه يتنفس . كما لو كانت في أعماقه عاصفة هوجاء ، أخذت تنفخه في بعض الأحيان إلى أعرف فجأة ، ثم لا تلبث أن تردده إلى ركوعه . في استعراضي غريب . ثم بعد يرى أو يسمع شيئاً خاطئاً ! .. كأنه كانت كل جارية في نفسه قد غابت في عالم آخر .. في مظهر .. أو كانت صعد كل جس فيه في ملكوت من القداسة . بنفارة وحاف ! !

وما لبث أن نبض متباطئاً في النهاية - فرم إشارة تعصيب مرة أخرى . وتلفت حوله بعناء . وقد ارتجفت بكبته . وشجب وجهه

كإنسان استترفت قواه عن آخرها .. ولكن ، ما أن وقع بصره على ، حتى أومضت عيناه ، وارتسمت على وجهه المنحني ابتسامة صافية أضاعت أساوره . ثم انحنى أمامي الخنقاء كبيرة .. على الطريقة السلافية - وتناول يدي باحترام ، فقلعها بأطراف شفتيه في توقيير ، وقال : « لقد أرسلك الله لي . ولهذا شكرته على صنعته ! » .

« ولم أدر ماذا أقول ، ولكنني تخمنت إذ ذاك لو أن الأرغن أرسل أنغامه فجأة من أعلى الشرفة الصغيرة . إذ أتيت بآثني أفلحت في كل شيء » - وانضمت هذا الرجل إلى الأبد ! » .

● وبارحنا الكنيسة لنعود إلى النور المشرق الزاهي ، الذي امتاز به ذلك اليوم من أيام شهر مايو . ما رأيت العالم من قبل في مثل هذا الجمال ! .. وظلنا ساعتين والغبية تخطر بنا على مهل ، حتى بلغنا قمة الجبل . حيث كان الطريق المهد يقبع لنا - في كل منعطف - منظرأ جديداً . ولكننا لم ننس بنيت شقة .. فإن كل قول كان خليقاً بأن يبدو ركيكاً وفارغاً ، بعد ذلك انشروع الذي ملك المشاعر .. وكنت أجلس مضطرة إلى أن أشيح بوجهي في ارتباك ، إذا التقي بصره ببصري ! .. كان شعوري .. إذ رأيت أن معجزتي قد تمت .. أقوى مما احتمل !

وعدنا إلى « موت كارلو » في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر .. وكنت على موعد - لا سبيل للتخلف عنه - فمع بعض الأقارب .. وأخيراً كنت أصبو إلى فترة من الهدوء . أتخلف عن من عراةني

التي طغت في تلك اللحظات .. فقد كانت معادتي أكثر مما أحسب ..
ومن ثم أحسست بأنني في حاجة إلى أن أنفسي بعض النشوة والانفعال
البالغين اللذين استحوذا على كياني بقوة لم أعرف لها في حياتي كلها
مثيلاً .. لذلك طلبت من الشاب - الذي أحفظه براسمي - أن
يصحبني إلى الفندق لبرهة وجيزة .. وفي حجرتي .. أعطيته المبلغ اللازم
انفقات رحلته ، ولتخليص الحلية المسروقة من الرهن . وانفقتنا على
أن يتجه إلى المحطة ، فينتاع تذكرة السفر . بينما أفي بالموعد الذي كنت
مرتبطة به : ثم نعود فنلتقي في الساعة السابعة مساء . لنقضي في المحطة
نصف الساعة السابق على موعد تحرك القطار الذي يقفه إلى وطنه . من
مضيق (جنوا) . ولكن حين أردت أن نقفه نه نودع المالقة
الجمس . اكنت شفتاد بصفرة غريبة . وهتف : لا ، لا ، لا ..
ونطق بهذه العبارة متلعثماً ، بينما كانت أصابعه ترتعد . فالتفت إلى
الوراء بانفعال واضطراب . وهو يكرر : لا ، لا ، لا ..
لا أستطيع أن أرى نقوداً ! »

وأخذ يردد هذه العبارة وقد بدا كأن الخوف والاضطرار قد
استوليا على كيانه .. غير أنني هدأت من روعه قائلة : إن هذا لم يكن
أكثر من قرض ، وأن بوسعك أن يكتب لي إيصالاً بالمبلغ . إذا كان
يخس بأي حرج ، فقال : « نعم .. نعم .. إيصال ! » .. فتم بهذه
العبارة وهو يشيح ببصره عني . ثم فرك أوراق النقد كأنها شيء تزعج
تسلخ أصابعه من لمسه ، ودسها في جيبه دون أن ينظر إليها .. ثم كتب
على قصاصة من الورق بضع كلمات بخط متعرجي .. وعندما رجع

رأسه . كان جبينه مبتدي بعرق كثيف ، كما لو كانت نفسه مسرّحاً
لشعور يكافح للانطلاق .. وما أن تناولت الورقة منه ، حتى استولت
على كيانه رجفة . ثم جثا فجأة - وإذا ذاك تراجعت مذعورة على
الوغم مني - فقبل طرف ثوبي .. كانت حركة تبجل عن الوصف .
وبعث انفعاله المضطع النظير رعدة أخذت تنتقل في أوصالي ، ثم
استبدت بحسبي قشعريرة غريبة . وتلكني الاضطراب ، فلم ألمك
سوى أن أتمتع بهذه الكلمات : « أشكر لك هذا العرفان البالغ بالجميل ..
ولكن عفواً .. لنفترق الآن ! » .. وللتلقي في الساعة السابعة - مساء -
في فناء المحطة . لتبادل الوداع .. »

ورميتني وفي عينيه بريق حنون . فظنات أنه يريد أن يقول شيئاً ..
وخيل لي أنه يريد الاقتراب مني . ولكنه انحنى فجأة انحناء كبيرة ..
جداً .. وغادر المكان ! »

الفصل السادس

■ توقفت مسر (س) .. مرة أخرى .. عن متابعة قصتها ونهضت إلى النافذة ، فسرحت نظرها خلالها إلى الخارج .. وبقيت في وقتها فترة طويلة بلا حراك ، ثم لاحظت أن ثمة رجلة قد اعتزلتها وهي تولي ظهرها .. وقبالة ، عادت في رزاة .. وصدمت من يديها .. اللتين كانتا ساكنتين حتى تلك اللحظة — حركة عنيفة ، حاصمة ، وكأنهما تتطلعان شيئاً ما ، ثم نظرت إلى بقعة .. بل في شيء .. من الجدران .. وهي تعاود الحديث قائلة :

« لقد وعدتك بأن أكون غاية في الصراحة .. ولكن .. يجب الآن أن هذا الوعد كان ضرورياً ، لأنني أدرك الآن مع نفسي لأصف لك ، للمرة الأولى .. تلك الساعة أني بحثت عن الكلمات الدقيقة التي أعبر بها عن شعوري حتى ذلك الوقت منطقياً ، ومضطرباً .. في نفسي .. أدرك الآن كثيرة لم أكن أدركها ، أو بالأحرى .. لم أكن أدركها من قبل .. لهذا كله أحب أن أقول لك .. ولنفسى أيضاً .. الحقيقة ، في شجاعة وعزم .. » .

وبعد ، ففي تلك الساعة التي غادر الشاب فيها عروفي وتركني وحدي ، شعرت : وأنا في شبه غيبوبة شاملة ، بعبرة قوية نصيب قلبي .. كأنما طعنني شيء ما فخنفت لنأقائلا أو لعنتي

أبيت أن أدري .. كيف كانت التصرفات المشبعة بالود والاحترام — التي أبدتها الشاب نحوي — طعنة أصابني في الصميم .. على أنني اليوم : وأنا أناضل لأنترع أحداث الماضي من قرارة نفسي في نظام وعزم .. كما لو كان هذا الماضي غريباً عني .. اليوم ، وقد أصبح من المعتذر — بعد حضورك إلى هنا — أن أخفي الحقائق ، أو أن ألتبس عذراً لتبرير عاطفة غزيرة .. اليوم .. أراي أدرك باعث ذلك الألم .. في وضوح تام .. كان مبعث ألمي إذ ذاك هو : خيبة الأمل .. الخيبة التي اعترتني وأنا أرى ذلك الشاب يتصرف في هدوء وانصياع .. دون أية محاولة للاحتفاظ بي .. أو البناء معي .. أن أراه بطيخ .. في استكانة وتوفير .. أول طلب أناشده به أن يرحل .. بدلاً من أن .. يحاول اجتذابي إليه بقوة .. أن أراه يطلني ويوقرفني كقديسة ظهرت له في منبره وأن أتبين أنه .. أنه لم يشعر بوجودي كامرأة !!

كان هذا غريباً لآمالي .. خيبة لم أجهر بها لنفسي إذ ذاك . ولا فيما بعد ، ولكنني شعرت بها .. فإن شعور المرأة بلم بكل شيء ، دون إفصاح ودون وعي لحقيقته تماماً .. أما الآن ، فلم أعد عاجزة عن فهم نفسي : لو أن ذلك الرجل تثبت في وسألني أن أتبعه ، لذهبت معه إلى آخر أطراف العالم ، وللطخت اسمي ولقب ولدي دون أن أكرت بكلام الناس أو أصغى إلى ضميري ! .. كنت أهرب معه كما هربت (هنرييت) هذه مع الشاب الفرنسي الذي لم تكن تعرفه حتى مساء الليلة السابقة على هربهما .. ما كنت إذ ذاك لأسأله إلى أين أذهب ، ولا إلى متى أبقي .. ما كنت لأتلقى نظرة واسعة إلى الدنيا .. إلى حياتي

الماضية ، وإنما كنت أضحي لهذا الرجل بما لي ، واسمي : وثروتي :
وشرقي .. بل كنت أستجدي من أجله ، ولا أتعتف عن أحسن ذنابه
في العالم يدفعني إلى ارتكابها .. كنت أضرب عرض الحائط بكل
ما يسميه الرجال غفلاً ووقاراً !!

كنت على استعداد لأن أفعل كل هذا - لو أنه نطق بكلمة واحدة
أو خطأ خطوة واحدة ، أو حاول أن يأخذني معه .. فقد كنت في
تلك اللحظة فاقدة العقل ، متعلقة به بكل ما في كياني !! ولكن - وكما
قلت لك ، لم يلق هذا المخلوق العجيب نظرة واحدة على .. على المرأة
الكامنة في داخلي .. لكم كنت أعرق شوقاً إلى أن أفترق في نفسي ،
وأن أفترق في نفسي إلى أقصى حد !! على أنني لم أشعر بهذا إلا حين
خلوت إلى نفسي ، بعد لحظة واحدة من ذلك الموقف الذي كان وجهه
الملائكي يتألق خلالهما كان يسرى في نفسه من انتعالات .. واستولى
هذا الشعور على نفسي .. بل انقض على كيانتي - وراح يلبس في
فضاء القلب المهجور !

« ونهضت بعناء .. وكنت على موعد بدا لي في تلك لحظة بقيضاً ..
وخيل لي أن خودة حديدية ثقيلة قد هبطت على رأسي وراحت تضغط
على جيبتي بكل ثقلها ، حتى كدت أترنح .. كانت أفكارى مشبته ،
متخاذلة .. تماماً كمنخلواتي حين يعمت أخيراً صوب الفندق الذي يتزل
فيه أقاربي !! وهناك جلست مكتئبة وسط أناس يتجاذبون أطراف
الحديث في مرح .. كنت أشعر بجزع كلما رفعت عيني عنقواً إلى تلك
الوجوه الجامدة ، التي كانت تبدو أمامي كما لو كانت ملفوفة بالأقنعة

إذا ما قورنت بوجه ذلك الشاب الموفور الحرارة .. كان طيقه ومرأى
تلك الوجوه أضواء وظلالاً تتناوب الظهور والاختفاء في تعاقب . وقد
اكتسبتها الغيوم .. لكم خيل إلى أنني وسط أموات « وأن تلك الجماعة
من الناس كانت مجردة من الحياة !

« وقيا كنت أضع السكر في القدح ، وأنطق ببضع كلمات بذهن
شارد . كان ذلك الوجه - الذي أصبح التأمل فيه مبعث فرح جامع
لروحى ! يطفئ من أغوار نفسي . كأنه مسوق بلقعة قوية من
دمي لتشتعل ! هذا الوجه الذي .. وبأخول الفكرة ! .. سوف أراه
بصورة لاحية بعد ساعة أو اثنين !! ولا بد أن زفرة واحدة - أو أنه
خوفاً . انطلقت من سدرى على الرغم مني . إذ اقتربت من ابنة
روحي فجأة ، وصالتني إن كنت مريضة أو أستشعر تعباً . لا سيما
وقد رأيت ضاحية ، قلقة : إن حد بعيد .. وبأدبرت أنا إلى استغلال
فرصة هذا السؤال ، لأزعم أنني أعاني صداعاً . ومن ثم استأذنت في
الانصراف « دون أن أشعر أحداً بما كان لي .. وما أن نهضت حتى
أسرعت عائدة إلى الفندق ولذت بحجرتي لأختل إلى نفسي . وعمل
الفور شعرت بالفراغ والوحدة . وأحسست بالرغبة في الوجود على
مقربة من ذلك الشاب - الذي سأتركه اليوم إلى الأبد - تطبق على
يقسوة رهيبية ! وأخذت أذرع الحجرة ، وافتح الأدراج بدون
ما يجب لذلك .. وأغير ثيابي ، وأبدل الأشرطة التي تزينها . كي أبرد
وقوفي أمام المرأة : وأنا أسائل نفسي : إلى أين أذهب غداً ؟ عما

إذا كنت أعجز حقاً » وأنا في هذه الزينة ، عن أن أجتذب انتباه ذلك الشاب ؟

■ وفجأة . فطنت إلى حقيقة نفسي .. كنت مستعدة لأن أقدم على كل شيء حتى لا أحرم من ذلك الشاب ! .. وفي لحظة واحدة . أغمست بفورة عارمة .. واستحالت الرغبة التي كانت تتحمل في نفسي إلى عزم وإصرار .. وعلى الفور : أسرعت باحثة عن حارس الفندق ، وأعلنته بعزمي على السفر في ذلك اليوم بقطار المساء .. أصبح ليلاء من عمل سريع .. ودققت الجرس لأستدعي الخادم كي يساعدني في إعداد حقائبي ، إذ كان الوقت ضيقاً .. وأسرعنا معاً في تكديس الحقائق بالملابس والحاجيات الصغيرة . وأنا أتمثل في خيالي المناجاة المقبلة ، والصورة التي ستم عليها .. أتصور أنني حضرت مظاهرة بالرغبة في مرافقته إلى داخل القطار .. وهو يمد إلى يده بتحية الوداع الأخيرة .. ثم الدهشة التي ستولاه بعد ذلك عندما يراني وقد احتلت مكاناً في عربة القطار فجأة ، لأتبعه وأظل معه تلك الليلة ، واليلة التالية . وأى عدد من الليالي يروق له أن أقضيها معه !

وسرت في دماي غبطة نشوانة . حتى لقد كنت أنطلق أحياناً . وعلى حين غرة ، في فقهية عالية ، وأنا ألتقي بشابي في الحقائق « الأمر الذي أدهش الخادم إلى أقصى حد .. كنت أشعر بأن عقلي لم يكن مستقرّاً في موضعه ! .. فلما جاء الحمال ليقل حقائبي . نظرت إليه في دهشة ، إذ كان من العسير على أن أفكر في أشياء واقعية ، بينما كانت

تطفح بروحي بالغبطة الجاسمة النشوانة ! .. وكان الوقت قد أزف ، إذ أشرقت الساعة على الساعة . ولم يبق على موعد تحرك القطار أكثر من أربعين دقيقة .. وكان عزائي الوحيد - في هذه القفورة - أنني لم أكن ذاهبة إلى وداع يثلوه فراق ، ما دمت قد عقدت العزم على مرافقته في سفره . والبقاء معه ما سيج لي بالبقاء !

وأخذ الحمال ينقل حقائبي . بينما أسرعت أنا إلى إدارة الفندق لأدفع ما كان على من حساب .. وفي اللحظة التي أعاد إلى الرجل باقي النقود ، تأعبت للانصراف . شعرت بيد تمس كفتي برفق ، فقفزت جزعاً .. كانت ابنة عم زوجي قد شغلت بذلك التعب الذي زحمت أنه الم .. حين كنت في زيارتها - فجاءت نطمئن على .. وأخطبت الدنيا في عيني .. لم أدر ماذا أصبح لزاماً ! .. كانت كل ثانية أمكياً معناها تأخير لا يمكن تداركه . ولكن الأدب اقتضاني أن أصغى إليها ، ولو لدقيقة واحدة .

لما هي . فقد قالت في إصرار : « يجب أن نلزم الفراش ، فأنت عذوبة .. ما في ذلك شك ! » .. وكان هذا جائزاً ، إذ كنت أشعر بنقص غيث قاس . في صدغي .. وكانت تطفو أمام عيني أحياناً تلك الظلال الزرقاء المنيرة بقرب الإغماء .. وأخذت أعترض ، وأنظاها بالشكر والتقدير لنصحها . بينما كانت كل كلمة تكويني .. بل لقد وددت لو استطعت أن أركل بقدمي هذا النصح الذي جاء في وقت من أبعاد الأوقات ملاعبة .. ولكن قريبي السخيفة بقيت وبقيت ، وظلت أمامي باستمرار ! .. وقدمت لي ماء (الكوكاكولا)

على أن تتولى بنفسها ترطيب صدى بهذا الماء .. وأنا أعد الدقائق ..
وقد اتجه فكري كله إلى ذلك الشاب .. وبينما كنت أبحث عن حجة
أهرب بها من هذه الرعاية المفضية .. أخذ قلبي يزداد .. فكان ارتياها
في أمرى يتضاعف .. حتى لقد غنث همي وهي تسعى تحمل على أن
أولى إلى غرفتي .. لأكثره الفراش ..

وكنت لا أكف .. لخال نصائحها .. عن التطلع إلى عقرب الساعة ..
كان عقرب الدقائق يسعى حثيثاً إلى منتصف القمص .. كنت الساعة
السابعة والدقيقة الثامنة والعشرون .. بينما القطار يرحل المحطة في الساعة
السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين ! .. وبحركة مباغتة .. وفي عظام
اكتراث لا يصدر إلا عن يائسة .. مدت يدي إلى بنة عم زوجه فائلة
دون ما إيضاح : وداعاً .. لا بد من الرحيل ! .. وأسرع صوت
الباب غير حافلة بالدهشة التي يفتني به .. بل دون أن التفت إليها ..
وبينما كان الندم يحملقون في استغراب .. انطلقت أعلو في الشارع
شطر المحطة !

وأدركت من الإشارات التي كان يستحثني بها الخيال .. عن بعد ..
أن القطار على وشك التحرك .. ومن ثم اندفعت في جنون أعمى نحو
باب المحطة المفضي إلى الرصيف .. وإذا بمراقب الباب يستوقفني ..
كنت قد نسيت أن أبتاع تذكرة .. وفي كنت أحاول إقناعه - في
شيء من الخدعة - بأن يخلي سبيلي لأتمكن من اللحاق بالقطار .. إذا بالقطار
يتحرك .. وجلثت .. وكل قرالصي ترتجف - آسفة أن أحظى من
إحدى التوافد بنظرة : أو إيماءة ، أو نحية .. على الأقل ! .. ولكن



بل انها حرصت على أن تتولى بنفسها ترطيب صدى بهذا الماء ،
وأنا أعد الدقائق ، وقد اتجه فكري كله إلى ذلك الشاب

القطار لم يلبث أن ازداد سرعة ، فأصبح من العسير أن ألمح الوجه المشهود .. وتلاحقت عربات القطار في سرعة . وإن هي إلا دقيقة حتى كان ما بقي ظاهراً لعيني المغمضتين .. مجرد نham داكن !

وكان من الطبيعي أن أظل في وقتي هذه جامدة كالشال .. ولا أعلم إلا الله كم بقيت على هذه الحال .. فقد حاول الحبال عبثاً أن يخاطبني ، حتى اضطُر إلى أن يمس ذراعي منياً ، فانقضت مذعورة .. وإذ ذاك : سألتني : هل بعيد الحقايب إلى الفندق .. واحتجت إلى بضع لحظات كي أستعيد رباطة جأشي ، ورأيت أن عودتي إلى الفندق مستحيلة بعد أن بارحته على تلك الصورة المستهجنة : وفي مثل تلك العجالة .. لم يكن بوسعي أن أعود إلى ذلك الفندق . ولا كنت راغبة في العودة إليه !.. وفي غمرة الارتباك الشديد الذي اعتراني ، أمرته بأن يودع الحقايب (قسم الأمانات) :

● وظالت فترة في فناء المحطة ، وسط أناس لا تتقطع ضوضاؤهم ، يروحون ويعينون متدافعين .. ثم أخذ عددهم يقل رويداً . وإذ ذاك بدأت أستجمع شتات ذهني لأفكر بهدوء في الوسائل التي أتخفف بها من هذا السخط الجالح المؤلم : والألمى ، واليأس . التي اجتاحتني في إلحاح ممض .. فقد كنت - ولست أرى داعياً لتجنب الحقيقة - أشعر بكياني كله يتمزق في قسوة نتيجة لا ترجمه ، كما فكرت في أن حرمانى من ذلك اللقاء الرائع كان نتيجة خطأ مني .. كان ذنبي !.. ولقد

أوشكت أن أصرخ لفرط الألم الذي أحدثه هذا التصل الحاد المشهود . وهو ينفذ في أعماقي !

ولا يعرف الثورات العاطفية المفاجئة - التي تحدث في لحظات استثنائية . والتي تشبه زيار جبال الثلج . أو هبوب العواصف الهوجاء - قدر أولئك الذين لم يأنفوا الانفعال .. ذلك لأن القوى العاطفية تسود فجأة في تلك اللحظات - منفردة من أغوار النفس .. وما سبق في أن شعرت من قبل بثل هذه المفاجأة . ولا يمثل هذا الغضب الجالح الذي سبى على زلزال لحظة ، إذ لمست عجزى .. فبينما كنت مندهمة بذهاب أشد الأقدار لرفاق عرونة .. بل ربما كنت متأهة لأن أفرح ببعيد . البحر - في حيوان المستقيمة المستقيمة من الزمان . ولكن لم أكن أعلم جميع القدر التي كانت مكتومة حتى ذلك الوقت . إذاني بعد ذلك فجأة ولم أراجع جامد . صلب . ذهبت محاولاً في لسانه قناري .

.. وأمر ما فعلته بعد ذلك سوى إيمان في السخف .. كان جنوناً . من قبل . حتى في رويته لك . ولكنني عاهدتك وعاهدت نفسي على لا شيء سواه .. لقد رحلت أجدى البحث عنه .. أو .. بمعنى آخر .. حررت أن استعيد كل لحظة قضيتها معه .. وشعرت بقسوة القاهرة تجلبني إلى جميع الأماكن التي ارتدناها بالأمس معاً : فأنجيت إلى المشرفة . حيث السعد الذي جررت منه .. وإلى غرفة المقامرة حيث رأيته للمرة الأولى . من لقد ذهبت إلى ذلك الفندق الوضع .. كان ذلك لكي أستعيد - معي معه . ولو لم أكن واحدة أخرى .. ولو اليوم

... في تلك اللحظة

الثاني . راق لي أن أستغل عربة أنطلق بها في نفس الطريق الذي سلكناه معاً - علي (الكورنيش) - حتى تبعث في نفسي كل كلمة ، وكل حركة ، مرة أخرى .. أجل ، لقد بلغ اضطراب عقلي حد الجنون .. بل حد العيث الضيائي !

ولكن ، ثقي أن هذه الأحداث انقضت على انقضاض العاصفة . فلم أعد أشعر بغير ضربة قاسية .. ضربة فذة . أذهنتني .. على أنه حين فارقتي هذا الذهول . شعرت برغبة في أن أعيش من جديد . كنت أستمع بتلك المشاعر الضاللة ، أرشفها قطرة قطرة ، بتلك الطريقة السحرية التي نلجأ إليها لخداع أنفسنا ، والتي نسميها : الذكرى .. والواقع أن ثمة أموراً لا تختمل الجدل . فإما أن يفهمها المرء أو لا يفهمها .. وربما احتاج المرء إلى قلب مناجج كي يفهمها !

هكذا سميت أولاً إلى قاعة المقامرة باحثة عن المائدة التي كان يجلس إليها ، لأعيد النظر إليها ، ولأتصور بديه بين الأيدي المجتمعة عليها . ودخلت القاعة ، ولأخذت أبحث عن المائدة التي رأيته عندها للمرة الأولى ، حتى استطعت أن أهتدي إليها . كانت المائدة اليسرى في الحجرة الثانية .. وكانت كل حركة من حركاته ما تزال واضحة المعالم في ذاكرتي . ومن ثم كان بوسعي أن أهتدي إلى مكانه تماماً . وأنا مغمضة العينين ، مبسوطة اليدين . وكأنتي أسير أثناء نومي ! .. هكذا كنت حين دلفيت إلى الحجرة . وجئت بيمرري خلال الجمع الصاخب ، وإذا ذلك .. وقع أمر غريب : فذ .. فهناك ، وفي نفس المكان ، وجدته .. جالساً ! .. وتخيّل لي أنه وهم من وحي الخمي التي

كانت تملكني .. ولكنه كان هو بلحمه ودمه .. هو .. هو بنفسه ! .. هو . كما تخيلته منذ لحظة في خيالي ، وكما كان بالأمس تماماً ، وقد علقت نظراته بالكرة . ووجد شاحياً كالملوث .. هو .. هو نفسه ، ما في ذلك أدنى شك !

وكانت أصرخ لفرط ما انتابني من فزع ، ولكنني كبحت جماح صراخي . هذا المنظر الذي يودي بالعقل . وأعجمت عيني . مرددة لنفس : « إنك مخنونة .. إنك تخمين .. بل أنت مخومة .. مستحيل .. بنت تيسر .. لقد رحل عن هنا بالتظار منذ نصف ساعة ! .. ثم فحكت بين من جديد . فوقعتا على نفس المنظر الرهيب الذي ألتا به منذ لحظة .. كان يجلس إلى المائدة باحمه وشحمه ، دون أدنى شك ! .. وكان في دمعني أن أعرف على يديه . بين سلايين الأيدي .. لا . ما كنت بخالة .. إنه هو نفسه ! .. إذن ، فهو لم يسافر كما وعدني .. لقد مكث المعتوه . وجاء إلى هنا .. إلى المائدة الخضراء - بالنقود التي منحتها له كي يعود بها إلى بلاده .. لقد أنساه سمار اللعب نفسه تماماً . فجاء بقمه بتلك النقود على مائدة اللعب : في الوقت الذي كان اليأس من الثور عليه يدي قلبي !

وبقعة واحدة اندفعت إلى الأمام . وقد أعمى عيني غضب أهوج بعث في نفسي ثورة جامحة : فتملكني رغبة ضارية في أن أهوى بقبضي على وجه ذلك الحائن الذي يدد ما أودعته فيه من ثقة ، وبخان شعوري وإخلاص في خسة وضيعة ! .. ولكنني كظمت غيظ مرة أخرى . ودبرت بقاء متعمد - لا أدري أية قوة ألهمني ! .. حتى

بلغت المائدة ، في مواجهته تماماً . ووقفت في مكان أفسحه لي رجل
منهذب .. ولم يعد يفصلني عنه سوى مترين هما عرض الرقعة الخضراء
ومن ثم كان يوسعي أن أرقب وجهه بسهولة . كما لو كنت أجلس في
مقصورة عالية بأحد المسارح !! وتأملت وجهه . فإذا هذا الوجه
الذي رأيته منذ ساعتين يتألق بأضواء العرقان بالجمل . وتخيّل به
هالة من بهاء قدسي ، قد غدا قروية ، تعدد انيران التروة الجيمنية !
ويداه .. اليدين اللتان رأيتهما - بعد ظهير اليوم نفسه - تتجهان
بسياس المذبح « وصاحبهما يقسم بأقدس الإيمان .. لقد عادتا توتران
وهما تقضيان على النقود المتناثرة حولهما . كوحشين كامرين .. فبدأ
كان راجحاً . ولابد أن ربحه كان كبيراً . وكبيراً جداً .. إذ كانت
الأضواء تنعكس على كومة غير منسقة . أمامه .. من (الفيشات) .
والعملة الذهبية ، والأوراق المالية .. خليط تثار أمامه في غير نظام
وكانت أصابعه المتوترة ، المرتجفة . تجوس خلال هذا الخليط .
وتفوص في غبطة ثوانية . ورأيت يديه تمسكان بأوراق النقد المختلفة
تطوياتها وترتيبها ، ثم تعودان فتحسان في شغل قطع النقود المعدنية
وما لبثتا أن أمسكتا بحقنة منها ، فطوحتا بها إلى أحد مربعات (الروليت) .
وسرعان ما بدأت طاقما أنهما تمخضان في رجفة منتقعة ! .. واجتذب
لداء مراقب اللعب عينه - اللتين كانتا تومضان في جشع - عن كومة
النقود . فتحولنا ترابقان الكرة في حركتهما الجنونية . وخيل لي أن
نفسه توشك أن تنطلق من كيانه ، وهو متكئ بمرفقيه على الرقعة
الخضراء ، فكأنهما سبرا إليها ! .. كانت حاله - وحنون المقامرة

يعصف به .. ادعى في رأين إلى الجزع من حاله بالأمس ، إذ كانت
كل حركة من حركاته تقتل في نفس الصورة الوضاعة التي كانت
تأكل في أعماق نفسي الساذجة . وكأنها أقيمت على قاعدة من ذهب !

■ وهكذا كنا : لا يفصل بين أمحدنا والآخر سوى مترين . وروحت
أنعم النظر فيه . وهو لا يقطن إلى وجودي . فما كان ليرفع عينيه إلى
أو إلى أي شخص آخر .. إذ كان بصره متعلقاً بالنقود وحدها ، وهو
يتعملي قلقاً « وينظر بين الفينة والفينة إلى دوران الكرة . كانت الرقعة
الخضراء المستديرة تستولي على جميع حواسه التي مقست لتعقب اللعب
لاهمة .. كأنما ذاب العالم بأسره « والإنسانية جمعاء ، في هذه الرقعة
من القماش الأخضر ، المبسوطة أمامه ! .. وأيقنت أنني قد أبقيت في مكاني
ذلك : ساعات وساعات « دون أن يخامرني أي شعور بوجودي ..
ولكنني لم أعد أقوى على ضبط أعصابي . فادرت حول المائدة - بعزم
مباغت - ووقفت خلفه . ثم مسست كنفه بيدي في شدة ، وتذابت
ظلاله لحظة . ثم أخذ بفرس في وجهي بحذوقه اللين لاحتا ككرتين
من زجاج . كمن يحدق في شخص لا يعرفه .. كان كالحمور الذي
يخد الإنسان عساء في هزه كمن يفيق من غيبوبته ، فتنظر أنفزة الخمر
تبريز على عينيه ! .. راغبراً . لاح أنه عرقني . إذ انفرج فهد في الختلاج
عصبي . ونأملت بنظرة تمت عن السعادة : ثم نمت في صوت واهن ،
وفي ألفة جمعت بين شروذ الدهن وغوض القصد : « إن الحال تسير
كما ينبغي .. لقد شعرت بذلك ، بمجرد دخلك ، وبمجرد أن رأيته
هناك .. لقد أحسست بذلك في الحال !

ولم أفقه لقوله معنى .. كل ما أدركته هو أن النعب أثقله .. وأنه نسي كل شيء .. نسي قسمة ، ووعدة ، والعالم بأسره .. وأنه .. ولكن يريق الدهشة الذي فاض من عينيه حين رآني .. كان مغرباً ، برغم نعاسة حاله وتسلط الشيطان على زمامه ، ومن ثم وجأتني أنعم قوله .. على الرغم مني - وأسأله في جد عن كان يعنيه بكلمة .. رأيت .. فأجابني وهو يميل نحوى ، حتى لا يسمع أحد سره السحري .. أقصد ذلك القائد الروسي المسن ، ذا الذراع الواحد .. ذلك الذي يجلس هناك .. وخلفه تابع خاص .. إنه يروح دائماً .. لذا لاحظت ذلك أمس .. فأدركت أن له ولأبده طريقة خاصة .. ومن ثم رحت ألعب مثله تماماً .. ولقد كان أمس .. كما هو الليلة .. دائم الريح .. بيد أنني أخطأت بالأمس حين ظلمت ألعب بعد انصرافه .. كان هذا ذنبى .. إنه ولأبده قد يرح بالأمس عشرين ألفاً من الفرنكاك .. وما هوذا اليوم يرح في كل مرة .. وأنا الآن أضاع النقود ، حيث يضع نقوده .. والآن ..

وقطع حديثه فجأة .. حين صاح مراقب اللعب بصوته الجمهوري : « ابدأوا اللعب » .. والتفت الشاب في تودة إلى جانبه .. وهو ينبت عينيه على مقعد الرجل الروسي ذي الحية البيضاء .. فإذا الرجل الحادئ .. الوقور .. يضع في حذر قطعة ذهبية على المربع الرابع .. ويمتكت لحظة مردداً : ثم يضع قطعة أخرى .. وفي الحال .. غاصت يدا الشاب المرتبختان - اللتان كانتا أمامي - في كومة النقود .. ووضعنا حفنة من المقطع الذهبية على نفس المربع .. وعندما صاح المراقب بعد دقيقة .. قائلاً : « صفر » .. وامتدت مجرفته تحصد كل ما كان على المائدة

بحركة واحدة .. حدى الشاب مذهولاً .. كما لو كان ضياع كل هذه النقود معجزة من المعجزات ! .. وقد ينظر ببالك أنه التفت نحوى : لا .. لقد تسميتي تماماً .. ثلاثيت من اعتباره ، ولم يبق لي في حياته وجود .. إذ تركزت كل حواسه المنوثة على القائد الروسي الذي أمسك بقطعتين من النقود في يده ، في غير تحمس .. وكأنه يفكر في اختيار الرقم الذي يضعهما عليه ..

وليس يوسعى أن أصف لك ما التفتني من مرارة ويأس .. ولكنك تستطيع أن تتصور ما أحسست به نحو رجل يذلت كل مافي وسعى لأعيد إليه حياته كلياً .. فإذا أترى في نفسه لا يزيد على أثر ذيابة يطردها يسد متناقلة .. وفي ضجرج ! .. وعادت نوبة الغيظ المستمر تملكني ، فصفطت ذراعاه بعنف شديد جعله ينتصب فجأة واقفاً .. وغلت له في صوت منخفض ، ولحجة آمرة : « انصرف لفورك عن اللعب : تذكر القسم الذي أقسمته اليوم في الكنيسة .. أيها الخائن النعس ! .. » فحلق في وقد هزته كلهاى .. وامتنع وجهه .. ويدت في عينيه .. فجأة .. ذلة الكلب المضروب ! .. وارتجفت شفتاه « وكأنما تذكر الماضي كله .. على حين غرة ! .. وكان الناظر إليه يخاله مشمراً من نفسه ! : وما لبث أن قال متعلماً : « أجل .. نعم .. آه ! يا إلهي ! .. يا إلهي ! : أجل .. انصرف .. ألا اغترى لي ! ! .. »

وسرعت يدها تجمعان النقود بعجته وخمسين في البداية .. ولكن حركاتهما لم تلبث أن تناقلت شيئاً فشيئاً : وكأنما حشمت عليهما قوة عاقبتهم عن المضي .. وعاد بصره يتجه إلى القائد الروسي ، الذي اختار

رقه . وعلى الفور ، ألقى الشاب -- فى عجلة -- بنفس قطع ذهبية على نفس المربع ، وهو يقول : « لحظة أخرى .. لن ألعب سوى هذه المرة فقط .. أقسم لك إنى سأنتصر ف بعدا .. لن ألعب سوى هذه المرة فقط .. لن ألعب سوى .. » وثلاثي صوته ، إذ بدأت الكرة تاتور ، فحمله معها فى دوراتها ! .. لقد أفلت المعتوه منى ثانية ، وأفلت من نفسه . متطلقاً مع الكرة فى دوراتها . وهي تقفز وتث حتى استقرت فى فجوة مصقولة ..

وصاح مراقب اللعب معلناً رفاً . وامتدت مجرفته إلى القطع الذهبية الخمس .. فقد خسر الشاب .. بيد أنه لم يلبث إلى .. فقد نسى كما نسي القسم الذى قطعه على نفسه ، وكما نسي الكلام الذى لم تنفض عليه سوى دقيقة واحدة .. وعادت يده تغوص .. بانفعال -- فى كومة النقود المتناقصه . وبصره مسدد تماماً إلى الرجل المواجه له .. الرجل الذى كان يبلب له اللحظة . ويغفل فى إرادته فعل المغناطيس !

■ « وعيل صبرى ، فهزرت مرة أخرى ، ولكنى فى غيب أس .. » وقلت : « انتص لفورك .. وفى هذه اللحظة . لقد قلت إن هذا هو الدور الأخير ! .. وعناقد . وقع ما لم يكن فى الحسبان . إذ التفت لحوى .. ولم يكن الوجه المتطلع إلى فى هذه المرة وجه الرجل البوديع . المضطرب . وإنما كان وجهاً ثامراً .. وجه إنسان استبد به الغضب . فأخذت عينه ترسلان شرراً . وشغفه ترتعشان لفورك الحق .. وصاح فى جمحود : « دعيني وشأني ! .. أغرفى عن وجهي . فإنت نجيبين

فى النحس ! .. إننى أخسر دائماً حين تكونين هنا .. هذا ما حدث بالأمس . وما هو ذا يتكرر اليوم .. ألا انتصرى من هنا ! ..

واستولى على الدهول لحظة . ولكنى أمام هذا الترقى . شعرت بغضى يعتدم . فقلت لأخاطبه : « أنا الذى أجاب لك النحس ؟ .. أفلم تصم أبها الكاذب . الامس ؟ .. ولم أزد على هذه العبارة ، إذ وثب كالسمور . من مكانه ، ودفعنى -- غير مبك بالخاضرين ، الذين نهضوا نظرياً . ثم صاح بصوت مرتفع فى قبة : « أغرفى عن وجهي ! .. إنى سأنتصر .. هاك .. هاك ! .. إليك نقودك ! .. والآن ، دعيني وشأني ! .. وفداني بيضع ورقات مالية من فئة المائة فورك ، فى كومة النقود .. وأخذ الجميع يحافل بمئات الناس الذين كانوا يحيطون به ! .. وأخذ الجميع يصرخون إليه . متهاشين . متفاخرين . متضاحكين .. بل إن كثيرين من الناس فى الغرفة تجاوزوا دفع الفضول . فخيبل إلى أنى قاد .. من ثيابي . ووقفت علوية أمام هذا الحشد المتطفل !

وصاح مراقب اللعب فى صوت جهورى . آمر . وهو يلقى المائدة بمجرفته : « صمتاً يا سيدى . من فضلك ! .. كان يوجه هذه الكلمات المنكودة إلى .. أنا ! .. فشعرت باستحياء مما أصابنى من هوان . وجلالى الخفى من قة رأسي إلى أخمص قدى . إذ رأيتى شيئاً لمهمة الفضوليين وهمساتهم ، كما لو كنت فتاة من بائعات الهوى ، ألقى فى وجهها بالأجر ! .. وراحت مائة عين تلتقي ما كان فى عيني من وجبى ! وانتهجت جنباً ..

المران والخرى ، حتى إذا أصبحت بوجهي إلى الناحية الأخرى ، تحباً
لتنظرات الناس ، إذا بي أمام عيني زائغتين لقرط الذهن .. كانت
ابنة عم زوجي أمامي تتطلع إلى مشموسة ، وقد غفرت فاهها ، ورفعت
يدها بتأثير الذعر الذي استولى عليها !

وكأنما كان وجودها سوطاً ألبني . إذ أسرعت أعادار القاعة .
قبل أن تتحرك وتفيق من دحشها . كانت لدى بقية من قوة ممكنة من
أن أمضي مباشرة إلى المقعد الذي كان في حديقة الفندق .. المقعد الذي
كان يجلس عليه ذلك الأحق مهدماً بالأمس ! .. وهالكت على خشبه
البابيس ، القامى .. خائفة . مهينة . محطمة .. تماماً كما كان هو !



■ لقد حدث هذا منذ أربع وعشرين سنة ، ومع ذلك . فإن الدم
لا يزال يجمد في عروقي كلما تذكرت تلك اللحظة . وقد أطيقت إهانتته
لي بمشهد من ألف غريب ! .. إن الحيرة ما تزال تملكني . كلما عاودني
التفكير في أمر تلك المادة الرخوة . النعسة ، الطيبة ، التي يتألف منها
ما نسميه بـ « النفس » . و « العقل » . و « الشعور » . و « الألم » ..
إذ كيف تعجز هذه كلها . وهي في أقصى درجات احتدامها — عن
أن تحطم الجسد الذي يتألم . واللم الذي يتعذب ؟ ! .. كيف يستطيع
الإنسان أن يعيش — بعد مثل تلك الماعات — مجرء أن الدم مستمر في
جريانه ؟ فلا يموت ويتحطم كما يحدث للشجرة خلال العاصفة ؟ !

ذلك لأنني لم أشعر بوطأة الألم سوى لحظة قصيرة .. اللحظة التي
تلقيت فيها الصفعة .. وعندما نهالكت على المقعد : مضغضة الحس :

متبججة الابدس . كعادتي . شعرت بنفسي الموت ينتشر في في ! ..
ولكن الآن .. بجميع أنواعه .. ضعيف هباب : كما قلت .. فهو ينتهقر
ألمه .. في الحياة . تلك الرغبة التي ترسخ في أجسادنا بقوة تفوق
.. يحتاج غنولته من قوى رغبة في الموت !

وكان من الأمور التي لم أوفق إلى تفسيرها لنفسي . أنني — بعد
تلك الصدمة التي ضعفت مشاعري — استطعت أن أرتد إلى صوابي ،
.. في الواقع ما الذي كان ينبغي أن أفعل .. وتذكرت فجأة
ن حفاقي في اللحظة . فاستبدت في فكرة ملحة في الرجل .. الرجل ..
.. عن هذا .. الرجل وحسب . بعيداً عن هذا « الكازينو »
.. من هذه البؤرة الجهنمية ! .. وبادرت راكمسة إلى اللحظة .
لا ألوى على شيء . وسألت عن موعد أول قطار متجه إلى باريس ..
وما أن علمت أن مواعده في الساعة العاشرة . حتى بادرت إلى سحب
مناعي ..

الساعة العاشرة ! .. أي بعد أربع وعشرين ساعة — تماماً — من
ذلك اللقاء البغيض .. أربع وعشرون ساعة كانت زاخرة بالعواصف
الطواغيت . وبالعواطف التي بلغت من الغرابة حداً أحدث في نفسي
جرحاً باقياً إلى الأبد !

من أي .. في البداية — لم أشعر إلا بكلمة واحدة راحت تتردد
في نفسي . في فواتر مستمر : الرجل ! الرجل ! الرجل ! .. كانت
عروقي لا تنفث تبض بهذه الكلمة . فتد :

الرحيل ! الرحيل ! .. بعيداً عن هذه المدينة .. بعيداً عن قصي .. إلى وطني ، وإلى أهلي ، وإلى حياتي السابقة .. حياتي الأصلية !

وقضيت ليلتي في قطار باريس . ومن العاصمة . رحلت أنتقل من محطة إلى أخرى . ثم يمت سطر (بولوني) . ومن (بولوني) إلى (دوفر) . ومن (دوفر) إلى (لندن) ، ومن (لندن) إلى حيث كان أبي يقم في الريف الإنجليزي . كل ذلك في سرعة الطير . دون ما تفكير - إذ لم أفكر في شيء ما على الإطلاق لباني وأربعين سنة . بل ودون نوم ، ودون كلام . ودون طعام ! .. وكانت عجالات القطار خلال هذه الساعات الثمالي والأربعين . لا تفك تردد : الرحيل ! الرحيل ! الرحيل ! الرحيل !

وما أن دخلت بيت أبي في الريف - أخيراً ، وعلى غير انتظار - حتى انتاب الجميع جلع . إذ كان في كيانتي ، ونظرات عيني . شيء يفضح ماضي سريري وولادي ! .. وتقدم أبي مني ليقبلي . فتراجعت بحفلة ! .. لم أطق أن أراه يقبل المشتكين اللذين اعتبرتهما مدمنين ! .. ورفضت الإجابة على أي سؤال . وإنما طلبت أن يعد في الحمام . إذ شعرت بحاجة إلى أن أظهر جسمي . لامن وعشاء السفر . ولكن .. كل ما بدا لي عالقاً به من نزوة ذلك الشاب المعنوه .. الخميس ! .. ثم تعاملت على نفسي حتى بلغت مخدعي . فاستغرقت في النوم ثلاث عشرة ، أو أربع عشرة ساعة . وكان نوماً عبقاً . لم أشعر خلاله بشيء ، على الإطلاق ، وكأنني كنت من حجر . لم أكنم من ماء من قبل . ولا فيما بعد ! .. لقد أدركت منه معنى الرقعة في التايوت - معنى الموت للإنسان !

وانتاب القلق أهلي . إذ حسبوني مريضة . على أن عطفهم لم يفلح إلا في إيقاف الألم ، إذ شعرت بخزي . وبأني غير آهي لاحتراهم . وبأن كبرهم لي ! .. وكنت مضطرة إلى أن أشدد الرقابة على نفسي ، حتى لا أصبح فجأة . أكاشنهم بمتى خياني لعهدهم جميعاً ، وكيف أهابهم . وإنابت ثغري عنهم . نافع نزوة مجنونة . جاذبة !

● حلت بعد فترة إلى قرية فرنسية صغيرة . وقع اختياري عليها بمحض المصادفة . دون أن أعرف فيها إنساناً . فقد كانت تلاخطني فكرة ملحة . ملحقة . بأن في وسع الناس جميعاً أن يلهجوا على منظوري . بأن وحلة - ذلك العار الذي أصابني . وذلك التغير الذي طرأ على . إذ تغلغل في أعماق الشعور بحياتي وقدارتي ! .. وكنت إذ ما استيقظت في الصباح ، شعرت بخوف طاغ من أن أفتح عيني ، ودنا في سريري . فقد كانت ذكرى تلك الليلة تدعيني . فأذكر كيف استيقظت ذات يوم . فوجدت نفسي إلى جوار رجل غريب عني . ونصف غار ! .. من الإحساس الذي داخلني في المرة الأولى لا يلبث أن يعاودني . الإحساس بالرغبة في الموت . في التو واللحظة !

على أن الوقت سلطاناً كبيراً . ورغم كل شيء . والعمر يستهلك كافة المشاعر ، بشكل عجيب ! .. فكلما تقدمت الأعوام بالمرء ، أحس بالزاد اقتراباً من الموت الذي يلقي على الطريق ظله القاتم . ومن ثم تتفقد الأشياء بهجتها في نظر المرء . على مر السنين . فلا تحدث عين التأثير الذي كانت تحدثه في أعماق النفس . في ماضي المرء . في

تفقد قوتها ويأسها ! .. وهكذا أخذت أتيف زريداً من الصدمة التي أصابني . حتى إذا قدر لي - بعد سنوات - أن ألتقي بالمحقق النجاري بالمفوضية النسوية - وكان شاباً بولندي الأصل - وجدتني أسأله عن أسرة ذلك الشاب الذي شاطرته الفراش ذات ليلة . فأجابني بأن أحد أفراد الأسرة انتحر منذ عشر سنوات . في (مونت كارلو) ! !

وتفطيت الثبا دون مدهشة . ودون أن يثير في نفسي أي ألم . بل لعلي أحسست براحة لساعده .. فليس من داع لإنكار الأنانية .. بل أن موت ذلك الشاب قضى على كل احتمال للاقائه مرة أخرى .. بل لم يعد ثمة شاهد على ذنبي سوى ذكرياتي الخاصة ! .. وهكذا أصبحت منذ ذلك الحين أكثر طمانينة .. فليست الشيوخة في حقيقة أمرها سوى المرحلة التي يجب أن نحيا فيها بلا خوف من الماضي !

• • • • •
لعلك تفهم الآن سر رغبتي المفاجئة في أن أقص عليك حياتي الماضية .. فعندما سمعتك تدافع عن مدام (هنرييت) وتصر في ثبات على أن أربعاً وعشرين ساعة تستطيع أن تغير حياة أية امرأة ، تغيراً كاملاً ، شاملاً . أحسست بأنني المعنية بهذا الكلام ! .. وسمعت بأنني مديونة لك بالشكر . إذ رأيت نفسي لأول مرة في الواقع .. أقف خلف رجل يدافع عني . لهذا فكرت في أنني قد أغضضت عن نفسي بالاعتراف . فبتراح عني الحمل الثقيل الذي يزرع ماضي حياتي تحتها ! .. أجل . يمزاج الذنب الذي يلاحق حياتي دون ما هوادة . وبذلك . قد يغدوني وسعي أن أعود غداً إلى قاعة اللعب . أنتي التفت

فيها يوماً بالنصيب الذي أرادته لي القدر - دون أن أشعر بعتد على ذلك الشاب - ولا على نفسي !

أجل . خطر لي أن الاعتراف كفيل بأن يزرع الصخرة الجائفة على صدري . فستقط بكل ثقلها على الماضي وتدفع به إلى ما يشبه الجيب .. وهناك . تظل قابضة فوقه . تحول بينه وبين اليقظة : على الدوام !

• • • • •
كانت سعادة .. بالنسبة لي - أن تمكنت من أن أروى لك كل هذا .. لقد نظمت الكرب عن نفسي ، وأوشكت أن أمناً .. وإلى لأشكرك ! • • •



• • • • •
بضقت واقفاً إذ ذاك . وقد أدركت أنها فرغت من قصتها . وحاولت في حرج أن أسرى عنها . وبدا كأنها قرأت ما جال بخاطري . وابتسمت قائلة : لا - أرجو ألا تتكلم .. لا أريد أن تجاملني ، أو تعقب بعين .. ألا شكراً لك إذ أصغيت لي .. وفي رعاية الله ! • • •

وكانت واقفة أمامي ، وقد بسطت راحتها لتودعني .. وتطلعت دون ما تهمل إلى وجهي . فإذا بأساور هذه المرأة العجوز .. التي كانت تنفث أماني في استحياء يمزجه بعض الحرج .. تثير العطف في قلبي .. ولست أعري ما الذي بعث فجأة حمرة مخفلة . كنت ذلك الوجه من مدينت الشعر الأبيض .. أهر صدى العاطفة العاتقة التي

ما كان أشبهها إذ ذلك بغتة تضطرب في خفق من ذكرياتها . وتشعر
باستحياء من اعترافها !

وأحسّت بالفعال ماورى .. على الرغمة منى .. ورغبة حافية في
أن أصدارها بما أكنه لها من إجلال .. ولكن الكلمات العذبة في
حلقى الجفاف ، فله أملك سوى أن ألقي أمامها في حترام بالغ . وان كان
في توقيع ردها المفضلة ، التي سرت فيها رجعة غريبة . فليت كأوراق
الشجر .. في التكرير !

[تحت إجماع الله]

٢ - الأم العاشقة

ستيفان زقايح



الفصل الأول

● جئت من مصر صغير أجنس عندما وصل إلى محطة (سيمرنج)^(١) .
 بعد نصف دقيقة حتى كانت عربات القطار السوداء واقفة تحت ضوء
 النهار مدخل إلى ... وجمعت العربات خليطاً من الأشخاص
 . ثم ... وتضاعفت أصوات منغلة هنا وهناك ، ثم
 سمعت القاطرة صغيرها مرة أخرى . وجذبت العربات الداكنة تبعاً
 لي جيب . وما لبثت أن غابت بها في مدخل النفق . ثم عاد المسدود
 يسقط على المكان المتراخي الأضراس . وقد انجلي مرآه بعد أن خلصت
 تويج جوه من الدخان

وكان بين المسافرين الذين هبطوا من القطار ، شاب لغت الأنظار
 كان ... وشرافة مشيته غير المتكلفة .
 . وانطلق
 . وكان الهواء مشبعاً
 بنسيم الرياح . ينفث مبعث في السماء سحب بيضاء . لأرى لها مثيل
 إلا في شهري مايو ويونيه - وقد رحت تتسابق وتتلاحق . كأنها
 رعد من ترفيق ترد له فيها حناجر . فهي تركض لاعبة في القبة
 ترفقة . ثم تحني فجأة حناجر الشائعة . وهي تتعاقق ثم تفرق .
 وهي حيناً مطوية كشناديل وحيناً منشورة كالعصائب . ثم لا تلبث
 . في النهاية - أن تلوذ بقم التلال . فتوجهها بضعبات بيضاء !

غير اكتراث) .. إنه رجل ممن يعيشون لمزاجهم !.. وهذا أيضاً وجه من الوجوه التي عرقها بالمصادفة العابرة ! .. وفيها عدا ذلك لم تكن ثمة امرأة يمكن أن يؤمل في أن تكون له معها .. ولو مغامرة عابرة !.. ومن ثم بدأ صبره ينفد !

وكان البارون من الرجال الذين يدينون بالكثير من التوفيق لوسامة وجوههم .. والذين هم في كل لحظة على أهبة لقاء جديد .. وتجربة غرامية جديدة .. أولئك الذين أوتوا استعداداً لأن يفرصوا .. في كل وقت .. في تجاهل أية مفارقة .. والذين لا يفاجأون بشيء ما .. لأنهم يحسبون لكل شيء حساباً .. وهم يحضون في الخبذة مسيرين السيد في كل آن .. أولئك الذين لا تقلت منهم فرصة واحدة .. لأن نظرتهم الأولى تنفذ قاحصة إلى أعماق الإحساس الجنسي في قلب كل امرأة دون أن يفرقوا بين زوجة صديقهم والخدم التي تفتح خم الباب !

وعندما يطلقون - في الخمسا - اسم (صيادي النساء) على هذا الصنف من الرجال ، في ازدراء مصطلح .. فإنهم يقولون ذلك دون إدراك لما ينطوي عليه هذا التعبير من حقائق إيجابية .. إذ أن كل صياد الصيد من تشم .. واحتياج .. وجبروت عقلي .. تتفاعل في أسلوب هؤلاء الرجال المتربصين دوماً لاقتصاص الفرس !.. إن الشهوة تتحكمهم في كل وقت .. شهوة لبست من شهوة الحب في شيء .. وإغما هي شهوة المقامر .. الشهوة الحادثة .. الرؤيئة - التي ترز الأمور وتدفع في الوقت ذاته إلى الخطر ! ومن هؤلاء الرجال من أوتوا سملاية غير مألوقة .. فنقل تلازمهم حتى بعد أن يتجاوزوا سن الشباب .. فهم

يقضون كل حياتهم في ارتقاب المغامرة الأبديّة .. وينجزاً يومهم إلى عديد من الحوادث الحسية النافذة .. نظرة عابرة .. أو ابتسامة خفية .. أو لمسة بالركبة أثناء الجلوس وجهاً لوجه .. كما تنقسم ستهم إلى عديد من أمثال هذا اليوم .. فالحادث الحسي - عندهم .. هو السبع الخالد الذي لا ينضب معينه .. ينهلون منه وتلشب به حياتهم !

* * *

■ هكذا تبين البارون لقورود إن لم تكن هناك امرأة !.. ولا حتى زميلة .. فتناول صحيفة .. وترك بصرة يتسأل في ضيق بين سطورها ، ولكن أفكاره كانت مشغولة .. تتخبط مع الكلمات كالرجل التمل .. وفجأة سمع خافقه خفيف ثوب .. وصوتاً يشوبه شيء من الغضب .. يقول بالفرنسية في شهجة واضحة : « كفى يا إديجار .. صه ! » وحف ثوب من الخمر يطرّف المائدة التي كان يجلس إليها .. ولمح امرأة عارية الفواء .. وفي أعقابها طفل صغير شاحب ، في لباس من المخمل الاسود .. تطلع إليه يقضول .. وجلس القادمان متقابلين إلى مائدة كانت محجورة لها .. وكان الطفل يحاول أن يلتزم هدوءاً يتعارض مع القلق الذي كان يبدى في عينيه السوداوين .. أما السيدة .. وما كان البارون لير .. بسواها !- فكانت ترتدي ثياباً يتجلى فيها الحرص على الأنوثة .. وكانت .. وفي هذا .. من طراز يخبه كثيراً .. من أولئك اليهوديات جدّات لأحسبه في غير بلدته .. وقد أوشكت أن تتجاوز مرحلة الفرج .. وكانت تبدو مرهقة الأعطال .. وخجلت من انفعالها وراء ظهرها مشير !

ولم يستطع البارون .. في البداية - أن يرى عينيها . ولكنه أعجب
بتقوس حاجبيها اللذين استندوا إلى رقبته . وغامسا مساً خفيفاً فوق أنف
صغير . مما تم في صراحة من عتصرها أبيدي : وإن أضل .. لخلال
مظهره - على المنظر الجانبى لوجهها (البروقيل) رواء يجذب النظر !
أما شعرها فكان - ككل ما في هذا الجسم من صفات الأنوثة - قابلاً
لمحوظ . وكان إحساسها بأنها موضع الإعجاب البالغ يثير في نفسها
زهواً بضئى على جمالها كبرياء ضافية !

وطلبت المرأة الطعام بصوت خافت - ثم تبعت الطفل - مرة
أخرى - إلى التزام الهدوء . إذ كان يبحث بشوكة محدثاً بعض الجليلة ..
حدث كل هذا في غير اكتراث ظاهر منها بنظرات البارون الفاحصة
والخدرة .. بل لقد تظاهرت بأنها لم تنطق إلى وجوده . وإن كان
انتباها إلى نظراته البهظة هو الذى حملها - في الواقع - على هذا
التحفظ الذى تم عن اهتمام !

وفجأة ، أشرف وجه البارون بعد طول عبوس وتبهم . فشطط
أعصابه المراجعة . وتبددت عن حبيبه النجاعة التي رسمها الترميم .
واستقامت عضلاته . فاعتدل قوامه . وشع الضوء في عينيها . والواقع
أنه كان يشبه إلى حد ما أولئك النساء اللاتي يحتجن إلى وجود رجل
جانبهن ، ليبرزن كل ما في كيانهن من قدرة وسلطان ! .. كان يقتر
إلى حافز حسى لكي يبدى كل ما أوتى من طاقة ونشاط .. لقد شمر
الصائد رائحة الصيد . فتحفزت عيناه وارتدت تلميحات نظرات المرأة ..
وقدرو لهذه النظرات أن تلتقي .. بين حين وآخر .. بنظراته - في لقاءات

كطرفة العين . وهي تومض في اضطراب وتردد . دون أن تؤس
إليه قط بجواب واضح ! .. وغيل إليه أنه لمح على شفتيها وميض ابتسامة
توشح أن تشرق .. بيد أن هذا كله لم يكن سوى حدى غير مؤكد .
وكانت الخبرة التي يملكها هذا الإيهام هي التي تستغره وتستحثه ..
وما كنت ثمة ما يوحى بالأمل . اللهم إلا تلك الطريقة التي كانت المرأة
لا تفتأ توجه بها نظراتها نحوه . إذ كانت تتم عن مقاومة وعن حيرة
في أن واحد ! .. كذلك النفس الأمل في الطابع الذى كان يطبع حديثها
المصطنع مع الطفل : وكان هذا الحديث خفيفاً بأن يسمع دون ما يرب
فقد لاحظ أنه أن التحفظ المتكلف الذى استدعاه اصطناع الهدوء . كان
مكتسباً من خبرة قلق وضيق . وكان هو الآخر منفعلاً .. ثم بدأ
تصيد ! .. ومن ثم تلك في عتبه يتصبل بهدوء . وظل حيوات تصف
ساعة لا يحول نظره عن المرأة ، حتى لكأنه يرى في عيناها كل قصة
من قصص وجهها ، ويلبس خفية كل جزء من جسمها الملتصق للحياة !

وكانت الظلمة الكثيفة قد هبطت في الخارج . وأخذت الأشجار
ترجف - كأنها أطفال يستولى عليهم الوجمل - كلما مدت نحوها
السحب المثقلة بالمطر أيديها القائمة .. وما لبثت الظلمة أن أخذت تغزو
القاعة شيئاً فشيئاً .. وبدأ على الرجال صبر متزايد من جراء الصمت ..
وغدا حدث الإجماع مع عتبه أكثر تكلفاً . حتى أدرك البارون أنه
يوشك أن يلقى .. وجبئذ قرر القيام بحذوئه . فقبض - وكان أول
من يقبض من نحوه .. واتخذ في خطوات وثيرة نحو الباب . وفي اللحظة
التي حاذى فيها السيادة . تبعد أن يوجه ظهره إلى المرأة . فلاحظ

الثقت خلفه كما لو كان قد نسي شيئاً .. وإذ ذاك نحتها تسامله بعينين مقعمتين بالاهتمام !

وانتظر في الدرجة . فما لبثت أن أقيمت مسكة بيد طفلها . وقلبت .. في طريقها - بعض الحبال التي كانت على متفعدة في صدر القاعة وعرضت على الطفل بعض الصور . واتجه البارون صوب المتفعدة . وكأنه يريد أن يتناول إحدى الحبال . وهو - في الحقيقة - ينبغي أن ينفذ إلى أعماق عينها . ولعله طمع في أن يناقشها الحديث .. ولكنها أدارت ظهرها - إذ أنه مقبال - وربت كتفها قائلة له بالفرنسية : « هيا ، يا إدجار . إلى الفراش ! » .. ومضت غير عابئة بشيء ، فشعر البارون بشيء من خيبة الأمل وهو يراها تنصرف .. فقد حسب أنه لن يلبث أن يتعرف بها في ليلته تلك . ولكن هذه الطريقة المبالغية - التي سلكها في الانصراف - أيقظته من أحلامه وأوهامه . ومع كل ذلك فإن هذا التمتع كان ينطوى على لذة : كما أن الحيرة والغموض اللذين أحاطا بالبارون . أذكيا شوقه . فقد أحس بأنه عثر - أخيراً - على (زميل) ينازله ، وأن بوسعه الآن أن يبدأ المغامرة !

* * *

الفصل الثاني

■ ما أن ولج البارون القاعة ، في اليوم التالي . حتى رأى ابن الحساء نخبها يتحدث بصوت مرتفع مع الغلامين المنوط بهما خدمة المصعد . وبينهما صورا في كتاب من كتب (كارل ماي) .. ولم تكن أمه هناك . ولعلها كانت ما تزال مشغولة بزيئها ! .. وإذ ذاك فقط . أخذ البارون يتأمل الطفل للمرة الأولى .. كان حدثا نحولا . نحسباً ، ناقص النمو يناهز الإثني عشر عاماً . بلبه الحركة . ذا عيتين سوداوين عاترتين . وكان - ككثير من الأحداث في هذه السن - يبدو كمن مسه شيء أقرعه .. وكأنه اختطف فجأة أثناء نومه ليوضع في وسط غريب عنه ! .. ولم يغفل وجهه من جمال . وإن لم يكن قد استكمل قيمات محددة بعد . ولا اترسعت عليه من آثار التضايل بين الطفولة والرجولة سوى الطلائع الأولى .. كان كل شيء فيه أشبه بالعجينة التي دفعت إلى القرن دون أن تتخذ أي شكل معين . واضح . ولا أية خطوط مميزة .. فضلا عن أنه كان في تلك السن المتقلبة . التي لا ينعم فيها الأحداث بلباس نلائهم تماماً . فالأكمام والمراويل فضفاضة . تريد سعتها عما يلزم للأطراف المزينة كي تتحرك .. وهي أيضاً السن التي لا يكون فيها لدى الصبية من الغرور ما يحجزهم على العناية بمظهرهم الخارجي !

وكان سلوك الغلام في تنقله هنا وهناك دون أن يدرى إذا بصنع - بئير الإشفاق .. كان الجميع يدهون

حيناً يضايق البواب بأسننته فيبعده عنه . وحيناً آخر يضايق القادمين والخارجين . عند باب الفندق .. ومن الجلى أنه كان يفتد وجود صديق معه ! .. ومن ثم كانت حاجته الصيانية للثرثرة تدفعه إلى التقرب من الخدم « فكانوا يجيبون على أسئلته . كلما اتسع وقتهم للإجابة . ولكنهم لا يلبثون أن يقطعوا الحديث عندما يظهر أحد الكبار أو عندما يقتضيهم العمل تركه .. وأخذ البارون يراقبه - في ابتسام واهتمام - ما كان يحدث لهذا الغلام البائس - الذى كان يدفعه الفضول إلى كل شيء ، والذي كان كل إنسان يتهرب منه في عداة !

والثقى بصر البارون بنظرة من نظرات الغلام القضيولى . ذات لحظة ، ولكن العينين السوداوين ارتدتا في خوف ووجل . ثم شعورهما بأنهما ضبعتا متلبستين بالتطلع المتسرع - وتوارتا تحت الجفنين المنخفضين .. وراق البارون ذلك الأمر .. إذ بدا إليهم بهذا الغلام الذى كان الخوف هو الذى أحاله بلا شك إلى ما هو عليه من حياء وخجل . ثم ساءل نفسه : « ألا يمكن أن يكون هذا الصبي سيقاً سرعاً بينه وبين السيدة الغريبة ؟ .. مهما يكن من أمر ، فعلى المرء دائماً أن يتحول ! .. ومن ثم لبأ - وهو يتظاهر بأنه غير متعمد - إلى تعقب الغلام الذى اندفع نحو الباب وأخذ يداعب جواداً أبيض . ويتحسس أنه الوردى في تعطشه الصبياني إلى الختان .. إلى أن أبعدته الحوزى - بدوره - في غلظة ، دون أن يدع له في الواقع فرصة .. وأخذ الصغير يتسكع هنا وهناك - في ضيق وارتباك - وقد غاضى البشر من عينيه . وبدأ عليه شيء من الكآبة ..

وسأله البارون في لحظة اصطنع فيها المرح قدر ما استطاع : « هل أنت مسرور هنا يا قني ؟ »

واجر وجه الغلام حتى غدا في لون الجمر « وحدث فيه بقاق » وقد .. عليه الخوف . ثم ضم يديه إلى جسمه . وأدار رأسه بمئة ورسرة في ذلك . كانت هذه أول مرة يجادته فيها شخص غريب .. وأخيراً قال : « نعم .. أشكرك .. » وكان هذا جل ما استطاع أن يحمل نفسه على قوله .. بل إن الكلمة الأخيرة لم تنطق من فمه إلا بعناء ! وقال البارون ضاحكاً : « يدعشني قولك . فإن هذا المكان كئيب لاسيما بالنسبة لرجل صغير مثلك .. فإذا تفعل طوال تهارك ؟ »

وكان الغلام ما يزال مضطرباً . حتى لقد عجز عن أن يجده جواباً حاضراً . أمن الممكن حقاً أن يكون هذا السيد الأنيق - الذى لا يعرف - راعياً في أن يتحدث إليه . وهو الذى لا يهتم به أحد .. وبعثت هذه الفكرة في نفسه خجلاً وزهواً في آن واحد .. وتماثلت نفسه في عناء . لكي يجيب قائلاً : « إننى أقرا .. كما أننا كثير ما نتمشى مترضين . » وحيناً أخرج وأى في عربة للترهه .. إننى هنا لأسترد قوائى ، فقد كنت .. بضاً . وقال الطبيب أن لايدلى من أن أبقي طويلاً جالساً تحت أشعة الشمس !

قال الغلام هذه الكلمات الأخيرة وقد بدأ يشعر بثقة في نفسه .. فإن الصغير يعتزون دائماً بالموضوع . إذ يدركون أن الخطر يرفع من قيمتهم في أنظار أهلهم .. وقال البارون : « هل أنت على حدة الصبي ؟ » - نعم .. إن الشمس مفيدة لك . وإن الطبيب أن يجبرني مرة عما

غريب .. على أنك لا يجب أن تظل جالساً تحتها طوال النهار .. دون في
مثلك يجب أن يجرى .. وأن يبيض بالشاش .. وأن يرشك بعض
السحافات أيضاً ! .. يبدو لي أنك أكثر راحة مما يجب .. إنك بكتاباتك
الكثير .. المسميت .. الذي تألفه .. تصه النوم .. ولبي لأذكر كيف
كنت شيطاناً في مثل تلك .. وكنت أعود إلى المنزل في كل مساء ..
مزمع في الصباح .. لا يجب أن يعود الإنسان في العقل !

واضطرب الصبي إلى الانسجام رغمًا عنه .. وورعاً ما تلاعب حروفه ..
وود أن يجيب بشيء .. ولكن هذا بدا .. في نظره .. عجائبة لأقارب ..
والدفاع لا يلبق في حضرة هذا السيد الجميل .. أعرب عنه .. الذي
يحاذيه بمثل هذه الملهجة الودية .. ما سبق له قط أن يتحدث مع غريب
بهذا القادر .. وأحسن بالحيرة فداخلة .. من استعده وحلج أفعاله
باضطراب بالغ .. وود هو طال الحديث .. ولكنه لم يند شيئاً يقواه ..
ولحسن الحظ أقبل في ذلك الوقت كاتب الفندق الأصغر الكبير .. وهو
كلب من نوع (سان برنارد) .. وأخذ يتشمع الشاب والطفل ..
مستمالين لمداعبهما .. راضياً بها .. فقال البارون : « أتعب الكلاب ؟ »
آه ! .. نعم .. كثيراً .. إن لدى جنفي كلباً في دارها يسادن
— على مقربة من فيينا — وعندما نقيم في هذه (الفيلا) يلزمني الكلب
طوال النهار .. ولكن هذا لا يكون إلا في الصيف فقط ..
ونحن أيضاً عندما في ضيعتنا أكثر من أربعة وعشرين كلباً
على ما أذكر .. سأعطيك واحداً منها .. كلباً أشقر ذا أذنين بيضاوين ..
صغير السن جداً .. فهل تحب هذا ؟

فامر وجه الصبي من الفرح .. وقال على الفور : في طليحة من
يتحرق شوقاً : « بلا شك ! » ثم طرأت على باله فكرة أضفت على
ملاحظته جواً من الفضول وشبه الخوف .. فأردف قائلاً : « ولكن (ماما)
لن تسمح بهذا .. فهي تقول إنها لا تريد كلاباً في البيت .. لأنها تسبب
كثيراً من المضايقات ! »

وابتم البارون .. إذ تحول الحديث - تغيراً - إلى الأم .. وقال :
« وهل أمك قاسية إلى هذا الحد ؟ »

فترث الصبي حظة مفكراً .. وتطلع إلى السيد وكأنه يتساءل عما
إذا كان له أن يثق بهذا الشخص الغريب .. ثم أجاب في حذر :
« لا .. ليست أمي قاسية .. بل إنها تسمح لي بكل شيء الآن .. لأنني
مريض .. ولعلها تسمح لي كذلك بأن يكون لي كلب »
« هل ترى أن أطلب منها أن تأذن لك ؟ »

فنهف الصبي وقد استخذه الفرح : « آه .. نعم .. أرجوك .. »
لسوف توافق أي في هذه الحال بلا شك .. وما شكك ؟ .. إنه أبيض
الاذنين .. أليس كذلك ؟ .. هل يعرف كيف يلتقط الأشياء ويحضرها
إذا دُعيت بها أمامه ؟ »

« نعم .. إنه يستطيع أن يفعل كل شيء ! »
وابتم البارون على الرغم منه : إذ رأى الجذوة التي أذكاهها تألق
في عيني الغلام .. لقد تم الآن قهر الخجل الذي كان يستولى عليه في
البيدانية .. فتفجر الانفعال الذي كان يكتمه الخوف .. وإذا الطفل
الخجول .. المضطرب .. يتقلب في لحظات إلى عذال يطغى بالحسوة

الدافقة : فلم يتالك البارون أن قال لنفسه : آه ! ليت أمه على شاكلته ! .. ليها نفى وراء تحفظها مشاعر مشوبة كهذه ؟

وانطلق الغلام يصره بأسنانه : « ما اسم الكلب ؟ » .. قال البارون : « كايو .. » فتهافت الغافل مختطاً : « كايو ! »

وأخذ يضحك طرباً على الرغم من نفسه . وقد تملكته النشوة لهذا الحادث الذي لم يكن يرتفعه .. فها هو ذا يتهافت شخصاً يؤوله الاحتماء ويتودد إليه .. ودهش البارون من تاجبه السخيفة السريع . فقرر أن « يطلع » الحبيد وهو ساجد ! .. ودعا الصبي إلى نزعة قصيرة في صحبته ، فكاد المسكين يهن يهدد الدعوة ، إذ كان قد قضى الأسابيع يتحرق شوقاً إلى أن يكون له صاحب - وراح يروح لصديقه الحبيد في سذاجة - بكل ما كان هذا يسعى إلى معرفته . عن طريق الأمثلة الصغيرة التي حرص على أن يلقيها عرضاً ، وكأنها بنت ساعتها . ومن ثم لم يفس وقت طويل . حتى كان (البارون) قد عرف كل شيء عن أسرة (إيدجار) .. عرف أن الصبي هو الابن الوحيد لشمس بي (فيينا) ينتمي إلى الطبقة الموسرة من يهود النمسا .. وعرف كذلك أن الأم ليست مغتبطة بإقامتها في (ميمرنج) .. وأنها كانت تشكو أفاشارها إلى صديقتها محبة حوضاً .. وعندئذ سأله عما إذا كانت أمه تحب أباد كثيراً .. فأجابته الغلام بأن ليس كل شيء بينهما على وفاق تام !

ونحجل من نفسه : أو كاد ينحجل . لانتزاعه كل هذه الأسرار العائلية من الغلام . بتلك السهولة : .. وواقع أن (إيدجار) كان مزهواً للغاية . إذ رأى حديثه جديراً باهتمام أحد الكبار . فلم يكم عن صديقه

الحبيد شيئاً .. كان قلبه الصغير يخفق كبرياء وثيقاً .. كلما فكر في أن الملا يروونه في صحبة حيمة مع أحد الكبار ، إذ كان البارون يضع ذراعه على كتفه . وهما يسيران معاً : .. وشيناً فشيناً نسي (إيدجار) أنه لم يكن سوى غلام . فانطلق في الكلام بدون تحفظ . كما لو كان يتحدث إلى صبي في مثل سنه !

ولقد أثبت الحديث أن (إيدجار) كان على جانب كبير من الذكاء .. بل إن عقله كان يسبق سنه - بعض الشيء - كأكثر الصبية الذين تنابهم الأمراض والعلل ، والذين يعاشرون الكبار ويقصرون على مجتمعهم زمناً طويلاً .. وكانت عواطفه - حياً كانت أو بغضاً - تستمر إلى درجة غير عادية .. إذ لم يسد عليه قط أي ميل للاقتصاد أو الاعتدال . بل كان إذا تكلم عن شخص - أو عن شيء - اندفع في إظهار حبه له بتحمس عارم ، أو في إظهار كراهيته بشكل عنيف فيتنهمج وبجبه ويضجى على أساوره الشر .. كان ثمة شيء من الضراوة والتهور يصنع حديثه بصيغة من التطرف والتعصب . لعلمها كانت من آثار المرض الذي شق منه أخيراً .. وما كان نزقه وتطرفه سوى انعراج مكبوت إزاء عواطفه الجائحة التي كان يلاقي في كبحها عنه ، أي عنه !

■ ولم ينقض نصف ساعة ، حتى كان البارون قد سيطر تماماً على هذا القاب المتأجج ، المضطرب .. فليس أسهل من خداع طفل من أولئك السذج الذين قلما يسعى أحد إلى أن يروى إليهم .. لم يكن على البارون سوى أن يذكر ماضيه هو ، ليثبت نفسه كمن يثق به جداً

ألا يرى الصبي فيه سوى رفيق .. فلم يلبث الغلام - بعد دقائق - أن فقد الإحساس بالفارق الذي كان يفصل بين عربيهما : وغدا سعيداً إذ عثر -- فجأة - وفي هذا المكان المنزل - على صديق ، وأنى صديق !.. لقد نسي إلى جواره صديقه (فينا) جميعاً - بأصواتهم الرفيعة الحادة - وثرثرهم الجوفاء .. كانت هذه الساعة الفريدة كافية لكي تنسيه حتى صورتهم وذكراهم !.. واتجه بكل عواطفه الدافقة نحو هذا الصديق الجديد .. صديقه الكبير .. وانتشى قلبه زهواً عندما دعاه هذا الصديق -- وهما يهيمان بالافتراق -- إلى العودة في صباح اليوم التالي . ثم وهو يلوح له بيده من بعيد ، تماماً كما يفعل الأخ حين يودع أخاه .. ولعل هذه اللحظة كانت أسعد اللحظات في حياة (إدجار) !

وابتسم البارون وهو يرقب الغلام يبعده ذاهباً .. فقد اطمأن إلى أنه وجد الوسيط المنشود .. كان يوقن من أن الصبي سيقص كل شيء على أمه . وأنه سوف يعيد على سمعها كل كلمة .. وحينئذ تذكر البارون في غبطة أنه تحدث كثيراً مع (إدجار) عن « أمه الحسنة » ، وأنه أظرف في لباقة تلك السيدة !.. وبدا له جلياً أن الوسيط الصغير لن يقنع عن أن يربط بين صديقه وأمّه . ومن ثم لم يعد البارون بحاجة إلى أن يسعى إلى الحسنة المجهولة .. إنه يستطيع الآن أن يخلد إلى الأحلام ، وأن يتسلى بتأمل المناظر الطبيعية ، وهو مطمئن إلى أن يدي الصبي بدأتاً تبتنان ... في حمية ومحاسن - معبراً يقوده إلى قلب .. الأم !

* * *

الفصل الثالث

● كانت الخطوة - كما تبين (البارون) بعد ساعة واحدة - رائعة ، إذ نجحت حتى في أدق تفصيلاتها . فقد تعدد أن يدخل قاعة الطعام .. عند المشاء - متأخراً : فبادر (إدجار) قافزاً عن مقعده ، وحياء بحرارة والمساعدة تشع من عينيه .. ثم شد كم ثوب أمه . وتحدث إليها في حماس ، وهو يشير إلى (البارون) بحركات لاحظها الجميع ! .. واربتكت السيدة . واحمر وجهها . ووثقت طفلها على هذا الترقق .. ولكنها - برغم كل هذا - لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر صوب الجهة التي أشار إليها الصبي ، إرضاء له . وانتهر (البارون) الفرصة على الفور . فأحس رأسه باحترام .. وهكذا تم التعارف ، إذ اضطرت السيدة إلى رد التحية ، وإن حرصت بعد هذا على أن تستبق وجهها مائلاً نحو صفحة الطعام ، متجنباً في حرص - طوال العشاء - الالتفات نحو (البارون) . أما (إدجار) فكان على التقيض منها ، إذ كانت عيناه تتجهان بلا انقطاع نحو صديقه !.. بل لقد حاول مرة أن يخاطبه ، برغم ما كان يفصل بينهما من مسافة . بيد أن أمه لم ترض عن هذا التصرف المغيب : فلامته عليه بشدة . وما أن انتهى العشاء حتى طلبت إليه أن يذهب إلى فراشه . ولكن همساً ملحاً دار بينهما ، انتهى إلى السماح له بالذهاب لتحية صديقه . وإذا ذلك لاطفه (البارون) ليضع دقائق بكمالات لمعت لها عينا الصبي مرة أخرى ..

يارعة . فهنا جارتها - التي تولاها شيء من الارتباك - بأن أوثيت ابناً على جانب كبير من الذكاء واليقظة ، مطرباً الصباح الجميل الذي قضاه معه . وكان (إدجار) واقفاً يستمع ، وقد احمر وجهه غبطة وفخراً : .
(لاريون) يستفسر عن صحة الصبي بعدد من الأسئلة ، اضطرت ربة البيت أن تجيب عليها . وهكذا انتابا إلى حديث طويل . أنصت إليه لاريون باهتمام . وإن شئتم نوعاً من الاحترام !

وبعد ذلك (لاريون) توجه إلى السيدة . خيل إليه أن وثين قلبه عند النظر في نفسها . إذ عظمته بلباقة بالغة . رغم تعاطفها ! ..
ومستأنفة . استأذنت في الانصراف مبكرة ، متعلقة بصحة الصبي .
(إدجار) عاوض ملحاً ، وقال إنه ليس متعباً ! .. كان على استعداد للبقاء طوال الليل . ولكن الأم كانت قد مدت يدها لباريون الذي قبلها باحترام !

في اليوم التالي (إدجار) في تلك الليلة بنوم طيب . فقد حصل بنفسه حبيبته . من بعدة من اللذات والياس نصيباً . إذ اعترض حياته حبيبته من الحزن . فقد ساءم للمرة الأولى في تصغير الأحاسيس . ومن ثم خيل إليه أنه كبر دفعة واحدة ! .. ولم يكن قد عاش من سبق في أي وقت من الأوقات ، إذ نشأ في عزلة ، وتكوينه انفرادي . كما لم يكن هناك من يشبع حاجته إلى العطف ، والحنان . اللهم إلا بوبه . الذين قنوا كانوا حفا لان به - والخدم ! .. على أن الناس دائماً يسبون تقدير قوة الحب . لم يكن بوبه ، شريكاً وليس بالحنانة النفسية التي تسبقه . والتي تملك تلك المرأة المبهجة



ويحدث إليها في خفا ، وهو يشير إلى (لاريون) بحرارة لإحفظها الجميع ! .. وارتبكت السيدة ، واحمر وجهها ..

المظلمة : التي تخلقها العزلة وخيبة الأمل ، والتي تلاحظ في كافة ما يعرض للقلب من أحداث كبار .. 1. فقد كان لدى الصبي قبض من الإحساس المعطل . والمتحيز - في الوقت ذاته - للانطلاق . قلما ظهر أول مخلوق شعر بأنه جدير به : انطلق دافئاً ..

وأحسن (إدجار) - في ظلام الخدع - بنشوة من السعادة نمازجها حيرة .. كان يريد أن يضحك ، ولكنه كان مضطراً إلى البكاء . فقد أحب (البارون) كما لم يحب صديقاً من قبل .. بل كما لم يحب أباه أو أمه .. كانت كل العواطف التي استشعرها في سنه الخاليات قد تركزت في صورة هذا الرجل الذي كان يجهل اسمه منذ ساعات قلائل ! .. على أنه كان ... برغم هذا - على جانب من الدكاء يجنبه تهيب المجهول - وبقية الاستهانة بهذه الصداقة الجديدة .. لم يكن يؤثر اضطرابه سوى شعوره بتفاهة قدره ، وحول ذكره ، فكان يسأل نفسه : « أجدد أنا بصداقته ، وأنا بعد غلام لم يجاوز الإثني عشر عاماً .. ولم أبدأ بعد تعلیمی ، وما زلت مضطراً إلى أن أذهب للنوم قبل الآخرين . في كل مساء ؟ ! » .. هكذا كان يفكر في ألم : « ماذا يمكن أن أكون عنده .. وماذا يمكنني أن أعطيه ؟ ! »

وكان يشقيه عجزه المؤلم عن أن يعبر بطريقة ما عن نعتيه بصديقه . فقد كان أول ما يفعله عادة إذا ما اكتسب صديقاً أن يقسم معه كنوز قطره ، من طوايح بريد وأحجار التلويح .. تلك الممتلكات البسيطة التي تعرفها الطفولة . ولكن هذه الأشياء - التي كان يعثر بها حتى الأمس - أصبحت تبدو له مجردة من كل قيمة : بل تافهة ومضحكة ! ..

ثم كيف يمكنه تقديم مثل هذه التواقة إلى صديقه الجديد ، الذي لا يسمح لنفسه بأن يخاطبه بصغير المفرد اقتداء به ؟ .. أية وسيلة لديه يعبر له بها عن مشاعره ؟ ! .. وأخذ يزداد شعوراً بالألم لكونه صغيراً ، لكونه شاباً لمسا يكتمل بعد .. غلاماً في الثانية عشرة ! .. إنه ناغم .. كما لا ينغم في أي وقت - على حداثة سنه ، ويود ، كما لم يود من قبل - لو أنه صفا في الصباح التالي كامل الرجولة ، قوياً ، كما كان يرى نفسه في أحلامه !

على أن هذه الأفكار الفلقة سرعان ما اقترنت بأولى الأحلام الملونة التي يتميز بها عالم النضج الجديد . ونام (إدجار) أخيراً . وعلى شفتيه ابتسامة . بيد أن ذكر موعد الغد اقتض مضجعه . فاستيقظ في السابعة من الصباح التالي . وهو يخشى أن يصل متأخراً . وارتابي ملابسه على عجل . ثم ذهب ليعاين أمه المندمسة ، التي لم تكن في العادة تستطع حمله على مغادرة فراشه إلا بمشقة 1. وقبل أن تستكن من سوائه .. كان قد أسرع إلى السلم .. وظل يروح ويحيى - نافذ الصبر حتى الساعة السبعة ، ناسياً فطوره ، غير حافل إلا بأن يجب صديقه مشقة الغد !

* * *

● وقد (البارون) أخيراً - في التاسعة والنصف - في خطي وثيدة غير مكترث بشيء . كان قد نسي الوعد .. وقت حلويل : ولكنه إذ رأى الصبي يعدو نحوه . ابتسم - بل الإغمية - فانه التوبة التزادة . وأبدى استعداداً لوفاء بما وعد . فمضى إلى أن جاءه

استطاعته أن يعبر عن رغبات كانت حتى الآن تقابل أسوأ مقابلة .. فلا غرابة إذا نمت في نفسه الشعور الوهمي بأنه من الكبار .. لم تعد انطفولة عنده - في أحلام يقظته - سوى شيء مضى .. شيء أشبه بشوب ينخلص منه الإنسان : إذا ما أضحى ضيقاً جداً !

وعند تناول الغداء ، لي البارون دعوة أم (إدجار) - التي ازداد نطقها - فجلس إلى مائدتها .. لم تعد صلتها مجرد تجاور في الموائد .. بل أصبحا يجلسان وجهاً لوجه .. واستحال التعارف صداقة . واكمل الثالوث . وأخذت أصوات المرأة والرجل والنصي تمتزج في انسجام تام !



الفصل الرابع

● بدا للمساعد المتجمل أن الوقت قد حان للانقضاض على صيده .. كما كان ليفتح بتلاشي الكلفة بين أفراد هذا الثالوث .. حقيقة أن الحديث على هذا النحو بين ثلاثتهم كان أمراً محبباً لديه . ولكنه لم يكن يرمي إلى الحديث فحسب ! .. كان يعرف أن الأمور الدنيوية إذا انتزعت بالحيل والمناورات الغرامية تؤخر تفتح أكام الهوى بين الرجل والمرأة . مجرد الكلمات من حوارتها ، والمجوم من لحيته : كان لابد من تفادي أن يشغل الحديث هذه المرأة عن حقيقة مقصد (البارون) .. المقصد الذي أيقن من أنها فهمته !

وكان الراجع تماماً ، عنده ، أن خفت

وأخذ يتمشى معه ، وإن أتي في حزم مترفق أن ينطلقا على الفور إلى التزهة الموعودة ! .. كان يبدو أنه ينتظر شيئاً ما . أو هذا هو - في التقابل - ما نمت عنه نظرائه التي كانت ترقب الباب في شيء من التلقى . وفجأة . مال يسمة إلى الأمام .. كانت أم (إدجار) قد أقبلت . فردت نحية (البارون) : وانتهت نحو الصديقين . وابتمت في رضى حين علمت بأمر التزهة التي كان الغلام قد أخفى نياها عنها ، وكأنها سر ثمين جداً .. وقبلت - بعد تردد قليل - دعوة (البارون) لمصاحبتها فيها !

وسرعان ما عبس وجه (إدجار) ، وعرض شفتيه .. لكن ضايقة أن تصل أمه في هذه اللحظة بالذات ! .. إنه وحده الذي كان موعوداً بهذه التزهة .. وإذا كان قد عرف أمه بصديقه ، فلم يكن هذا سوى نوع من الحيلولة ، لا رغبة في إشراك أمه في صداقته ! .. واستيقظ في نفسه شعور يشبه الغيرة . حين لاحظت تطلعت (البارون) مع أمه ! .. وأخذ ثلاثتهم طريقهم إلى التزهة . ومالبت اعتماد الغلام بقيمته وبنفسه المتناجي أن تضاعف عندما رأى الاهتمام الهادئ نحوه من (البارون) ومن أمه .. فقد كان (إدجار) موضوع حديثهما : طيلة الوقت تقريباً . وكانت أمه تتكلم في شيء من الخبث عن شحوب الصغير وعصبية . بينما كان (البارون) يعارض مبسماً : ويسرف في الثناء على (صديقه) كما كان يدعوه . وكان (إدجار) مغتبطاً أشد الاغتباط . إذ أصبحت له حقوق لم يكن معترفاً بها - من قبل - خلال طفولته .. أصبح من المباح أن له يتكلم ، فلم يعد السكوت مفروضاً عليه : وإنما صار في

نحرة . وكانت هي تجتاز تلك الفترة الحاسمة من الحياة : التي يساور فيها الندم قلب المرأة ، لبقائها وقيّة لزوجها الذي لم تحبه — في الحقيقة — مطلقاً ! .. تلك الفترة التي تبدأ فيها شمس جمالها في البتوح إلى المغيّب ، منذرة بأنه لم يعد لها سوى فرصة أخيرة للاختيار .. فترة الصراع بين الأمومة والأوثنة .. هذه الفترة التي توافي المرأة بعد أن تكون قد خالت أن الحياة استقرت نهائياً ومنذ زمن طويل . فإذا التذكير في متعتها يعاودها من جديد . وللمرة الأخيرة . تتردد الإرادة بين الشهوة وبين الرضى والاستكانة إلى الأبد ! .. وتضطر المرأة في هذه الحقبة من حياتها إلى أن تتخذ أخطر قرار .. فإما أن تحيا حياتها الخاصة كامرأة وإما أن تحيا في أبنائها كأم !

وكان (البارون) خبيراً بهذه الأمور . ومن ثم خيل إليه أنه يلحظ عند صاحبتها هذا التردد الخطر بين حب الحياة وبين التضحية . كانت دائماً تغفل — أثناء الحديث — الكلام عن زوجها الذي كان — على ما يبدو ، غارقاً في مشاغله الخارجية .. ولم تكن في أعماق كيائها شديدة التعلق بابنها ! .. كانت عيناه السوداوان تخفيان شيئاً . تفرج عنه كآبة تكدر صفو شعورها ! .. وقرر البارون أن يشرع في العمل على الفور ، ولكن مع تجنب كل مظهر ينم عن التسرع .. وكما يلقي الصائد بالطعم إلى صيده ليستثير شهيته ويستدرجه ، شاء (البارون) أن يقابل هذه الصداقة الجديدة بتطور ظاهري :: ودأن يكون هو المطلوب . في حين أنه الطالب ! .. فقد عقد العزم على إذلال هذه الكبرياء : وعلى إبراز الفارق بين مركزه الاجتماعي ومركزها : كانت تسيطر

مستيقان زلتاج

١٣٩

عليه فكرة غزو هذا الجسم الجميل ، الممتلئ ، المفتوح كالزهرة ، بواسطة واحدة هي : إيداء كبريائه ، مستيقناً على ذلك بما لأمه من مكانة أروستقراطية مرموقة . ويفتور واضح في مظهره !

وما لبثت حية اللبنة أن استولت على رأسه ، فقرض على نفسه التزام الخمار . ومن ثم لزم غرفته بعد الغداء . وقد استمر الشعور بأن هناك من كان ينتظره ويأسف لغيابه . ولكن هذا الغياب المتعمد لم يثر اهتمام الشخص المقصود بالذات . إذ أن السيدة لم تكن لتفعل إليه ! .. ولكنه كان مبعث ألم قاس للضبي البائس .. فقد أحس (إدجار) طوال الأمسية بأنه منبوذ ، أو مهمل تماماً .. وقضى ساعات طويلة ينتظر صديقه في ولاء الأطفال . وكان يخال أن الانصراف . أو الانشغال بأي عمل ، لا يتفق وواجب الصداقة . ومن ثم أخذ يسير متثاقلاً في الردهات على غير هدئ . وكلما مضى الوقت ازداد ضيقه ! .. وكان القلق يحمله على التذكير في كل احتمال .. فتصور أن صديقه ربما تعرض لحادث . أو أن هفوة غير مقصودة بدرت منه فأغصبت الصديق .. بل إنه أوشك على البكاء لنفاد صبره . وشدة حزنه !



● وعندما قدم البارون في المساء — لتناول العشاء — ظفر باستقبال رائع . فقد جرى (إدجار) نحوه ، غير عابئ بأوامر أمه — التي نهته ، بصوت مرتفع — ولا بدھشة التزلاء الآخرين . وطوق انضبي صدر صديقه بذراعيه الزاهنتين في لحظة غامرة يضيء في انوار : أين أنت ؟ أين كنت ؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان !

واحمر وجه أمه ، إذ أقحمها في الأمر بهذا الشكل المريب . فثقلت له في غلظة ، بالفرنسية : « كن عاقلاً يا (إديجار) .. اجلس ! » .. وكانت تحاطبه بالفرنسية دائماً رغم أنها لم تكن تملك ناصية هذه اللغة تماماً ، رغم أنها كانت سريعة الارتباك . إذا اضطرت إلى الحديث عن تفاصيل على شيء من الدقة ! .. وانصاع (إديجار) للأمر ، ولكنه لم يكف عن توجيه الأسئلة للبارون . فقالت الأم لصغيرها معاقبة : « لا تنس أن يفعل ما يشاء .. وربما كانت نحيبتنا تضيقه ! » ..

وهكذا كشفت .. في غير حذر .. عما في صدرها . وأحس البارون باغتيالها . إذ سلكت نفسها - بهذا العتاب - في محبته . ومن ثم انقلب العتاب الموجه للطفل إلى عجالة موجهة للرجل . وعلى الفور ، استيقظت غريزة الصائد الكامنة في نفسه . وتملكته نشوة وتحفز لما أصاب من توفيق سريع في رسم الخططة الصحيحة . ولشعوره بأن الصيد غدا قريباً جداً من مرمى بندقيته ! .. فإتت عذابه . وجرى الدم خطيفاً في عروقه ، وتدفقت الكلمات من شفتيه دون أن يعرف كيف كانت تندفق ! .. كان - ككل رجل مشغوف بالعلاقات الغرامية . لا يدرك أنه ما يكاد يروق في عيني امرأة . حتى تتأجج مشاعره .. فهو - في هذا - يشبه الممثل : لا يلهي إلا عندما يرى جمهور النظارة خاضعاً لسحره . متصاعاً لسيطرته ! .. وكان يجيد مرد القصص المليئة بالصور الخلاقة .. فأخذ - في ذلك المساء . يروي قصصاً عن رحلات قام بها للصيد والقتل في الهند ، بدعوة من صديق له من الطبقة الاستشرابية الإنجليزية . وكان يقبل خلال الحديث

على احتساء كئوس الشبانيا التي راح يطلبها - بين آن وآخر - احتفاء بالصدقة الجديدة : مما جعله يتجاوز في الحديث كل ما كان يرتقب من إمتاع ! .. والواقع أنه كان يارعاً في انتفاء هذا الموضوع مادة حسية . إذ كان المجال فيه واسعاً للحيال . كما أنه كان - بما فيه من تعادلات خاطئة ، وصور نادرة - مثيراً بطبيعته للمرأة . ومع ذلك . فقد كان (إديجار) أكثر من أمه تأثراً وانبهاراً بهذه القصص . وقد تجلى اغتياله بها في ريق شفتيه .. إذ نسي الطعام والشراب . وأخذ يعدو في وجه الراوية . وكأنه يقتصر الكلمات من شفتيه ! .. فما كان جلم يوماً بأنه سيري رجلاً عاش في تلك الأحداث الجسام التي اعتاد أن يقرأ عنها في الكتب : صيد الغور . وقصص الرجال ذوي الوجوه البرونزية . وعجالات (جيدجرو) - مركبات الحرب لدى الهنود - الرهيبة . التي سحق تحتها آلاف من الآدميين ؟ .. لم يكن يصدق - قبل الآن - أن لمل هؤلاء الأبطال وجوداً حقيقياً . ولا كان يؤمن أيضاً بوجود تلك البلاد التي يرد ذكرها في القصص . لذلك أثارت هذه المناسبة في نفسه اهتماماً شديداً ، فلم يكن في وسعه أن يحول عينيه عن صديقه . بل علفت نظراته - وكل إدراكه وحسه - بوجه صديقه وانبهار .. هذا الرجل الذي قتل تمراً ! .. ولم يكن يخرو على توجيه أي سؤال .. وحتى حين استطاع السؤال . انبعث صوته متهدجاً كالمحموم ! وكان خياله السريع يصور له كل مشهد من القصة البحرية : كان يمثل ما يراه محتلياً ظهر الغيل في هودج آجرائي : وإلى يساره وجود برنوزية . فوقها غنم ضخمة

بغته ، وهو يتقفر خارج الغاية ، ويثب منشأ مخاليه في خرطوم القبل ! ثم قص البارون شيئاً أدعى إلى الاهتمام ، فتحدثت عن الحيلة التي يقتضونها بها الفيلة ، إذ يستدرجون صغارها المرحلة إلى حفر ، مستخدمين في التفرير بها حيوانات مسنة مدرية . وكانت عينها الضبي تلتاقان انعزالا . وهو يتخيل أمامه مدينة تلمع وتفوح في الفريسة !

* * *

■ وما لبثت الأم أن قالت : « لقد بلغت الساعة التاسعة .. حيا إلى النوم ! » فشحب وجهه (إدجار) لهذا الإنذار الذي يدد بحر المناسبة .. ولم يجد الأطفال في إرسائهم إلى الفراش عتياً قاسياً . إذ يرون فيه إهانة بالغة توجهه إليهم أمام الأشخاص الكبار ، كما يرون فيه دليلاً على أنهم أضعف وأحط مقاماً من أولئك الكبار .. ولكم كان أليماً أن تعتمد أمه .. في أكثر الغظات استشارة لمشاعره — إلى حرمائه من معرفة الخاتمة التي انتهت إليها تلك الحوادث الفريدة المشوقة ومن ثم قال لها : « دعيني أستمع لهذه فقط يا ماما .. هذه فقط .. قصة الفيلة .. هذه القصة فقط ! » .. وهم بأن يلحف في التوسل . ولكنه سرعان ما تذكر كرامته كشخص من (الكبار) ، فلم يزد على المحاولة ، مقلعاً عن الإلحاح ! على أن أمه أبدت في ذلك الماء صرامة لم يعهدها الضبي من قبل ، إذ قالت : « قلت : لا .. لقد تأخر الوقت .. اصعد إلى غرفتك ، وكن عاقلاً يا إدجار .. سأقص عليك كل القصص التي سأسمعها بنحافيرها .. » وتردد (إدجار) . كان من عادة أمه أن تصحبه دائماً إلى الفراش .. ولكنه أراد أن يتفادى الخط

من قدر نفسه أمام صديقه إذا هو بدا في مظهر المتوسل .. وأوعزت إليه كبرياؤه الناشئة بأن يضيق على هذا الرحيل أخيراً شكل الطساعة الاختيائية . فقال : « أصبح يا ماما أنك ستصين على كل شيء » .. كل شيء .. « قصة الفيلة والقصص الأخرى ؟ » أجل يا بني .. يعد قابل ..

في هذه الليلة بالذات ؟

. نعم .. أما الآن . فاذهب إلى فراشك !

وعجب (إدجار) من نفسه . إذ استطاع أن يمد يده .. دون أن يحمر وجهه .. ليحيي البارون وأمه . وهو يحقق تنهاته في صدره ، حتى لا ينفجر بالبكاء . ووضع البارون أصابعه في شعر الضبي ملاطفاً وارتمت ابتسامة مفتتحة على وجه الصغير المغيظ .. ولكنه ما لبث أن هرول نحو الباب .. ولو لم يفعل لشوهدت عبرات خفية تنساب على خديه !

* * *

■ بقيت الأم بعض الوقت في قاعة الطعام مع البارون . بعد انصراف ابنها . على أن الرجل لم يعد يتكلم عن الفيلة . ولا عن الصيد .. وساد حديثهما — منذ مغادرة الغلام القاعة — بعض الاضطراب والضيق .. وأخيراً . انتقالاً إلى الردهة ، وجلسا في أحد الأركان . وهناك لم يلبث (البارون) أن استعاد ثباته وبدا مترابداً الحمية ، كما كانت هي أيضاً منتشية بفعل الشمبانيا . فلم يلبث الحديث أن جنح بهما إلى اتجاه خطر ..

ولم يكن البارون - في الواقع - بالرجل الذي يوصف بالجلال .. ولكنه كان في فتوة الشباب ، تبدو عليه معة الرجولة الكاملة . ينم عنها وجهه القمحي وشعره القصير .. وأعجبت المرأة - أيتها إعجاب - بما كان يستبجحه لنفسه من حركات مرحة ، متحررة ، وشعرت بارتياح لوجوده بقربها ، فلم تعد تهيب عينيهِ ! .. وشيئاً فشيئاً - اتسم حديث (البارون) بجرأة اضطربت لها ، كأنما كان في عباراته شيء يمسك بجسمها ويتحسسهُ ثم يتركه ! .. ودخلها شعور جامع كان يدفع الدم إلى وجنتيها .. ولكنها سرعان ما أخذت تضحك - غير عابثة بشيء - وفي مرح كروح الأطفال . وما كانت تعلم أنها كانت تفصح بهذا المرح ، عن ميلها إلى البارون بصورة صبيانية ! .. وكانت أحياناً تهم بصدا ما يتجاوز حد اليباقة من الحديث في صرامة .. ولكن طبيعتها المرحية كانت تغلبها على أمرها ، فتتطلع إلى المزيد منه ! .. ثم انتهى بها الأمر إلى محاولة تقليد (البارون) والنسج على منواله ! .. ومن ثم أخذت ترد على عباراته بوعود غامضة ، وعيناها تحدقان فيه . وما لبثت أن بادأت تستسلم بكلماتها وحركاتها . فأخذت تبيع لنفسها الاقتراب منه .. وازداد دتو صوته من سمها . وأحست بحارارة انفاسه تنفخ منكبها . وككل العائنين . لم يحسا بالوقت . إذ استغرقتهما حرارة الحديث . حتى فوجئا ببعض مصابيح الردة . تطفأ إيداعاً بانتصاف الليل !

ونفضت إذ ذاك . مذعورة مما اندفعت إليه ، وأوغلت فيه . بهذه السهولة ! .. حقيقة أن اللعب بالنار لم يكن شيئاً جديداً عليها ،

ولكن عقلها الياطن أخذ يوحى إليها بأنها - في هذه المرة - قد ذهبت في الشوط بعيداً . واكتشفت في جزع - أنها لم تعد تسيطر على نفسها سيطرة تامة . وأن شيئاً ينساب في كيائها . فيندب بانسياقها نحو صراع عنيف ! .. وأحست بدوار . وكأنها تعيش في دوامة من الخوف والخل وحرارة الحديث ، واستولى عليها وجل مبهم ، لم تلقه له معنى .. وجل عرفته من قبل في لحظات مماثلة ولو أنها لم تعهده بهذه الشدة وذلك العنف !

وقالت وهي تهم بالانصراف : « طابت ليلتك ! .. طابت ليلتك ! .. إلى صباح غد ! .. » ولم تكن تبغى الحرب من البارون بقدر ما كانت تبغى الحرب من خطر هذه اللحظة . وخطر ذلك الاضطراب الطارئ الغريب الذي ساور نفسها ! .. بيد أن (البارون) استبقى - في إصرار رقيق - اليد التي مدها له . وقبلها .. لأمرة واحدة . كما يقضى بذلك عرف الشبالة ، بل أربع أو خمس مرات ، وشفتاه المرتعشتان توزعان القبلات على أطراف أناملها وعلى راسها . وتولتها انتفاضة حين لامس شاربه ظفر يدها . وسرت في جسمها نقعة من دفء ، فخلق قلبها في عنف . وأحست كأن رأسها يتدد .. كأن ثمة ألم مض .. ألم لا مبرر له ، يملك عليها مشاعرها . فجذبت يدها بغتة من قبضته ! وقال البارون متوسلاً : « ألا أمكني قليلاً ! .. » ولكنها بادرت بالإيماء لن سرعة كشفت ما كانت تعانيه من اضطراب .. ففقد أحمت بأنها بلغت درجة الانتشاء التي كان الطرف الآخر يبتغيها ! .. وأدركت حقيقة كل ما كان يساورها من انفعال .. كانت تهب

الخوف الملتبب من أن يحتويها الرجل الذي خلفته وراءها بين ذراعيه،
بيده أنها لم تكذب تبعد عنه . حتى أحست بحسرة لأنه لم يضمها فعلاً ! ..
كان من المحتمل أن يحدث في هذه اللحظة ما كانت تتنبهه -- وإن لم
تقطن -- منذ سنوات .. كان من الممكن أن تنزع المغامرة التي كانت
جوارحها تهفو إليها .. المغامرة التي تترجح فيها الأنفاس . والتي كانت
تكبح نفسها عن خوضها حتى الآن .. المغامرة الكبرى . الخطرة .
لا مجرد التودد العارض والانعزال الوقتي ! .. ولكن البارون كان من
الاعتزاز بنفسه بحيث لم يشأ أن يتهاوت على طلب هذه اللحظة .. فقد
كان على ثقة من أنه لن يلبث أن يظفر بهذه المرأة . فلماذا يتصرف
كاللص ، فيقتنصها في لحظة من لحظات الضعف . معتنياً بشسوة
الحمر ؟! .. كان صياداً أميناً . يستمرئ النضال الذي ينتهي باستسلام
الفريسة طواعية ، وهي في كل وعيها ومشاعرها ! .. محال أن تغفل
منه . كان يعرف أن السم الملتبب أخذ يسرى في عروقها .

* * *

● ووقفت لحظة في أعلى السلم . ويدها تضغط قلبها اللاهث :
كانت أعصابها منهارة . وندت منها زفرة ثمت عن ارتياحها -- إلى
حد ما -- لإفلاتها من خطر داهم . كما تمت في الوقت نفسه عن بعض
الندم ! .. ولكن هذا الندم وذاك الخطر . كانا يساووانها في غموض
مبهم : وأحست بشبه دوار خفيف . فتحست طريقها عبر الممر .
وعينها مغمضتان ، وجسمها يترنح كما لو كانت ثمالة : وانجهت نحو

باب غرقها .. ولم تتألم أنفاسها المتهدجة ، إلا عندما أمسكت بمنزلة
البارد .. فقد شعرت إذ ذاك بأنها في أمان !

ودفعت الباب أمامها في رفق ، ثم تراجعت بحفلة ، إذ كان في
الغرفة شيء ما أخذ يتحرك في الظلام . واهترت أعصابها المتهتجة
بشدة ، وهمت بالاستغاثة ، غير أنها سمعت صوتاً متقللاً بالنعاس ،
ينبعث واهناً من أعماق الغرفة قائلاً : « أهذه أنت يا ماما ؟ »

-- بريك قل لي : ماذا تصنع هنا ؟

وأسرعت نحو السرير الذي كان (إدجار) نائماً فيه ، ثم نهض
عنه ، عندما أيقظه مقدمها . وظنت الأم -- أول الأمر -- أنه مريض .
وأنه لجأ إلى مخدعها يشد إسعافاً لديها .. ولكن (إدجار) قال في عتب
هين ، وهو يغالب النوم : « لقد انتظرتك طويلاً ، ثم غلبني النوم » ! .

-- ولماذا انتظرتني ؟

-- لأجل القيلة !

-- أية قيلة ؟

وفجأة : أدركت ما كان يعني .. تذكرت أنها وعدت الصبي
بأن تقص له -- عندما تعود -- كل شيء عن الصيد والمغامرات :
وهذا تسلي الغلام الساذج الأبله إلى مخدعها وانتظرها ، في ثقة تامة ،
فلما طال غيابها ، غلبه النعاس فنام .. واستشاطت غضباً لهذا التصرف
الآخف . ولكنها -- في قرارها -- أحست بشيء من السخط على نفسها
وبشيء من الحجل الذي يساور من يشعر بأنهم

من هذا الشعور . فصاحت في الصبي : « اذهب فوراً إلى الفراش .
أيها الصغير الوقح ! »

وتنظر إليها (إدجار) دهشاً .. ترى ما الذي أغضبها منه ؟ .. لم
يكن قد أتى ذنباً معيماً .. على أن هذه الدهشة ، وما صاحبها من تلكؤ
ضاعفا من غضب الأم . فبهرتة صالحة : اذهب حالا إلى غرفتك ! ..
وكانت غاضبة .. في الواقع . لأنها كانت تعرف أنها المخجلة !

وانصرف (إدجار) دون أن ينس بيت شقة . والحق أنه كان
متعاً غاية التعب .. وكان في غفوة النوم . لا يشعر بغير إحساس
غامض أوحى إليه بأن أمه لم تف بوعدها . وأن سلوكها معه كان
جائراً . بيد أنه لم ير . إذ تغلب الإعياء على كل شيء فيه . وإن أبقى
على شيء من الاستياء . جعله باوم نفسه على انصياعه للنوم . في وقت
كان ينبغي فيه أن يقل مستيقظاً . وكان ذلك : « كان طفل الرضيع ! »
وأخذ يردد في نفسه هذه العبارة مغرماً .. حتى غشيه النوم من جديد .
فقد تولته منذ أمس كراهية نحو .. مخلوقته !



ولكن (إدجار) قال في عتب هين ، وهو يغالب النوم :
« لقد انتظرتك طويلاً ، ثم غلبني النوم ! »

وحده مع الأم :- قبدأ يستشر الضيق - ويديه في وجه هذا الغلام
النفق !.. ولكن لما كان قد أيقظ فضول هذا الصغير وعواطفه ،
دون انتباه منه أو حذر . فقد أضحي من الصعب عليه الناس الوسيلة
ليخلص من ملازمته له !

على أنه لم يبدأ من تحمله - ريثما تحين الساعة العاشرة .. فقد كان
على موعد مع الأم . في تلك الساعة . لينطلقا في نزهة !.. ومن ثم
ترك الصبي سادراً في ثمرته دون أن يلقى إليه بالاً - متشاعلاً بقراءة
إحدى الصحف . وإن حرص على أن يوجه إليه بعض كلمات بين آن
وأخر ، حتى لا يخرج شعوره . حتى إذا حانت الساعة العاشرة أخيراً ،
تظاهر بأنه تذكر فجأة أمراً ما ، ورجا (إيجار) أن يذهب إلى الفندق
الخياور ، فيسأل - بالنيابة عنه - عما إذا كان ابن عمه الكونت
(جريندم) قد وصل !

وهو الصبي الساذج نحو الفندق . سعيداً بأن يكون في مقدوره
- أخيراً - أن يؤدي خدمة لصديقه . فخوراً بأن يرتفع إلى مرتبة
رسول شخصي له !.. وأخذ يعدو في جنون . حتى لقد كان الناس
ينظرون إليه دهشين !.. بيد أنه كان حريصاً على أن ينبت للبارون
مدى نشاطه وصرعته . عندما يعهد إليه بمهمة !.. وقيل له في الفندق :
إن الكونت لم يصل بعد . ولم يعلن الإدارة عن موعد قدومه : وعاد
بهذه الإجابة وهو أكثر إصراراً في جريه من ذي قبل . ولكن البارون
كان قد غادر الردهة . فطرق الصبي باب غرفته : دون جلوى ..
ومالبت أن جرى في قلق نحو قاعة الجلوس . وانفتح .. ثم لم يلبث أن

الفصل الخامس

■ كان نوم البارون في تلك الليلة مضطرباً .. فلن النوم لا يوافق المرء
.. عادة .. بعد مغامرة غرامية لم تكتمل !.. كانت ليلته قلقة ، حافلة
بالرؤى المزعجة : مما جعله بأسف سريعاً لأنه لم يقد - في جراحة - من
الفرصة التي سنحت له !.. فلما هبط من غرفته في الصباح التالي ، لم
يكن قد تخلص بعد من آثار السهر والقلق ، قبدأ متبرماً من نفسه :
وخرج الصبي من وكن كان يخفي فيه : وقفز نحوه فأحاطه بذراعيه
مغتبطاً ، وأخذ يحطره وإبلا من الأسئلة .. كان سعيداً بأن يتفرد مرة
أخرى بصديقه الكبير ، لحظة لا تشاركه فيها أمه !.. وأخذ يردد القول
بأن البارون كان خائفاً بأن يروى كل شيء له وحده . لا لأمه :- فإن
أمه قد حشنت بوعدها . ولم تنقل له شيئاً من تلك القصص العجيبة !..
وراح يوجه إلى البارون ميلاً من سفاسف الأطفال وثرثرتهم ، حتى
ضاق به الرجل الذي لم يقو تماماً على إخماء ما كان عليه مزاجه من
توعلك !

وهكذا كان البارون يجيب على أسئلة الصبي عابياً ، مقطب
الجبين .. كانت ملاحقة الصبي له . هذه الملاحقة التي لا تنتهي والتي
تطوى على إبقاء برقابة دائمة :- وهذه الأسئلة الخالية من المعنى :-
وهذه اللهفة الثقيلة : المضمة :- كل هذه الأمور بدأت تضايقه ! :-
كان قد مل التجوال - هنا وهناك - طوال النهار ، مع غلام في الثانية
عشرة : وسئم التكلّم معه في سخافات تافهة . وأصبح يصبو إلى أن يكون

غرفة أمه ليسأفا عما ينبغي أن يفعل . ولكنها لم تكن هناك ، هي الأخرى ! وأخيراً ، سأل الباب : في محاولة بائسة ، فعمل منه أنهما خرجا معاً منذ دقائق . وأثار هذا الجواب دهشة الصبي !

* * *

● وانتظر (إدجار) عودتهما نافذ الصبر . ولم يساوره — لسذاجته — أى ريب ، بل كان موقناً من أنهما لن يغييا سوى بضع لحظات ، إذ قدر أن يكون البارون في حاجة إلى الجواب الذى يحمله له : بيد أن الساعات تتابع . دون أن يعودا ، فأخذ التلقى يتسرب إليه : والواقع أن الصغير عرف التلقى منذ الصباح الذى ظهر فيه ذلك الرجل الغريب الفاتى في سماء حياته الصغيرة .. والانفعال ، مهما يكن نافهاً . بترك في النفس الغضبة — نفس الطفل — أراً يشبه الحفر على الشمع .. إذ ما لبثت أن عاودت الصبي تلك الرعدة العصبية التى كانت تهر جفنيه ، وأخذ وجهه يزداد شحوباً .

وظل ينتظر طويلاً .. صابراً في أول الأمر ، ثم مضطرباً أشد الاضطراب ، حتى أوشك في النهاية أن يجهش بالبكاء .. على أنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد أساء الظن بشئ . إذ كان — في ثقته العمياء بصديقه الراحل — لا يرى أكثر من أنه ربما قد أساء السمع ، فراح يتعذب خوفاً من أن يكون قد أخطأ فيهم المهمة التى عهد إليه (البارون) بها !

ولكن شد ما كان عجبه حيناً رآهما — وقد عادا في النهاية — يواصلان حديثهما في مرح : دون أن يبديا أية دهشة : كان يبدو

أنهما لم يأسفا قط لغيابه ! .. بل إن البارون لم يسأله قط عن المهمة التى كان قد عهد إليه بها ، وإنما قال له : « لقد سبقناك يا (إدى) — (اسم التذليل لإدجار) — وكنا نحسب أننا سنلتاق في الطريق ! » .. وإذ خفى الصبي أن يكونا قد بحثا عنه ولم يجدها ، راح يؤكد أنه إنما سار في الشارع الرئيسى مباشرة « وأراد أن يعرف في أى اتجاه ذهب ، فأسكنته أمه بغتة قائلة له : « كفى . ليس للأولاد أن يترثروا هكذا » .. وأمر وجه الصبي غضباً . وكانت هذه هى المرة الثانية التى تحاول فيها أمه أن تجرح شعوره أمام صديقه ! .. ترى لم تفعل هذا ؟ .. لماذا تحاول دائماً أن تظهره بمظهر الأطفال . مع أنه — كما كان موقناً — لم يعد منهم .. لا شك أنها كانت تغار منه على صديقه ، وتحاول أن تحرمه منه .. أجل . ومن المؤكد كذلك أنها هى التى قادته في طريق غير الشارع الرئيسى لكى لا يلتقى به .. ولكنه لن يدعها تسمى إليه ، وسوف ترى ذلك .. سيقاومها ! وعقد إدجار العزم على ألا يبادل أمه كلمة أثناء تناول الطعام ، وأن يوجد الخطاب إلى صديقه وحده !

* * *

■ بيده أن الصبي وجد مشقة في ذلك ، إذ حدث ما لم يكن يتوقه .. لم ينتبه أحد منهما إلى تحديه الصامت . أجل ، كانوا لا يكادان يشعران بوجوده ، هو الذى كان بالأمس محور حديثهما ! .. كانوا يتحدثان في متأى عنه ، وبضحكان ، ويتداعيان ، وكأنه تلاشى من وجودهما .. فتصاعد الدم إلى وجهه . وأحس بغصة في حنجرته كأنه خنجر . وأخذ يرتجف فرقاً وهو يذكر عجزه الأليم .. فحينئذ تبادلا نظرة بينهما

جالساً في هدوء ، ينظر إلى أمه وهي تسترخ منه صديقه . : هذا الشخص الوحيد الذي أحبه ؟ .. أو ليس في وسعه أن يدافع عن نفسه بغير الصمت ؟

وشعر فجأة بخافز يدفعه إلى التبرؤ . وإلى أن يلقى المائدة بقبضته ، لا شيء . إلا لكي يلتصق إلى وجوده ! .. بيد أنه كظم غيظه ، وضبط نفسه ، واكتفى بأن ترك شوكته وسكينه جانباً وتوقف عن الأكل : ومضى وقت طويل دون أن يعبر أحدهما هذا الصغير العنيد أي الثغرات ، ولم تنطق الأم لأمره إلا عندما قدم إليهم آخر ألوان الطعام ، فسألته عما إذا كان يشكو من شيء .. فقال الصبي لنفسه : « هذا فظيخ » : إنها لا تفكر دائماً إلا في أن تظلمن إلى أنني لست مريضاً .. وكل ما عدا هذا يستوى عندها ! ..

وأجاب في جفاء بأنه لا ينحس ميلاً للأكل . فلم تسأله إيضاحاً ! .. لم يقسو شيء ما على اجتناب انتباههما إليه .. لا شيء ، على الإطلاق ! .. ولاح أن (البارون) قد نسي وجوده . إذ لم يوجه إليه الكلام مرة واحدة ! .. وازداد (إدجار) شعوراً بالرغبة في البكاء ، فلم يبعد بدأ . في النهاية . من أن يركن إلى هذه الحيلة من حيل للصغار للتفليس عن كبريهم . وتناول المنشفة بسرعة يخفف بها الدموع التي انسابت على خديه وورطبت شفتيه . قبل أن يفتن أحد إليهما ..

ولم يتنفس الصعداء ارتياحاً . إلا بعد أن انتهى الغداء : وكانت أمه قد اقترحت - أثناء الأكل - أن يقوموا بترهة : في عربة ، إلى (ماري شوتر) ، فمض (إدجار) شفتيه ، إذ معها تعلن هذا الاقتراح :

لإنها بهذا الأسلوب لم تعد تريد أن تتركه يخلو إلى صديقه لحظة واحدة . : ولكن غضبه اشتد استعارة فجأة ، حين قالت أمه أثناء مبارحة المائدة : « إنك توشك يا إدجار أن تنسى كل ما تعلمت في المدرسة .. إنك تحسن صنماً إذا مكثت - ولو مرة - في المنزل ، لتراجع دروسك ! » :

وضم قبضته الصغيرتين . مرة أخرى . في غيظه .. إنها ما تزال تحاول الخط من قدره أمام البارون . وتذكير الناس بأنه مازال طفلاً ، وبأن عليه أن يذهب إلى المدرسة . وألا مكان له بين الكبار ، إلا أن يكون ذلك على سبيل التسامح . ولكن تعمد هذا كأن أكثر إساءة في هذه المرة ، فلم ينب ، وإنما استدار إلى الناحية الأخرى .. فقالت أمه وهي تبسم : « هل يسوؤك هذا أيضاً ؟ » . ثم أضافت مخاطبة البارون : « هل يسوؤك حقاً أن ينصرف ساعة للدرس ؟ .. وإذ سمع الصبي هذا . أحس كأن شيئاً تجمد وتحجر في قلبه ، بينما قال البارون - البارون الذي كان يزعم أنه صديقه ! - « لا .. إن ساعة أو ساعتين من الدرس لا بضيراته في شيء » ! :

« أما مستحقان فيا بينهما ؟ .. أحما حقاً قد تحالفا ضده ١ ؟ .. » وانقد الغضب في عيني الصبي ، فاندفع يقول بكل ما يتحبه له دلال الطفل المريض من قوة : « لقد أمر أبي بالآ أؤدي أي عمل هنا .. أبي يريدني أن أسترخ ! .. وتثبت - في يأسه - بساطة أبيه . وكان في جوابه ما يشبه التهديد ! .. وهما هو أدعى للدهشة أن لفظ « أبي » أحدث لدى الأم والبارون معاً شعوراً بالاستياء ، فأشاحت الأم بصرها ، وأخذت تطرق المائدة بأصابعها في حركة عصبية : « رفق ساد يهتم صحتكم .

وقال البارون آخر الأمر مصطعاً الابسام : « فليكن ما تريد يا إدى ! »
ثم أودع قاتلاً : « أنا لست مضطراً إلى أداء امتحان » فقد رسبت في
جميع المواد منذ زمن بعيد ! »

ولكن (إدجار) لم ينشم لهذه الفكاهة . وإنما ألقى على البارون
نظرة نافذة ، فاحصاً ، وكأنه يريد أن ينفذ إلى قراءة نفسه .. ترى ماذا
حدث ؟ .. لقد تغير بينهما شيء ما لم يفهمه الصبي : وشردت عيناه
في قلق ، وتسارعت نبضات قلبه الصغير .. فقد بدأ الشك يساوره !!

■ « ما الذي غيرهما إلى هذا الحد ؟ ! » .. هكذا أخذ الغلام يفكر
في الأمر طوال الطريق . وهو جالس في مواجهةهما داخل العربة :
« لماذا لم يعودا .. بالنسبة لي .. كما كانا من قبل ؟ ! .. لماذا أصبحت
أرى تنفادي نظراتي عندما أوجهها إليهما ؟ ! .. لماذا يحاولان دائماً أن
يسدوا أمامي مخرجين ، لطيفين ؟ ! .. لئلا يبعثني عيناها كما كان
شأنهما معي أمس ، وأول من أمس . بل إنني أكاد أقول إن وجهيهما
لم يعودا نفس الوجهين اللذين عهدتهما لهما .. فشقتنا أي .. اليوم -
شديدتا الاحمرار . ولأيد أنها استعملت طلاء لتكسيهما هذا اللون .. وهو
مالم أرهما تفعله قط ! .. أما هو - البارون - فقد أضحي عابساً باستمرار
وكانتني جرحت شعوره ، في حين أنني لم أرتكب ما يسوؤهما ، بل لم
أنهس بكلمة واحدة يمكن أن تفسهما ! .. لا ، لا يمكن أن أكون أنا
السبب في تغيرهما . هما اللذان تغيرا .. تغير كل منهما بالنسبة للآخر ،
حتى ليخيل للمرء أنهما يدبران أمراً لا يخبروان على البوح به ، ولو فنيا

بينهما ! .. لقد أصبحا لا يتكلمان كما كانا يتكلمان أمس ، ولم يعودا
يضحكان ، وإنما تملكهما ضيق ووجوم ! .. لا بد أنهما يتغيبان مراراً
لا يريدان أن أعرفه .. ولكن ، لا بد لي من أن أعرفه .. بل لعلني أعرفه :
لعله ذلك السر الذي تغلق الأبواب في وجهي دونه دائماً .. هذا السر
الذي تبحثه الكتب . وتشرحه الأوربيت . عندما يغني الرجل والمرأة
وجهاً لوجه . وقد بسط أذرعهما . وعندما يتعانقان ويتبادلان ! ..
لا بد أنه من نوع ما حدث للعسة التي كانت تفتني اللغة الفرنسية .
والتي كان سلوكها مع أبي شائناً ، مما أدى إلى فصلها فيما بعد ! .. هذه
الأمر جميعاً تشابك .. إنني لأحس بهذا السر ، وإن لم أدر كنهه هذا
الإحساس .. إنني أتوق إلى معرفة هذا السر ! .. لكم أتوق إلى أن
أمسك بيدي ذلك المفتاح الذي يفتح أمامي كل الأبواب ! .. لكم أتوق
إلى اليوم الذي أشب فيه عن الطوق فلا أعود طفلاً يتفوق عنه كل
شيء .. ولا يعود ثمة تقرير أو خداع .. يجب أن أعمل الآن ، وإلا فإن
أعرف .. إلى الأبد ! .. لسوف أترع منهما هذا السر الخطير !

وتجمعت أساوره . فبدأ الغلام الخزيل . الذي لم يجاوز الثانية
عشرة ، كشيش طاعن في السن « وهو ماض على هذا النحو في تفكير
جدي دون أن يلقى نظرة واحدة على المشهد الذي كان ينسبط حوله
في ألوان زاهية : الجبال وقد اكتست بخضرة غاباتها ، والأودية تتسهم
للربيع الذي تأخر عن مواعده . لم يخفل مطلقاً بغير الوجهين المقابلين له :
فوق مقعد العربة . وكأنه كان يسعى إلى اصطلياد السر المختفي . في أعماق
عينيهما . كما يفعل صائد السمك حين يلقى بالشباك

على أنه لا يشحذ العقل مثل الشك الملتب ، وليس أدعى لفتح
الذهن الذي لم يستكمل نضوجه ، من غوامض تأثير هواجسه ! : ولا
يقصّل - أحياناً - بين النشء وبين ما نسجه عالم الحقيقة والواقع سوى
معبر صغير يجتازونه بدفعة من يد القدر ، فإذا الباب مفتوح أمامهم
على مصراعيه !

■ ووجد (إدجار) نفسه بغتة أقرب ما يكون إلى (المجهول) :
إلى السر الخطير ، منه في أى وقت آخر . كان يحسه - هنا - أمامه ،
ومع ذلك كان بعيداً عن متناوله مستعصياً على وعيه ؛ ولكنه برغم هذا
كله كان جدد قريب منه ! .. وأثاره هذا الإحساس الذي خلغ عليه
وغاراً ضافياً ، مباغتاً ، فقد أدرك : دون أن يفطن ، أنه قد بلغ نهاية
طفولته !

وكان صاحب السر الجالسان في مواجهته ، يحسان بمقاومة صامتة
لا قدرة لها على معرفة كنهها ، وما خطر ببالها أنها كانت صادرة عن
الغلام . وإن خيل إليهما أن العربية تضيق بثلاثتهم ! .. وأخذت العينان
اللتان يرانها أمامهما ، والحرارة القائمة التي تبعث من أغوارهما ،
تثير في نفسيهما اضطراباً وضيقاً ، فلم يجرؤا على الحديث إلا لما :
ولمأماً كانا يتبادلان النظرات . لم يعودا يتبديان إلى طريق ذلك
الحديث المرح ، الذي اعتادا تبادلته كثيراً من قبل . كانا قد أوغلا في
طريق الأسرار المحرقة ، حيث الكلمات المثيرة ، التي تضلّ فعل التزل
الطليع واللمسات الخفية - مجتمعين ! .. وكانا كلما هما بالعودة إلى

الحديث : اصطدما - في كل مرة - بـ «يدوه» الغلام المصير على صمته
في عتاد !

وكان هذا الصمت ثقباً على نفس الأم بنوع خاص ؛ فدخلت
ترمى الصبي من ركن عينيها في حذر .. واكتشفت من مسلكه - إذ زمر
شفتيه .. شيئاً بينه وبين زوجها عندما يكون منعلاً أو مغضباً ! .. وشق
على نفسها أن تضطر إلى تذكر هذا الرجل ، في نفس اللحظة التي تجمعها
فيها والبارون مغامرة غرامية ! .. كان الغلام ، بعينه المكتئبتين
الناحستين ، وبالثريص البادى على جبينه الناحب ، يبدو لها كشبح
عهد إليه أن يراقب ضميرها ، ولهذا لم تعد تطيق وجوده معها . في تلك
العربة الضيقة ، حيث لا تفصله عنها سوى عشر بوصات !

والتقى بصرها ببصر (إدجار) لحظة . فخلّص كل منهما عينيه
إذ أدركا أن كلا منهما كان يرقب الآخر لحظة . ولقد كان كل منهما
- إلى هذه اللحظة - يثق بالآخر ثقة عمياء . أما الآن فقد أصاب علاقتهما
شئ من التغير ، إذ شرع كلاهما يرقب الآخر ، ويفصل مصيره عن
مصيرد . وفي قلب كل منهما نحو صاحبه بغض خفي ، كان من الجدة
والغربة بحيث لم يجسرا على إظهاره أو الإفصاح عنه !

وتنفس ثلاثتهم الصعداء عندما وقفت العربية عند باب الفندق عائدة
بهم إليه . كانت نزهة جانبها الحظ .. ولقد أحسوا جميعاً بذلك ؛ ولكن
أحداً منهم لم يجرؤ على الجهر به ! .. ونزل (إدجار) من العربة قبل
الآخرين . وتعلّت أمه بأنها تعاني صداعاً ، ثم خرجت بالصعود إلى
غرفها ، إذ كانت متعبة ، وتوق إلى أن تنسى كل شيء .

البارون أجز الحوذى ، ثم ألقى نظرة على ساعته ، واتجه نحو الردهة غير حافل بالغلام الذى ظل واقفاً .. بل لقد مر أمامه بقامته المشوكة ، وخطواته الرشيقية - التى بلغ من إعجاب الصبي بها أن حاول بالأمس تقليدها - فسار فى طريقه لا يلوى على شيء . كان واضحاً أنه قد نسيه ، فتركه فى هذا المكان مع الحوذى والخيل كما لو كان غريباً عنه !

■ وأحسن (إدجار) كأن شيئاً تحطم فى كيانه . حين رأى صديقه يفعل هذا .. صديقه الذى أحبه إلى درجة العبادة . برغم كل شيء ! .. ودب اليأس فى قلبه عندما ابتعد البارون عنه مسرعاً ، دون أن يحف به طرف معطفه . ودون أن ينبس بكلمة واحدة له . هو الذى لم يرتكب خطأ ما .. ولم يقو على الاحتفاظ بشبانه الذى أشقاه كثيراً أن يحتفظ به حتى الآن ! .. وسقط عن منكبيه الواهين ثقل الكرامة المصطنعة ، فماد طفلان .. طفلاً صغيراً ، ناهياً ، كما كان بالأمس ، وكما كان دائماً من قبل . وجرى خلف البارون ، على الرغم منه ، يغطى سريعة مضطربة ، ووقف أمامه وهو يهم بصعود السلم ، ثم قال له بصوت متخفق وهو يجلس عبراته بمشقة : « ماذا ارتكبت فى حقلك حتى أنك لم تعد تعبرنى أى الثغرات ؟ ! .. لماذا تغيرت معاملتك لى ؟ .. ومما أيضاً ! .. لماذا تريدان دائماً إقصائى عنكما ؟ هل أضايكما ؟ هل صدر منى ما يعيب ؟ ! »

وارتجف البارون : فقد كان فى صوت الصبي شيء أخجله ، وحله على أن يتلطف إليه . ودخله إشتاق على الغلام البريء . فقال :

« إنك أحمق صغير يا (إدسى) .. لقد كنت اليوم عكز المزاج . وهذا كل ما فى الأمر . على أنك صبي جميل . وأنا أحبك كثيراً ! »

قال البارون هذا وهو يجذب شعر الصبي ملاطفاً . وقد حول نظره عنه بعض الشيء . ليتنادى منظر عينيه الراعيتين ، المغرورقتين ، المتوساتين ! .. وبدت له المهرجة التى كان يمثلها . شاقة . فقد أخجله - فى الواقع - أن يعجب ثوب هذا الصغير له . على هذا النحو غير اللائق . وآله سماع هذا الصوت الصبياني الذى تخنقه العبرات ، فقال فى عطف : « اذهب إلى غرفتك يا (إدسى) » وسيصفو الجو بيننا هذا المساء . كما سترى ! .. فقال الصبي : « ولكنك لن تدع أم ترسلنى إلى الفراش مبكراً .. أليس كذلك ؟ » .. فأجاب البارون مبتسماً : « بلى لن أدعها يا (إدسى) فاطمئن ! .. اصعد الآن إلى غرفتك ، أما أنا فينبغى أن أبذل ثيابى استعداداً للعشاء ! »

وذهب (إدجار) مغتبطاً أشد الغبطة . ولكن قلبه سرعان ما عاد إلى خفقانه العنيف .. فقد زاد عمره منذ أمس عدة سنوات ، ونزل على صدره الصغير خفيف غريب . هو : الشك !

وأخذ الصبي ينظر لحظة الاختيار الحاسم . وكان ثلاثهم جالسين حول المائدة حين دقت الساعة التاسعة . ولما لم ترسله أمه إلى الفراش ، ساوره القلق . ترى لماذا سمحت له اليوم بالذات بأن يبقى إلى هذا الوقت وهو الذى تمسك بعاداتها بكل دقة ؟ ! .. أليكون البارون قد وشى بما دار بينهما من حديث ، وأبلغها رغبته ؟ ! ..

لأذع لأنه أفضى لصديقه بكل ما كان في قلبه - بصراحة وثقة .. ولكن حين دقت الساعة العاشرة ، استأذنت أمه - فجاءة - في الانصراف ومن عجب أن (البارون) لم يبد أية دهشة لانصرافها المبكر ، ولم يحاول أن يسبقها كما كان يفعل دائماً . واشتد وجيب قلب الطفل بين جنيبه عنفاً !

وتظاهر إدجار بأنه لم يلاحظ شيئاً ، فبيع أمه بغير معارضة - ولكن عينيه زاعتا بغتة ، إذ فاجأ أمه وهي تلتقي إلى البارون نظرة باسمة من خلفه .. نظرة الشريك في مؤامرة تتصل بسر ما . لقد تخانه البارون ، إذن .. وهذا هو الذي جعلهما يفرقان في وقت مبكر ، كان هدفهما اليوم أن ينام الغلام مطمئناً هادئ البال حتى لا يضايقهما غداً .. وتمتم (إدجار) بصوت خفيض : « يا للنذل ! » .. فسألت أمه : « ماذا تقول ؟ » .. وأجاب وهو يعرض على شفتيه : « لا شيء ! » .

لقد أصبح له - هو الآخر - سر .. وكان سره هو : « الكراهية » . كراهية لا حد لها .. يكتبها لها .. معاً !

الفصل السادس

■ ثم بعد إدجار نهباً للقلق ، إذ غشيه - أخيراً - شعور وليد ، واضح المعالم .. شعور سافر بالغبض والعداء ! .. وبات يستشعر - وقد أيقن أنهما يضيقان به - متعة بالغة في وجوده بجانبهما ! .. بات يجد لذة في مضايقتهما ، وفي مواجهتهما بكل مافي عدائه المركر من شدة . وكان البارون أول من تعرض لهذه الروح الجديدة . فعندما تعطف على إدجار - حين هبط في الصباح التالي - بنحية ودية ، لم يتطلع الصبي إليه ، ولم يترك مقعده ، بل اقتصر على رد التحية بتور . وعندما سأله البارون عما إذا كانت أمه قد هبطت إلى الطابق الأرضي : أجاب في اقتضاب وهو ينظر إلى صحيفة كان يقرأها : « لا أعرف ! » .

واستبدت بالبارون الدهشة ، ما معنى هذا ؟ .. وهتف قائلاً : « إنك لم تحفظ الأيالة بنوم مريح يا إدجار .. أليس كذلك ؟ » .. وحسب أن مثل هذه العبارة اللطيفة ، كنفيلة بأن تعيد الأمور إلى نصابها ، كما كان العهد دائماً .. بيد أن (إدجار) أجاب في اقتضاب : « لا ! » .. عاد إلى الاستغراق في قراءة الصحيفة . وقال البارون وهو يهز كتفيه مبتعداً عنه : « يالك من غبي ! » .. ثم مضى في سبيله .

كانت هذه بداية المعركة ! .. فلقد أبدى (إدجار) لأمه بعد ذلك تأدباً قاتراً .. فرفض في هدوء أن يذهب إلى ساحة « النفس » ، عندما حاولت - عيهاً - أن ترساه إلى هناك . ونمت اثنتاسنة الصغراء واقتباس شفتيه ، عن أنه لم يعد يرتضى أن يخذعه الجاني ومالك أن قال في حياة

مصطنع ، وهو يحدق في عيني أمه : « أفضل أن أذهب للترهة معكما ! »
: فاستاءت أمه كل الاستياء من هذا الجواب . وبدا عليها الارتباك :
فتظاهرت بأنها تبحث عن شيء ما ثم قالت أخيراً : « انتظري هنا حتى
أتناول فطوري ! »

وانتظرت (إدجار) .. بيد أن شكوكه كانت ساحرة ، يقطر ،
إذ غدا يستشعر في قرارة نفسه شبهات تدفعه إلى تمحيص كل كلمة
ينطق بها هذا النمر يكتان . للبحث عما تنطوي عليه من توابخ خفية
أو عنادية ! .. وكانت هذه الشكوك تمنحه - في بعض الأحيان -
نظرة ناقية تهديه إلى الصواب فيما يتخذ من قرارات .. ومن ثم فإنه لم
يشأ أن ينتظر في الزدعة . كما طلبت إليه أمه - وإنما آثر أن يقف في
الطريق ، في موقع يستطيع منه أن يرقب كافة أبواب الفندق . لا الباب
الرئيسي للفروج وحده ! .. فلقد أحس بأن ثمة خدعة تدبر ، ومن ثم
عقده العزم على ألا يترك « غريميه » يفلسان ! .. واختبأ خلف كومة
من الخشب - في الطريق - على غرار الطريقة التي قرأ عنها في قصص
الهنود ! .. وضحك راضياً عن خطته : حين أبصر يامه تخرج بالنفس
من الباب الجانبي . بعد نحو نصف ساعة ، مسكة طاقة من الورود
الجميل ، والبارون الخائف في أعقابها !

وكان الاثنان في غاية المرح . لاشك في أنهما كانا سعيدين بإفلاتهما
منه . وإفلات سرهما أيضاً ! .. كانت الضحكات تتخلل حديثهما .
وهما يتأهبان للانطلاق في طريق الغابة . وحانت اللحظة المنتظرة .
فغادر (إدجار) منجأه ، وأجده نحوهما في هدوء . كما لو كانت المصادفة

وحدها هي التي قادته إلى هذا المكان . وأخذ يستمتع ، وفي تمهل ،
بما أحدثته المفاجأة في نفسيهما ! .. وكان الشريكان قد انزعجا بالفعل ،
وأخذوا يتبادلان نظرات مذهولة . وما لبث الصبي أن تقدم متناقل
الخطي . محاولاً أن يبدو طبيعياً . ودون أن يحول عنهما عينيهِ اللتين
كانتا نلمعان بهريق ساخر . وقالت أمه أخيراً : « أأنت هنا يا إدي ؟ ..
لقد بحثنا عنك في الفندق ! » .. فقال الصبي في نفسه : « يا للكذب
القاضع ! » .. على أن شفتيه لم تتحركا . فقد كانتا مغلفتين على سر
كراهيته !

وكان ثلاثتهم مترددين . وهم يرففون بعضهم بعضاً خلسة . على
أن المرأة المستاءة لم تلبث أن قالت صوت هادئ . وهي تعبت بأوراق
زهرة من أزهارها الجميلة : « هيا نمشي ! » .. وسرت في طاقق
أنفها رجفة خفيفة . وهي ظالمة كانت تتم لديها عن غضب مكبوت .
وظل (إدجار) يحدق في الهواء . كما لو لم تكن هذه الكلمات موجهة
إليه . ولم يتحرك من مكانه إلا حين شرع الآخران في السير . فانضم
إليهما . وحاول البارون أن يقربه على العدول عن متابعتها . فقال له :
« ستجزي اليوم مباراة في « النفس » .. أفلا تحب أن تشاهدها ؟ ! » ..
فرمته (إدجار) يازدهاء ، ولم يجيب على سؤاله . مكتئباً بمد شفتيه
كما لو كان يهم بالصغير ! .. وكانت هذه هي طريقته في إظهار
شعوره .. إذ كانت كراهيته الطاغية قد بدأت تكشف عن نفسها !

كان وجوده غير مرغوب فيه . ولذا ثقلت وطأة على النمر يكن
وحما يميز أن وقد ضم كل منهما قبضتيه

من حين إلى آخر ، بنظراته الساحرة ، فيسمعه يتسم بكلمات لا يجد جرأة على أن يواجه بها . كذلك كان يلاحظ - في غيطة شيطانية ! - غضب أمه المتزايد : وكيف أتيا وشريكها راحا يبحثان عن حيلة يتوسلان بها إلى إبعاده عنهما وتجنب أذاه !.. بيد أنه لم يتح لها أية وسيلة .. فقد كان عداؤه مستحكماً ، وخطته مرسومة بدقة لا تسعح لها أي مشقة !

وعلى حين غرة ، قالت الأم : « لنعد ! » .. فلقد أحسّت بأنها لم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وأن لابد لها من أن تعمل شيئاً « حتى لا تنفجر باكياً من هذا العذاب » .. وقال (إدجار) في هدوء : « هذا يدعو للأسف ، فإن الطقوس جميل جداً ! » .

وأدرك الشريك أن الصبي يسخر منهما ، ولكنهما لم يحرّوا على أن يقولوا شيئاً .. فقد تعلم هذا الجبار ، في يومين اثنين ، كيف يسيطر على نفسه . ولهذا لم يبد على أية قسمة من قسائم وجهه ما يشي بسخريته اللاذعة ! .. ووقفوا عائدتين دون أن ينطق أحدهم بكلمة طوال الطريق ، حتى إذا ما دخلت الأم إلى ابنتها في مخدعها ، أخذت تتخلى عن زانتها ، وتتشأ غيظها . فأثقت مظهرها وقفازها بحركة تم عن الاستياء : ولاحظ (إدجار) جلياً أن أعصابها محتاجة « وأن أمثال هذه الحركة تسرى عنها ، في حين أنه كان يشهد انفجاراً ، فيقي في الغرفة ليدركي جذوة هياجها ! .. وأخذت تروح وتجيء ثم تجلس .. ونظرت المائدة بأصابعها أحياناً . وأخيراً ، فزت قائلة : « لنعد ! » .. أنت أقدم الشعور ! .. ولم أنت قدر ! .. ألا تستحي في هذه السن من أن تعطي أمك العداوة ؟ .. هذا

والواقع أن الصبي لم يكن يقول أو يفعل شيئاً . ومع هذا فقد أخذ ضيقهما به يتزايد ، ولم يعودا يحتملان نظراته الفاحصة ، وعينيه اللتين رطبتهما الدموع المناسبة ، وانقباضه الذي كان يصد كل محاولة منهما للتقرب إليه . وفجأة . قالت الأم في غضب . وقد ضاقت بأبلغ الضيق بهذه الرقابة التي لا تنهى : « سر أمامنا ، ولا تلاحقنا ، فإن هذا يثير أعصابي ! » .. فأطاع إدجار أمر أمه « بيد أنه كان لا يلبث ، بعد كل بضعة خطوات ، أن يستدير .. وكان ينظرهما كلما خلفا من ورائه ، مصوباً إليهما نظرة شاملة ملؤها التحجب والمكر . ناسجاً حولهما شبكة من الكراهية والبغض كانا يحسان أنها تطبق عليهما من كل جانب .

■ كان صمته العدائي ينخر سعادتهما كالسوس . كما كانت نظراته الفاحصة تغفل الكلمات على شفتيهما . ولم يعد البارون يحرّو على المضي في مغالته للأُم ، بل إنه أحس - والسخط يملأ جوارحه - بأن هذه المرأة تغلت من يديه مرة أخرى ، وأن الشهوة التي أشعلها بعناء كبير قد أخذت تخمد بسبب خوفها من هذا الصبي المنطقل البغيض ! .. كانا دائماً يحاولان استئناف الحديث ، ولكن الحديث كان لا يلبث أن ينقطع في كل مرة . ولم يسع الثلاثة - آخر الأمر - إلا أن يسيروا صامتين ، قانعين بسماع خفيف الشجر ووقع خطواتهم الممل !

.. كانت البغضاء قد تملكتهن جميعاً ! .. وكان الصبي - الذي أحس بغدر صاحبيه - يستمرئ غضبهما العاجز ويستعذبه .. هذا الغضب الذي كان يتجمع حول كيانه الصغير ، المهين ! .. وأخذ يرمق البارون

الشكل ؟ .. فراح ينسق شعره دون أن يجيب بكلمة ! .. وأثارها هذا الصمت البارد الذي اقترن بابتيامة واهنة ساخرة ارتسمت على شفتيه ، فودت لو أنها انتهالت عليه لظما : وما لبثت أن صاحت فيه : « اذهب إلى غرفتك ! » .. فقد أصبحت لا تحتمل وجوده على مقربة منها ، وابتنسم (إدجار) ، وخرج !

* * *

■ لكم أصبحا يرتجفان أمامه ! .. لكم أصبحا يخافان وجودهما معه . والتعرض لنظراته الصارمة تفسرها . وكانت عيناه تزدادان وميضاً كلما اشتد ضيقهما . فكان اغتباطه هذا - في حد ذاته - مثيراً للخوف ! .. كان (إدجار) يعذب خصمه الأعزل بقسوة الأطفال ، وهي قسوة فيها شيء من وحشية الحيوان ! .. وظل البارون قادراً على كظم غضبه . لأنه لم يكن قد نأس من الوصول إلى حيلة جديدة مع الصبي . ولأنه لم يكن يفكر إلا في هدفه . أما الأم فقد أخذت تفقد سيطرتها على نفسها ، شيئاً فشيئاً . وكانت تنشد لغيظها تفرجاً . في السعي لكشف بعض عيوبه . فكانت تقول له بغلظة : أثناء تناول الطعام : لا نعبث بشوكتك ! .. أنت غير مؤدب ! .. أنت لا تستحق أن تجلس مع الكبار ! .. ولكن (إدجار) لم يزد على أن يبتسم لهذه الملاحظات : .. كان يبتسم ورأسه مائل قليلاً نحو الجانب الآخر . فقد كان يعرف أن هذه الصيحات إن دلت على شيء ، فلأنما تدل على اليأس ! .. ولزدهاء أن يرى الشرير يكتشف أن أمه عما كان في نفسيهما . على هذا النحو ! .. أما هو ، فكانت نظراته هادئة كما لو كانت نظرات طبيب . ولو أن

هذا حدث من قبل . لكن من المحتمل أن ينجح إلى الغلظة لإثارة غضبهما ، ولكن المرة بعد كثيرة ! . وفي وقت وجيز . عندما يكون كارهاً . مريضاً . وقد تعلم الآن أن يقنع بالصمت : فصار دائماً صامتاً . صامتاً !

ولقد ظل مثابراً على صحته المرهق حتى بدأت أمه تصرخ من وطأة هذا الصمت عليها . إذ لم يعد في طوقها احتمال هذه الحال . فلما نهضت والبارون - بعد تناول الطعام - أراد (إدجار) أن يقيمهما في حركة طبيعية ، لا تتم عن تعمد . وعندئذ انفجرت الأم بقتة .. نسيت كل تحفظ وقذفت بكل ما كان في صدرها ! .. كان وجود الغلام على هذا النحو الوقع يعذبها عذاباً أليماً . فانتفضت - في عنفوان غيظها - انتفاضة الجواد من ذئع الدباب . وقالت : « ما بالك تلاحقني دائماً كطفل لم يتجاوز الثالثة من عمره ؟ .. لست أحب أن تكون باستمرار في أعقابي ، فليس للأطفال مكان في مجالس الكبار . يجب أن تعرف هذا .. أشغل نفسك لحظة بما يسليك .. اقرأ شيئاً ما . أو افعل ما تريد . ولكن دعني قليلاً . فإنك تثير أعصابي إذ تحوم حولي بهذا الوجه المكتئب ، المقيت ! »

وهكذا انتزع منها الاعتراف آخر الأمر .. وظل (إدجار) يبتسم ، بينما بدت الأم والبارون مضطربين . ثم استدارت تبغي الابتعاد ، وقد أغضبها من نفسها أن كشفت عن استيائها ! .. أما (إدجار) ، فلم يزد عن أن قال : « إن أبي لا يجب أن أتثره بمجردي .. فلقد أخذ مني وعداً بأن أكون حذراً . وأن أبقى دائماً إلى جانب أبي ! »

وضغط على كلمة (أوى) « إذ كان قد لاحظ أن لها وقعاً شديداً عليهما ، مما أوحى إليه بأن لأبيه شأنها ما في هذا السر ؛ وأن له — ولا بد — على الشريكين سلطاناً خفياً ؛ مادام مجرد ذكر اسمه يوقعهما في الضيق والاضطراب ! .. ولم يجيبا بشيء في هذه المرة أيضاً ، بل استسلفا في صمت ! .. وسارت الأم مع البارون جنباً لجنب ؛ وخلفهما (إدجار) : بيد أنه لم يكن يحس مهانة الخدم « وإنما كان على العكس قوياً . صارماً ، يقظاً كالخارس .. كان - وهو الذي يتجهل كل شيء - أقوى من خصميه اللذين عقدتا خنصرهما على السر الدفين !

* * *

الفصل السابع

■ كان الوقت يمر سريعاً ، فلم يبق على رحيل البارون سوى أيام - قرر أن يفيد منها ما استطاع . وكان والسيدة يدركان ألا جدوى من مقاومة عناد الصبي الغاضب . فعلمدا إلى وسيلة من أتعس الوسائل .. وسيلة عجزية .. تلك هي أن يلوذا بالحرب . ليثلثا ساعة أو اثنتين من جبروت الصبي . ومن ثم قالت الأم لـ (إدجار) ، وهما يقفان في بهو الفندق بعد يومين : « اذهب إلى مكتب البريد ، فسجل هذين الخطابين .. » وكان البارون لدى الباب - يتحدث إلى أحد الخوذين - فتناول (إدجار) الخطابين ، وهو في ريب من الأمر .. كان يعرف أن خادم الفندق يؤدون - عادة - هذه المهمة ، فهل تراهما عاددا إلى التآمر ضده ؟ .. وتردد لحظة . ثم سأل أمه : « وأين تنتظرني ؟ » .

.. هنا ..

. أو ألقه أنت ؟

.. أجل ..

.. إذن ، فأنت لن تخرجي .. ستنتظرين هنا في البهو حتى أعود ؟

كان يشعر بتفوقه ، ومن ثم مخاطبها بلهجة الأمر ! فقد تغيرت أمور كثيرة منذ أمس الأول . وما لبث أن اتجه إلى الباب وفي يده الخطaban فلما مر بالقرب من البارون ، خاطبه للمرة الأولى - منذ يومين - قائلاً : « لن أعيب إلا ريثما أحل هذين الخطابين إلى مكتب البريد .. » . ولما سوف تنتظرني أمي . فأرجو ألا تغادرا الفندق قبل عرجتي ..

وراء هذا السر ، فإذا قدر له أن يثد إليه ، انتقل إلى النضوج وأصبح رجلاً ! .. ولكن ، ما السبيل إلى معرفة هذا السر ؟ .. لم يكن في وسعه أن يفكر - للاهتمام إليه - يعقل صاف - فإن الغضب والحقد اللذين تملكاه بعد أن رأى أمه وصاحبه يفتنان منه ، أخذاً بمضائه ويعكران صفوه ذهنه !

وانطلق يعدو في اتجاه الغاية - حتى إذا بلغ الطريق المغمم ، الذي لا يتعرض فيه لأخطار أحد - ترك دمعه ينساب غزيراً - كماوياً ! .. وراح يهتف في غيظ ملتبس : « كاذبان ! نادعان ! خيئان ! .. » كان مضطراً إلى أن يقذف بهذه الشتائم حتى لا يجم على صدره فتخذه ! .. وكانت الموم ، وفاد الصبر ، والغضب ، والكراهية التي حفلت بها هذه الأيام « الكبيرة » ، والتي احتملها بجهد طفل يخال أنه أصبح من الكبار اليافعين .. كانت هذه المشاعر تنفجر في صدره - فتنبسب في دموع ! .. ولكن هذه التوبة كانت آخر نوبات البكاء في طفولته .. التوبة التي تغلق باب الطفولة ! .. ومن ثم فهي أعنى التوبات وأقساها ! .. كان يستسلم للبكاء في استعذاب - كالمرأة - للمرة الأخيرة - فأخذ يبكي ، في هذه اللحظة من لحظات الهياج - راثياً لكل ما كان في نفسه من ثقة ، وحب ، وعقيدة ، واحترام .. كان يرى طفولته بأسرها !

وعندما عاد إلى الفندق في النهاية ، كان إنساناً آخر . كان هادئاً ، رزيناً . وسعى أولاً إلى غرفته - حيث غسل وجهه وغيبه في عناية ، كي لا يتيح للمذنبين أن يستمتعا برؤية آثار « دموعه » ! .. ثم قبع متأهباً للانتقام ، فراح ينتظرهما وهو رابط الجأش - مسيطراً على أعصابه !

وكان البور مزدحماً بالناس حين عاد البارون .. كان بعض الجلوس ينبعون الشطرنج - وبعضهم يقرأون الصحف .. والسيدات منهمكات في الثرثرة - أما الصبي - فقد جلس بينهم لا يثير حراكاً ، وقد شحب وجهه ، وزاغت نظرائه . وإذا نفذ البارون وأمه خلال الباب ، بدا عليها الضيق حين رأياه على غير توقع منهما ! .. وما أن هما بأن ينطلقا ببعض المعاذير التي ابتكرها قبل وصولها ، حتى استوى واقفاً أمامهما في هدوء - وقال في تحد : « سيدي ، أحب أن أقول لك شيئاً » ..

وتعلم البارون عاجزاً .. كان كبحرم فوجئ متلبساً بجريمته - فقال : « حسناً .. نعم - بعد قليل .. بعد لحظة ! » .. ولكن (إدجار) صاح بخدة ، وبصوت تعمد أن يرفعه حتى يسمعه من كانوا في البور : « بل أريد أن أكلمك الآن .. لقد كان مسلكتك مشيناً ، إذ كذبت علي .. كنت تعرف أن أي تنتظرنى .. »

وقطعت عليه الأم حديثه - إذ رأت الأنتظار تتجه إليها : فأسرعت نحوه قائلة : « إدجار ! » .. ولكن (إدجار) فطن إلى أنها تريد أن تغطي صوته بصوتها - فازداد حدة - وصاح بأعلى صوته موجهاً كلامه للبارون : « إنني أكرر لك .. على سمع من المال - إنك كنت دنياً حين كذبت علي - وإن هذا ذنب شائن ! »

وشحب وجه البارون .. وعلقت به أنظار القوم ، وأخذ بعضهم يتغامزون . وعندئذ لكزت الأم بقبضها الطفل الذي كان يرتجف انفعالاً - وصاحت فيه بصوت مختنق : « تعال إلى غرفتك فوراً - وإلا صغعتك أمام الجميع ! »

يبد أن (إدجار) سرعان ما استرد هدوءه . وشعر بالامتياز من
تهوره على هذا النحو .. فقد كان - في الواقع - ينبغي أن يثير البارون
ببعض يظل هو متالكا نفسه .. ولكن غضبه غلب إرادته !

واتجه إلى السلم بخطى متثاقلة . بينما قالت الأم للبارون متعجبة :
« اغفر له وقاحته يا سيدي . فنت نعرف أنه عصبي » .. وأزعجتها
النظرات التي كان القوم يوجهونها إليها في شيء من السخرية .. فلم
يكن أبهى إلى نفسها من أن تعرفن الحقيقة . ومن ثم أدركت أن
لا بد لها من أن تشبه برزاتها وثبات جنانها . ولم تشأ أن تتوارى عن
الأنظار فوراً ، ومن ثم سارت - أولاً - إلى حارس الباب ، وسألته
عما إذا كانت ثمة خطابات باسمها . وتحدثت إليه في بعض أمور
تافهة ، ثم صعدت إلى غرفتها . وكان شيئاً لم يقع .. ولكن القوم
شيحوا - إذ أولتهم ظهراً - بموجة من الحمس والضحك المكتوم !

■ وأخذت تصعد السلم متباطئة . فما كان يزعجها قدر المواقف
الخطيرة .. بل إنها كانت - في الواقع - تخشى أن تتعرض للصبي
الحساب . فما كان في وسعها أن تنكر ذنبها . كما أنها كانت تهاب
نظرات ابنها .. النظرات الجديدة . الغريبة . غير المألوفة . التي
أودت بطمأنينتها ، وشلت فكرها .. وأوعز إليها الخوف أن تتذرع
باللين . إذ حدثت أن الصبي الثائر لن يلبث أن يغدو أقوى منها .
إذا هي عمدت إلى العنف !

وفتحت الباب في لطف بالغ . فإذا الغلام يجلس في الغرفة ساكناً
وقد سيطر على أعصابه . ولم يكن يبدو في عينيه أي خوف ، ولا أي
شعور بالذنب . وإنما كان يبدو معتداً بنفسه تمام الاعتداد !

وقالت أمه . متذرة ما استطاعت بلهجة الأمومة : « ما البذي
دهاك يا إدجار ؟ .. لقد خجلت لك ! .. كيف تسنى أن تبلغ بك
القحة حياءً يجعلك تتخذ مثل هذا المسلك الشائن نحو شخص من الكبار ؟
لا بد أن تذهب فوراً فتعذر للبارون ! .. وأرسل (إدجار) بصره
خلال النافذة . فالتفت : لا ! .. وكأنما كان يوجه قوله إلى الأشجار
المواجهة له في الخارج ! .. وأخذ العجب يساور الأم بما بدا عليه من
ثقة بنفسه . فقالت : « ماذا بك يا إدجار ؟ .. أراك قد تغيرت تماماً ،
حتى أتق لا أكاد أعرفك ! .. لقد عهدتلك دائماً ابناً عاقلاً . رقيقاً ،
يسهل التفاهم معه .. فإذا بك تنقلب فجأة في سلوكك كمن أصابه من
من الشيطان ! .. ما الذي يوغر صدرك ضد البارون ؟ .. لقد كنت
تحبه كثيراً . وكان من ناحيته لطيفاً معك . طيلة الوقت ! »

- أجل .. كان لطيفاً معي . لأنه كان يسعى إلى التعرف بك !
ووعزتها هذه العبارة ، فقالت : « ما هذا الغباء ؟ .. كيف
أمكن أن تتصور شيئاً كهذا ؟ .. ما الذي يتوغل بخاطرك ؟ .. » فتهتف
الصبي في غضب : « إنه كاذب . خادع .. وليست أفعاله سوى حيل
وخبث .. لقد سمعنا أن يعرف بك . فأخذ يتودد إلي ، ووعدها بأن
يتخلى كلياً .. وليست أفعاله بخلاف ذلك .. ولا لماذا
يتودد إلي ؟ .. على أنه ولا بد ينبغي أن تكونت الأخرى .. شيئاً ،

وإلا ما اتخذ هذا المظهر المهذب ، اللطيف .. إنه رجل سيئ ، ويكذب كثيراً .. ألا راقبيه ، وسوف ترين كيف يتخذ مظهراً غير مظهره الحقيقي .. أواه ! .. لشدة ما أبغضه .. هذا التمس ، الكتوب ، النذل !! »

... ويحك يا (إدجار) .. كيف تنطق بمثل هذه الألفاظ ؟

وشعرت بحيرة واضطراب . فلم تدرك بماذا نجيب بعد ذلك .. ولتبه في أعماقها إحساس أخذ يوحى إليها بأن الصبي على حق .. بينما استطرد (إدجار) قائلاً : « إنه نذل ، ما في هذا من ريب .. وكان جديراً بك أن تتبني هذا بنفسك .. وإلا ، فلماذا تريه غشائي ؟ .. لماذا ينهرب مني ؟ .. إنه يفعل ذلك لأنه يعرف أنني أحسن نواياه ، وأنتي أكشف خبئه ! »

.. كيف تتكلم بهذا الشكل ؟ .. كيف تنطق بهذه الألفاظ !

كان هذا كل ما استطاعت أن ترد به على قوله . فقد كان عقلها عاجزاً عن التفكير . ولم تجد شفتها سوى هذه الكلمات ترددها : وفجأة ، غشياً جزع مروع ، إذ أعيأها في الواقع أن تعرف أيهما أولى بأن تخشاه وترتاب فيه ، (البارون) ، أم الصبي ١٢ .. ورأى (إدجار) أن إنذاره قد أثر في أمه ، فدعا به الأمل في أن تنحدر إلى صفه ، فتخالفه في عداوته للبارون . ومن ثم اقترب منهما متدلاً . وأمسك بذراعها ، وبدا صوته ناعماً بتأثير عواطفه الجياشة : « إنك ولابد قد لاحظت بنفسك يا (ماما) سوء نواياه .. لقد غير حاله تماماً .. أنت التي تغيرت ، لا أنا .. لقد أوغر صدرك علي . لا لشيء

إلا ليخلو بك ! .. إنه ولا يدري أن يغور بك ، ولست أعلم بماذا وعدك ، ولكن الذي أعرفه أنه لن يني بوعده . ألا صدقتي .. إن من يخدع إنساناً واحداً خليق بأن يخدع الناس جميعاً . فهو رجل شرير لا ينبغي الاطمئنان إليه ! »

وخيل لأم (إدجار) أن هذا الصوت الرقيق ، الخفيف بالعبرات ، كان ينبعث من فؤادها هي . فلقد راودها منذ الأمس إحساس كان يوحى إليها بهذه الكلمات ذاتها ، في إلحاح مطرد ! .. على أنها خبجت من أن تعترف بأن أيها كان على حق . ففعلت ما فعله الكثيرون من مثيلاتها ، إذا شئنا التخلص من إلحاح شعور ممض .. لجأت إلى الغلظة والجفاء ، فقالت : « إن الأطفال لا يدركون هذه الأمور ، فليس لك أن تنقم نفسك فيها ، بل يجب أن تصلح من مسلكك .. وهذا كل شيء ! »

فاسترد وجه (إدجار) وجوده ، وقال في لهجة جافة : « ليكن ما تريدون .. لقد نبتك وكفى ! »

— إذن ، فلست تريد أن تعتذر للبارون ؟

— بلى .. لا أريد !

● وكانا يقفان وجهاً لوجه . فأحس بأن سلطانها إزاءه قاصر فقالت : « حسناً ، ستناول الوجبات وحدك في غرفتك ، ولن تجلس إلى مائدتنا حتى تعتذر .. سأعلمك كيف يكون السلوك اللائق .. اذهب فالزم غرفتك ولا تبرحها حتى

فأكنى بالابتسام .. كأنما غدت هذه الابتسامة الماكرة جزءاً من شفتيه .. لكنه كان في قرارة نفسه مستاء لمسلكه .. لكم كان غيبولا حين تركه عنان انفعالاته يفلت منه مع البايون ، ومن ثم أراد أن يتفادى الوقوع في مثل هذه الخلطة مع تلك الكاذبة .. أمه !

وغادرت الأم المكان مسرعة . دون أن تلتفت إليه .. فقد كانت تخشى نظراته الثاقبة . الفاحصة .. لقد غدا هذا الصبي مبعث ضيق لها منذ أصبحت بأن عينيه قد فتحتا .. بأنه يلاحظها بكل ما لا تريد معرفته أو سماعه ! .. كان يرغب أن ترى ضميرها .. ذلك الصوت الداخلي .. يفصل عن ذاتها . ويتخذ شكل هذا الولد .. ولدها هي . الذي تراه سائراً إلى جانبها ، يذهبها ويسخر منها ! .. كانت كل مينة هذا الولد في حياتها . حتى الآن . تنحصر في أنه مجرد حلية تتزين بها . أو لعبة تتلعب بها . أو شيء ما تخصصه لغيرها .. وقد يضربها أحياناً . ولكنه برغم هذا جزء من حياتها . وهو يكمل لحن هذه الحياة ! .. ولكن هذا الشيء تحركه أخيراً . وللمرة الأولى ، وأخذ يعترض طريق إرادتها ، ويحاول أن يثبثها .. ومن ثم أصبحت تستشعر نوعاً من الكراهية ينمو في نفسها كلما فكرت في ابنها !

على أنها ببنا كانت تهبط درجات السلم . وهي متعبة بعض الشيء سمعت ذلك الصوت الصبياني - الذي خالت أنه ينبعث من صدرها ذاته - يتردد في أذنها : « إنك لتحسنين سمعاً أو أخذت حملاً مني ! .. » ولم تستطع أن تخفق هذا التذير الذي راح يتردد في أعماقها ! ولعلت مرة أمام عينيها ، انعكس طبقها على صفحاتها . فأخذت تتأمله

بنظرة متفحصية . عميقة ، تلمست طريقها إلى أغوار نفسها : إلى أن رأت شفيتها تنفجران عن ابتسامة خفيفة . وتستديران . كما لو كانتا توشكان أن تقلقا بكلمة ساعرة ! .. وكان الصوت يدوي في أعماقها دون انقطاع . بيد أنها هزت كتفيها : كما لو كانت تطوح بهذه الوسواس بعيداً عنها ! .. ثم ألقت على المرأة نظرة أخيرة . وجمعت أثاث ثوبها . ونزلت بخطى ثابتة كالمسحوق الذي يمدق مائدة القمار لتخرج قطعة ذهبية معه !



■ حل خادم الفندق الطعام لـ (إدجار) في غرفته - حيث كان حبيباً - ثم انصرف مغلقاً لباب خلفه . وما لبث (إدجار) أن سمع صرير القفل خفيض ثائراً . لاشك أن أمه هي التي أمرت بحبسه على هذا النحو . وكأنه حيوان مسجون ! .. وطافت برأسه أفواج مبهمة من مشاعر التساؤل والاستقصاء والاستنتاج : « ترى ما الذي يجرى في الطابق الأسفل وأنا جالس هنا ؟ .. أية مؤامرة تراها يدبرونها ؟ .. وهل ينكشف الآن ، وفي غيابي . ذلك السر الكبير .. السر الذي أحس به عندما أكون بين الكبار ، في كل آن . وفي كل مكان ! .. ذلك السر الذي يوصدون عليه أبوابهم بالليل . والذي يخبئونه وراء أحاديث تافهة ، حين أقبل على مجالسهم في النهار ! .. ذلك السر الذي ظل - منذ أيام - جد قريب مني . حتى لا أكاد ألمسه . ولكنني مع ذلك أعجز عن إدراك كنهه ! .. أي جهد فائتي أن أبذنه في حصيل كشفه ؟ .. كم أخذت من كتب - من مكتبة أبي - ولم أجدها في حصيل كشفه ؟ .. هذه

الأشياء المشوقة ، غير أنني لم أفهمها ! .. لابد أن ثمة خاتماً ينبغي فسه أولاً إذا شئت أن أنفذ إلى هذا السر .. وقد يكون الخاتم في نفسي ، وربما كان في نفوس الآخرين .. لكم سألت الخادم ، ورجوتها أن تفسر لي فقرات من تلك الكتب ، فسخرت مني ! .. ما أظن أن يكون المرء طفلاً ، متعطلاً إلى المعرفة ، ولكنه لا يملك أن يسأل الناس ! .. وما أشنع أن أكون - بهذا الوضع - أضحوكة للكبار ، ومخلوقاً ناهياً لا تنفع من ورائه ! .. على أنني لن ألبث أن أحتدى إلى هذا السر .. إن قاي يحدثنني بأني ولابد مهتد إليه .. لقد أصبحت أقبض على طرف منه ، ولن يهدأ لي بال حتى أعرفه بأكمله ! »

وأصاخ السمع ، إذ خيل إليه أن ثمة قادماً يقترب . بيد أنه ما لبث أن تبين أن رجلاً خفيفة هبت ، فداعبت أوراق الشجر ، وهزت الأذناب ، وكسرت بهذا صفحة ضوء القمر التي كانت مسدلة عليها . فما لبث أن عاد إلى الاسترسال في تأملاته :

« لا يمكن أن يكون الأمر الذي يديره خيراً ، وإلا ما انساق في الأكاذيب الدينية إلى هذا الحد ، ليقصيان عنهما .. لا شك أنهما الآن يسخران مني .. إن الخبيثين معتبطان - ولابد - إذ تخلصا مني أخيراً ، ولكن الذي يضحك أخيراً ، يضحك كثيراً ! .. ما أغباني إذ ارتضيت لنفسي هذا السجن » فأنحت لها فترة ينعم فيها بالحرية . بدلا من أن ألزمهما كظلهما ، وأراقب كل حركة من حركاتهما ! .. إنني أدرك أن الكبار قليلو البصر والحيطة ، فهم يتوهون أننا نقل أطقالا ملوأل حياتنا ، وأنها إذا آوينا إلى مضاجعنا في الليل . لا نلبث أن نغظ في نوم

عميق .. وينسون أن في وسعنا أن نتظاهر بالنوم . ونحن منتبهون لكل ما يحدث حولنا .. بل يتسوّن أن في وسعنا أن نبدي بلاهة ، ونحن أشد ما نكون ذكاء ! .. لقد حدثت عندما وضعت عمي طفلاً - منذ عهد غير بعيد - أن حرص الجميع على أن يبدوا أمامي دهشة ، وكأن الأمر مفاجأة لهم ، في حين كنت أعرف أنهم ظلوا يرتقبونه زمناً طويلاً ، إذ سمعت أبي وأبي يتحدثان عنه في إحدى الليالي - قبل ذلك بأسابيع - وهما يحسبان نائماً ! .. وفي هذه المرة أيضاً .. سأفاجئ هذين للشقيين .. آه ! لو استطعت أن أسترق السمع خلال الباب .. وأن أرقبهما خلسة بينما هما يظنان أني في سجن حصين ! .. ألسنت أحسن صنماً إذا أنا دقت الجرس .. ستأتي .. إذ ذاك .. الخادم ، وتفتح الباب لتسألني عما أريد .. كذلك سيفتح الباب لو أنني أثرت جلبة أو كسرت إناء ، وعندئذ .. أستطيع أن أنتهز الفرصة : فأنفذ إلى الخارج . وأذهب لأراقبهما . ولكن ، لا .. لا أحب هذا : فلا ينبغي أن يعرف أحد المعاملة المهينة التي ألقيا منيها .. إنني راض بها ، فسوف أكيل لها غداً بالكيل نفسه ! »

■ وارتجف (إدجار) إذ تنامت إلى سمعه ضحكة نسوية منبعثة من اللطابق الأسفل - وساءل نفسه : أليست هذه ضحكة أمه ؟ .. حسناً ! لتضحك هازقة منه ، هو الغلام المسكين الذي يجلس وراء باب موحد حين يكون حضوره أمراً غير مرغوب فيه . هو الإنسان الذي يلقي في أحد الأركان دون ما تكرات ، وكان الباب المغلق !

وأطل خلال النافذة في حذر .. لا .. لم تكن أمه صاحبة الضحكة :
لقد انبعثت من واحدة من يضع فتيات ماجنات لم يكن يعرفهن ،
انصرفن إلى مداعبة شاب . وفطن إذ ذاك إلى أن نافذته لم تكن على
ارتفاع كبير ، بل إن المسافة بينا وبين الأرض كانت قصيرة . ومن
ثم خطر له على الفور أن يقفز من النافذة . ويذهب لمراقبتها وهما
يحسبان أنهما وحيدان . بمنأى عن بصره ! .. وتمكنه عبثة صافية ،
وتغيل إليه أنه يمسك بين يديه بالنسر الخطير المثير ، سر الطفولة ! ..
وصاح به هاتف داخلي كان يرتجف لهفة في أعماقه : « هيا أسرع
بالخروج ! » .. ولم يكن ثمة خطر يخشى ، فالطريق خال من المارة .
وفي ملرفة عين ، قفز من فوق حافة النافذة ، فانبعث لارتطام قدميه
بأرض الشارع صوت خفيف لم يسمعه أحد .

كانت المراقبة والترصد خلال اليومين الماضيين ، مبعث متعة
في حياته ، ولكنه بدأ يحس الآن بشيء من التوجس يمازج هذه المتعة ،
وهو يطفو خلفه حول الفندق على أطراف قدميه . متجنباً في حذر
أن يتعرض لأي ضوء .. واسترق النظر .. أولاً .. إلى داخل قاعة
الطعام ، ملصقاً حده في حرص بزجاج النافذة .. كان مكانهما المألوف
خالياً ! .. وأخذ يتنقل من نافذة إلى أخرى . مرصداً بصره خلال كل
منها ، دون أن يجرؤ على التسلل إلى داخل الفندق . خشية أن يلتقي بهما
وجهاً لوجه في إحدى الردهات . ولما لم يلحقهما في أي مكان ، بدأ
البأس يداخله ، ولكنه ما لبث أن لمح بقعة ظل شخصين لدى الباب ،
فاضطرب وأسرع إلى التراجع . مخفياً في الظلام . كانت أمه خارجة

في حجة البارون . وقد أصبح رفيقها لا يفارقها ! .. إذن . فقد وصل
في الوقت الملائم .. ترى قيم كانا يتكلمان ؟ .. ولم يستطع أن يتبين
حديثهما . إذ كانا يتكلمان بصوت منخفض . بينما أخذت الريح تبرز
الشجر بعنف . على أنه ما لبث أن سمع ضحكات من أمه .. ضحكات
لم يكن له بها عهد .. ضحكات عصبية ، مشغلة ، حادة ، غير مألوفاً ،
وكانما كان ثمة من يدغدغ ملمس الضحك لديها .. كان ضحكها
يبدو وكأنه منبث من شخص غريب عنه . فينذر بالشر ! .. ولكنها
كانت تضحك ، فليس ثمة شر إذن .. بل ليس هناك ما يوحى بأنهما
يتخبان عنه أمراً على شيء من الأهمية أو الغرابة ..
وشعر (إدجار) إذ ذاك بشيء من خيبة الأمل !



■ ولكن لماذا يفرجان من الفندق ؟ ! .. وإلى أين يذهبان الآن ،
وحدهما ، في جوف الليل ؟ .. كانت في الجو نادر رياح شديدة
صاخبة .. وأظلمت صفحة السماء بغتة ، بعد أن كانت - منذ لحظة -
صافية ، مشرقة بالضوء .. وكانما طرحت يدا خفية حجياً على وجه
القمر . فإذا الليل كثيف الظلمة ، حتى ليجد الإنسان مشقة في تمييز
الطريق . ولكن كوكب الليل لم يلبث أن تخلص من غلالته القائمة هذه
ونحمر المكان بفيض من الضوء النضى . وطال تعاقب الضوء والظلمة ،
وكان الكون غاية ماجة . تتفتح حيناً وتسفر حيناً آخر ! .. وإذا عاد
إلى السماء صفواها . لمح (إدجار) وسط الطريق منبع البارون وأمه
سائرين . أو قل أنه لمح طيفاً وحيداً يتجهس في ظلمة الليل يسيران

متلاصقين ، كما لو كانا نهباً تخوف داخلتي يهز مشاعرهما هزاً عتيقاً !
تري إلى أين يذهب هذان الشريكان الآثمان ؟ .. كان نبات الصفصاف
يتهدد ، والغاية تتململ في حركة قلقة مضطربة ، وكان صائداً ضارياً
بروح ويحيى - بين أعوانه - في المكان ، طليقاً من كل قيد !
وقال (إدجار) في نفسه : « سأتيهما » فلنهما لن يستطيعا سماع وقع
خطواتي وسط صخب الريح وحفيف نباتات الغابة .

وأخذ يرقبهما وهما يهبطان الطريق المنحدر الواسع : وسار في
أعقابهما خفية ، متقللاً من شجرة إلى أخرى ، ومن ظل إلى آخر :
كان يقبعهما في مباشرة وعناد ، حامداً للريح صنيعها ، إذ كانت
لا تمكنهما من سماعه . لاعتناً إياها - في الوقت نفسه - لأنها حرمتها من
سماع حديثهما ! .. ودانخه يقين بأنه لو استطاع أن يتيقن وجهيهما ،
لعرف السر !!

ومضيا في سيرهما غير مباليين بشيء ، وهما يحسان بالسعادة
نخلوتهما هذه في الليل الطويل النابض بالحركة : مستسلمين لنشوتهما
الغياضة ، دون أن يدور بخلد هما أن في الظلمة من كان يتقن كل خطوة
من خطواتهما عن كثب ، وأن ثمة عينين مليئتين بالنضول والبغض ،
لا تتحولان عنهما لحظة !

وما لبثا أن توقفا فجأة ، فتوقف (إدجار) كذلك على القور ،
والصق يلحدي الأشجار « وقد اعتراه سخط مشوب بالخوف : فإذا
يحدث لو أنهما نكصا على أعقابهما عائدين إلى الفندق - ولم يستطع أن
يبلغ غرفته قبل وصولهما !؟ .. لسوف يحسر كل شيء إذ ذاك ..

سيعرفان أنه يرقبهما خفية : وميقتد كل أمل في أن ينتزع منهما السر
الذي يهجو إليه بكل قوته ! .. على أنهما لاحا مترددين .. وكان - لحسن
حظله - يمتأ عن ضوء القمر ، فلم يكن يوسعهما أن يتيقنا ، بينما كان
هو يراهما يجلا .

وأشار البارون بيده إلى درب صغير مظلم يؤدي إلى السهل ، حيث
كان ضوء القمر أقل تألقاً ، إذ لم يكن يصل إليه من الأشعة الفضية
سوى خيوط تتخلل الغاية ، مناسبة في وهن نحو الطريق . وتساءل
(إدجار) : « ترى لماذا يريدان أن يهبطا من هنا ؟ » .. وبدأت أمه
وكأنها رافضة . أما البارون فقد أخذ يتكلم . واستطاع (إدجار) أن
يقيق من خلال حركاته أنه يلح . وعرا الصبي خوف ووجل ، ما الذي
يغنيه هذا الرجل من أمه ؟ .. لماذا يريد هذا التعس أي يستدرجها إلى
الظلام ؟ .. وبغتة ، قفزت إلى عقله ذكريات حية مما كان قد قرأه في
كتبه عن الاغتيالات وحوادث الخطف والجرائم الغامضة .. لا بد أنه
يريد قتلها « وأنه كان يبعده لكي يستدرجها إلى هذا المكان المنعزل !
ألا يجدر به أن يستغيث ، وأن يصيح : « القاتل ! »

وهم بأن يصيح فعلا ، ولكن شغفه الجافتين لم تخرجا أي صوت .
وتوترت أعصابه لفرط الانفعال .. ولم يعد يقوى على البقاء واقفاً ،
فبحث عن شيء يستند إليه . وأجفل إذ تقصف أحد الأغصان تحت
يده . واستدار الطيفان وجلين ، وأرسلا بصريهما في ظلام الغابة ،
محاولان أن يستيقنا ما كان هناك .. وازداد (إدجار) التصاقاً بالشجرة ،
وثبت يديه إلى جانبيه . وجد في مكانه « قاتل الظلام » وبدأ

انصرفت من جديد . ومع ذلك لم يبد على الشريكين -- برغم السكون --
أنيهما قد استردا غلبتهما .

وما لبثت لأد أن قالت : نعم ! .. ووافق البارون ، إذ كان
من الأكثر قلقاً . ومن ثم عدت أفرجهما في خطى وليدة . وقد انصق
كل منهما بدهن . واستنعر (إنجر) لألمهما النسي لذة ! ..
واحتف على شربة . فتمويه . حتى أدى كفيه . متسللاً خلال الشجر ،
إلى أن اجتاز الغابة . ثم أخذ يعدو بأقصى سرعته . حتى تقطعت أنفاسه
من الإعياء . ولم أن بلغ القندق ، حتى صعد السل في فترات قليلة .
وكان مفتوح (جنبه) في ثقب الباب لحسن المظ . مآذرة في القفل ،
وفي لحظة واحدة كان داخل الغرفة . فاستلقى على فراشه . وبقي ساكناً
نارح دقات . إذ كان قلبه ينبض بقوة في صدره . وكأنه مغرقة ندى
جوارب لغرس . وكان . . . على أنه ما لبث أن استجمع قواه . فنهض
وأصك قواعه إلى النافذة . مرتقباً عودتهما .

● بعد حادثة . . . لاشك أنهما كانا يسيران ببطء شديد . ومضى
يرقب الطريق في حذر . خلال النافذة المغشورة بالظلام . وما لبث أن
لاحظ أنه . . . رويداً . رويداً ، وقد لمعت ملابسهما في ضوء القمر
كانا يسيران كالحيتين يتحركان في هذا الضوء المسائل إلى الحفرة .
وما لبثت نفسي أن عاد بمائل نفسه مرة أخرى : ألم يكن هذا الرجل
قاتلاً حقاً ؟ . . . أنه يكن تسله وراءهما سبباً في الحيلة دون وقوع حادث
رهيب . . . وما لبث أن تبين بوضوح . . .



واستدار انظمتان وجلين ، وأرسلا بصيرهما في تلام
القابة ، بحساولان أن «سببنا ما كان غنساك . .

الفصل الثامن

■ استدار (إدجار) عن النافذة لاهتاء يرتعد من الخوف ! إنه لم يكن في يوم من الأيام أقرب إلى مثل هذا السر . منه اليوم . لقد كان يحسب أن عالم الانفعالات والمغامرات المثيرة .. عالم الاغتيالات والمخادعات . الذي اوتاده في كتيبه : لا وجود له إلا في مملكة الأقاصيص والأحلام . بعيداً عن الواقع المحسوس : الملموس . أما الآن . فقد بدا له بغتة أن ذلك العالم موجود في قلب عالمنا هذا الخفيف . فاحتر له كيانه كله اهتزازاً عنيفاً .. من يكون هذا الرجل الغامض الذي دخل بغتة في حياتهما المداغة ؟ أهو حقاً قاتل ؟ أهو حقاً يبحث عن الأماكن المنعزلة ويريد استدراج أمه إلى حيث يخيم الظلام ؟ لا بد أن أمراً خفيفاً كان يوشك أن يقع ، فما العمل ؟ لا بد من أن يكتب إلى أبيه في صباح غد ، أو يرسل إليه برقية . ولكن : ألا يمكن أن يقع الحادث في هذا المساء بالذات ؟ إن أمه لم تصعد بعد . إنها ما تزال مع ذلك الغريب . مع ذلك الرجل الأمين !

وكانت تفصل بين باب الغرفة والباب المؤدى إلى الردهة مسافة ضيقة ، لا تتجاوز حجم خزانة الثياب .. فاحتفى الصبي في ذلك المكان المظلم ، خائف ستارة . ليرقب عودتهما المتأخرة ! كان قد قرر ألا يتركهما بعد الآن وحدهما ، ولو للحظة واحدة ! .. لقد انتصف الليل وخلت الردهة ، وخفت ضوؤها ؛ فل بعد بضئها سوى مصباح واحد .. وبدت له الدقائق ساعات .. وأخيراً ..

الجير . وكان يرسم على وجه أمه شعور بالغبطة : لا عهد لها به . أما البارون فكان على العكس ، يبدو مستاء .. لا شك أنه كان مستاء لإخفاقه فيها دبره !

وازدادا اقتراباً ، بيد أن طيفهما لم يفترقا إلا عندما صارا على بعد خطوات من الفندق .. ترى هل سيرفعا أنظارهما إلى الطابق الذي يقف فيه ؟ .. كلا ، لم يتطلع أحدهما نحوه .. وقال الصبي لنفسه : « لقد نسيتي ! » .. وطفى عليه حتى جاثج ، خالطه إحساس خفي بالانتصار .. وعاد يقول في نفسه : « أما أنا ، فلم أتسكما .. إنكما محسبان .. ولا شك - أتي نائم ، أو أنني لست موجوداً على الإطلاق . ولكنكما لن تلبثا أن تعرفا أنكما غطتان .. فلسوف أراقب كل خطوة من خطواتكما ، حتى أظفر من هذا الوغد بالسر .. السر الرهيب الذي لا بدعني أنام .. سأفرض خلفكما .. فلست غافلا ولا نائماً ! »

واجتاز القادمان باب الفندق ، وإذ دخلا - واحداً خلف الآخر - اختلط ظلالهما الطويلان المنبسطان على الأرض لحظة ، قبل أن يتلاشيا في ضوء الباب .. ثم أفاض القمر ضياءه على قناه الفندق ، فبدا كأنه سهل من الجليد واسع الجنبات :

* * *

درج السلم ، فأرهف سمعه .. لم تكن مشية شخص يريد الإسراع في العودة إلى غرفته . وإنما هي خطوات متافلة ، مترددة ، أشبه شيء بخطى السانحة .. وبذلك الخطى التي تجذب بها طريقاً وعراً !

وكانت تسمع من حين لآخر هسات . يتبعها توقف متكرر ! فكان (إدجار) يرتعد من الانفعال : هل هما القادمان آخر الأمر ؟ .. أهو ما يزال معها ؟ إن الصوت الخافت بعيد جداً ، بيد أن الخطى التي مازالت مترددة غدت أكثر وضوحاً .. وفجأة سمع (البارون) يقول هامساً بصوته البغيض . شيئاً لم يفهمه . أعقبه على الفور جواب أمه تقول : « لا ، لا ، ليس اليوم » .. وارتجف إدجار أكثر فأكثر . إنهما يقتربان ، وسيسمع حتماً كل شيء ! إن كل خطوة يخطوانها صوبه — بالغة ما بلغت من الصغر .. تضاعف من نبضات قلبه ! لكم بدا له صوت الرجل الذي يقبضه قبيحاً لا يطاق ، وهو يلحف متذللاً : « خلى عنك القسوة . لقد كنت فائقة الجمال هذا المساء ! » .. فأجاب : « لا ، لا ، لا ، لا ، لا ، لا أستطيع .. اتركني ! »

وتولى الصبي الرعب : إن أمه تنهد بشدة . ترى ماذا يريد (البارون) منها ؟! لماذا هي خائفة ؟! إنهما يقتربان من الباب . وهو خلفهما يرتعد في مخبئه ، ولا يفصله عنهما أكثر من ذراع ، ولا يخفيه عن ناظرهما سوى الستار الرقيق . إنه الآن يسمع صوتيهما قريباً من أنفاسه : « تعالى ، يا ماتيلد ، تعالى ! » .. ومرة أخرى سمع الغلام أمه تنهد . بيد أنها تنهد الآن تنهداً واحداً .. إن مقاومتها تضعف !

ترى ما الذي يحدث ؟ .. وواصل الاثنان السير في الظلام فمرت أمه أمام عرقها . لكنها لم تدخل . إلى أين يستدرجها (البارون) ؟ لماذا لم تعد تتكلم ؟ هل أعطاهم مخدراً . أم هو يضغط على حنجرتها ؟ .. إن الغلام ليؤكد بين لحظه الأفكار .. وفتح الباب . بيد مرتعشة ، بضع سنتيمترات . إنه يراهما الآن في الردهة التي يغمرها الظلام . وقد احتوى البارون الأم بين ذراعيه وأخذ يجذبها في رفق . وهي تبدو مستسلمة ! .. حتى وقفا أمام غرفة الرجل . يوحسب الغلام في وجل أنه يريد إدخالها بالقوة . وأنه سيرتكب جرمه الآن ! .. ففتح الباب بحركة وحشية . واندمع نحو البارون وأمّه ! .. رأت الأم (شيئاً) يخرج بغتة من الظلام متطلقاً صوبها .. فصاحت . وبدا كأنه انحنى عليها ! .. وأسندها البارون بشفة ، غير أنه أحس في تلك اللحظة بقبضة صغيرة على وجهه ، تسحق — رغم وهنها — شفتيه ، وتلتصقهما بأسنانه .. كما أحس شيئاً يشبث بجسمه كالقط ! .. وإذ ذاك ترك الأم وقد تملكها الرعب فانطلقت مبتعدة قبل أن تعرف حتى من المهاجم ! .. بينما حاول البارون — دون أن يرى شيئاً .. أن يرد اللطائف التي تنهال عليه ! .. كان الصبي يعرف أنه أضعف من خصمه . لكنه لم يوقف التزال . لقد حان الوقت أخيراً كي يثأر لحبه الطعين ، وينفث كل البغض الذي استجمعه في قلبه . إنه يضرب خصمه بقبضتيه الصغيرتين ضربات عمياء ، وقد اصططكت أسنانه في هياج وجنون ! .. وإذ عرفه (البارون) وقف في مواجهته مقبض النفس = هو أيضاً — بالبغض لهذا « الجاسوس » الذي عكر صفو الأيام الأخيرة من حياته .. والذي

حال بينه وبين الفوز بالصفقة التي شرع في اقتنابها ! .. وكان الغلام يضرب بغلظة ، كيفما اتفق .. وزفر غيظاً ، لكنه لم يترك المعركة . ولا استغاث بأحد ! .. وظل دقيقة في عراكه الصامت وسط الرعدة المظلمة . وشيئاً فشيئاً ، استبان البارون أن هذه المعركة بينه وبين غلام لم يكتمل بعد . هي معركة (مضحكة) ، فهم بلطمة لطمة تبعده عنه ! .. بيد أن الغلام إذ أحس بأن عضلاته تخور . وأنه سيهزم بعد لحظة . عض في هياج وحشي ، اليد القوية التي أرادت أن تمسك برقبته ! .. فصاح البارون -- دون قصد -- صيحة مختلفة . وجذب يده من فم الغلام .. وإذ ذاك غم إدجار الفرصة فهرع إلى غرفته . وأغلق الباب وراءه !

لم تطل معركة نصف الليل هذه أكثر من دقيقة ! ولم يسمع أحد -- سواء من الجانب الأيمن أو الجانب الأيسر -- شيئاً . حدث كل شيء في سكون ، كما لو كان في حلم ! .. ومسح (البارون) بمنديل يده الدامية . وهو يجبل بصره في الظلام قلقاً ؛ لم ير أحداً حدث ، ولكن كان هناك في السقف ضوء مضطرب بدا له كأنه يسخر منه !

■ حين صبحا (إدجار) في صبيحة اليوم التالي . أشعث الشعر . نهباً لألم مضى غامض . سأل نفسه في حيرة : « أهو حلم ؟ .. كابوس ثقيل خفيف ؟ ! » . إنه يحس بدوار شديد . ويبدو مضطرباً . وإذ نظر إلى نفسه : أذهله أن يلحظ أنه ما زال بملابسه ! فتهضر مسرعاً واتجه نحو المرأة : .. بيد أنه تراجع من شدة الخوف حين رأى وجهه شاحباً :

متبدلاً تماماً . وجبينه متورماً وبه خطوط حمراء ! .. ثم استعاد هدوءه بعناء . وتذكر في مرارة ما حدث : تذكر المعركة الليلية في الرعدة . وجودته الخاطئة إلى غرفته ، كما ذكر أيضاً أنه في حى الفرع الذي اقتابه كان قد ارتقى على فراشه دون أن يخلع ملابسه . متأهباً للهرب ! ولا شك أنه بعد هذا استسلم لنوم مضطرب تجدد فيه مشهد الرعدة ، ولكن بصورة مختلفة . أشد رعباً .. إذ أن رائحة الدم كانت تصعد إلى أنفه !

أما في الطابق الأسفل من الفندق فكانت ثمة حظي تادق آدم الأرض ، وأصوات ترتفع في الهواء -- كما لو أن طيوراً غير مرئية تصعد صفحة السماء ! . وقد أخذت أشعة الشمس تنساب إلى غرفة الغلام . لا يد أن النهار قد تقدم . ونظر (إدجار) إلى ساعته ، فبين أنها تشير إلى منتصف الليل . لقد فاتته في شدة انفعاله أن يلاحظ ! وأن عجزه عن ضبط الوقت تماماً لما يضاعف الاضطراب الذي يستشعره من جراء جهله بما حدث يوم أمس بالضبط ! .. وتهضر فاغتسل وأصلح من شأن نفسه في عجلة ، ثم هبط إلى الطابق الأسفل وهو نهب لمرّة نفسية . ولشيء من الإحساس بالإنهم !

كانت أمه في قاعة الطعام . جالسة بمفردها إلى المائدة المألوفة ، وتنفس إدجار الصعداء حين رأى أن غريمه غير موجود في القاعة . وأنه لن يرى ذلك الوجه البغيض الذي لطمه أمس بقيضته . بادفع من الغضب . ومع ذلك فإنه وهو يقترب من المائدة لم يكن واثقاً بنفسه . وحيا أنه تحية الصباح . لكنها لم تجيب .

لأنها تركز بصرها في المنظر الخارجى المعتد أمامها . وقد بدت شاحبه غاية الشحوب ، وعيناها مقلقتان قليلا . وأسفل أنفها يهتز تلك الاهتزازة التي يعرفها إدجار . والتي تشي باضطراب أعصابها ! .. وعرض الغلام شففيه : إن هذا الصمت يزعجه . فهو لا يعرف إذا كان قد أصاب (البارون) بالأمس إصابة خطيرة . وإذا كانت أمه على علم بالمعركة الليلية ١٢ ! وكان هذا يؤله أشد الألم . فبدا له وجه أمه .. الذي ظل ثابتاً ... مقلقا إلى حد أنه لم يحاول مجرد النظر إليها . خشية أن يبرز عيناها بغتة وراء جفنيها المغلقين . وتحققا فيه !

ولم ينطق بكلمة واحدة . أو يجرؤ على أية حركة .. حتى لقد حرص أشد الحرص على ألا يحدث أى صوت عند وقع قدميه ، أو إعادته إلى مكانه من المائدة ! .. وإن راح يلقى من حين لآخر خفية ، ببعض النظرات على أصابع أمه التي تداعب الملعقة في حركة عصبية تم عن غضب عني ؟!

وظل جالسا على هذه الصورة ربيع ساعة . في انتظار شيء لا ينجى ! .. لم تفد أمه بكلمة واحدة تخرجه من اضطرابه ! وعندما نهضت ، وهي ما تزال غير مقلقة بالا لوجوده ، لم يكن يدرى ماذا ينبئ له أن يفعل : أيبقى جالسا وحده إلى المائدة ، أو يصحبها ؟ على أنه نهض آخر الأمر وتبعها في ضعة . بينما تظاهرت هي بأنها لا تراه ! . وأحس الصبي أنه مضحك في سيره على هذا النحو في أثر أمه .. فأخذ يقصر خطاه حتى تتضاعف المسافة التي تفصله عنها .. إلى أن دخلت غرفتها غير عابثة به . وأغلقت الباب في وجهه !

ماذا حدث ؟ إنها وهو لم يعودا يعرفان أحدهما الآخر ! لقد فارقتهم طمأنينة الأمس . أليس غططا في مهاجمة البارون على هذا النحو ؟ وهل هما يعدان له عقاباً أو تحقيراً جديداً ؟ إنه يلمح أن شيئاً رهيباً يوشك أن يحدث ! كانت تبدو فيما بينه وبين أمه بواور عاصفة تقترب . وكانت الصاعقة تبدو محتومة .. لقد أنفق أربع ساعات متتفلا بين قاعات الفندق يحمل ثقل هذا الإحساس الذي ناعت به رقبته الغضة . حتى إذا حان موعد الغداء جلس إلى المائدة في ضعة وذلة !

ومرة أخرى حيا أمه ! إنه في حاجة إلى قطع هذا الصمت المكثف عن أنيابه . الجاثم فوق صدره . الخيم على حياته كسحابة قاتمة ! .. لكن أمه لم تجب هذه المرة أيضاً . ولم تنظر إليه كذلك ! وأحس إدجار في وحل جديد بأنه يواجه غضباً مقدرراً . ومركزاً . لا عهد له به من أمه : إن العلاقات التي نشأت بينهما إلى اليوم لم تكن سوى ثورات غضب ترجع أكثر ما ترجع إلى حالات عصبية . وكانت مرعان ما تزول بلاطفة أو إهتسامة . أما هذه المرة فيبدو له جلياً أنه قد أثار على نفسه في قلب أمه شعوراً دفيناً . وهو الآن يرتعد أمام تلك القوة التي أيقظها من مرقدها !

وهكذا تناول طعامه على مضض . إنه يقض بشيء صلب حتى ليكاد يخنق ! وأمّه تبدو كما لو أنها لا تلاحظ شيئاً من كل هذا . مرة واحدة أبدت ما ينم عن شعورها بوجوده . حين نهضا فاستدارت كما لو كان ذلك بطريق المصادفة . اتفاقاً . في وقت : .. إدجار : .. إلى نى كلاماً معك .

لم تقل ذلك بلهجة التهديد - بل قالت في ثبات وهدوء - إلى حد أن إدجار استشعر رعدة تميز كيانته ، كما لو أن حلقة محكمة وضعت حول عنقه .. لقد أذلت كبرياءه ، فتبع أمه إلى غرفتها ككلب مصفوع !

ظلت أمه صامته بضع دقائق - حسبها نحو (ساعة) - لفرط ما كان يعانيه من ألم محض ! .. كان يسمع خمس ساعاته - وضحك طفل في الخارج ، ونبضات قلبه تدق سراعاً داخل صدره - وكانت هي أيضاً تحس بانفعال شديد - فكانت كلما خاطبته تتجنب النظر إليه - وتقدير له ظهرها ! .. وابتدرت به قولها :

.. لا أريد أن أتكلم عن مسلكك أمس - إنما فضيحة يجعلني أن أفكر فيها ، ولنسوف نتحمل تبعاتها ! أما الآن فأريد أن أقول لك شيئاً واحداً : منذ اليوم ليس لك مكان بين الكبار ! لقد كتبت الآن إلى أبيك ليجعل لك رائداً ، أو يكل شأنك إلى قسم داخل في أحد المهادن حتى تتعلم السلوك الحسن ! فلست أريد أن أتعذب بسببك ..

كان إدجار واقفاً مطأطئ الرأس - وقد أحس أن ذلك ليس سوى مقدمة وتمهيد للأمر الجوهري الذي ينتظره في قلق !

وأردفت الأم : « والآن سندب على الفور للاعتذار إلى البارون ! »

ارتجفت فرائص إدجار .. يبد أنها لم تسمح له بمقاطعتها - بل استطردت : « لقد سافر البارون اليوم ، وستكتب له الخطاب الذي سأمليه عليك ! »

لونغش (إدجار) مرة أخرى - لكن أمه قالت في صلابة : « لا معارضة ! إليك الورق والحبر : اجلس ... »

نظر إليها إدجار وقد تصلبت عيناه خضوعاً لقرار لا رجعة فيه ! .. فإنه لم يكن قد رأى أمه في أي وقت مضى قوية حاسمة إلى هذا الحد - ثم عراه الخوف فجلس وتناول القلم - وأخفى رأسه على المائدة - الخنعة كبيرة - بينما أخذت أمه تمل عليه : التاريخ في أعلى .. هل تكتب ؟ .. ترك سطرًا .. حسن :

(سبدي) .. اترك سطرًا آخر .. علمت بمزيد الأسف (هل أنت مستمر ؟) .. علمت بمزيد الأسف أنك غادرت (سيمرنيج) ، وأنا لهذا مضطرب لأن أضمن خطاي ما كان ينبغي أن أفعله بشخصي ، أي (أسرع قليلاً - لا ضرورة لتحسين خطك) - أي أنني أرجوك قبول أسئتي على مسلكي بالأمس - فإني كما قالت لك أي ناقة من مرض خطير - وما أزال سريع الانفعال - ولهذا فإني كثيراً ما أوى الحبة قية - فأسلت في بعض الأمور مسلماً أندم عليه بعد قليل ! ..

كان إدجار متحنياً يظهره نحو المائدة - فاعتدل بقوة ، واستدار : لقد استغيضت كبريائه .. فهتف : « لن أكتب هذا - لأنه غير صحيح ! »

وصاحت أمه مهددة (إدجار) :

.. ليس صحيحاً ! لم أفعل شيئاً أندم عليه - لم أفعل شيئاً أندم عليه - وإنما مررت فقط لإغاثتك عند طاعتك القوي ! ..

شحبت شفتي الأم . وتمررد أسفل أنفها :

— تقول إني استغثت ؟ أنت مجنون !

انتفض (إدجار) غضباً فنهض بغتة واقفاً . وأجابها : « نعم لقد استغثت في الردهة . مساء أمس . عندما وضع يده عليك وصحمت بصوت عال : « اتركني . اتركني » . حتى لقد سمعت صياحك وأنا في غرفتي ! »

— أنت تكذب ! .. فما كنت قط مع (البارون) في الردهة . وإنما صحبني فقط حتى أول السلم ..

وإذ سمع إدجار هذا الكذب الجريء خيل إليه أن قلبه يوشك أن يتوقف عن النبض . ولم يدر ماذا يقول .. ثم نظر إلى أمه بعين فاحصة وجابهها :

— ألم ... ألم تكوني ... ألم تكوني في الردهة ؟ وهو ... وهو .. ألم بأخذك بين ذراعيه ، ألم يضربك بقبضته بشدة ؟

ضحكت ضحكة فائرة جافة .. وأجابته : « كنت نعم ! »

وكان هذا أكثر مما يحتمله الغلام أو يتوقعه ! كان يعرف أن الكبار يلجأون إلى أساليب غير صحيحة للهروب من الحقيقة . وإلى أكاذيب وخدع ملتوية .. أما إنكار الأشياء الحقيقية تماماً . في غير حياء أو خجل ، فذلك ما أثار ثأرته وأهاج نفسه !

— وهذه الكلمات الدامية .. أهي حلم أيضاً ؟

— وكيف لأحد أن يعرف من أصابتك . ومع من تشاجرت ؟..

على أنني لا أريد جدالاً .. عليك الطاعة . ولا شيء غير ما .. اجلس . واكتب .

وكانت شديدة الشجوب . وتجد عناء في الاحتفاظ ببيتها وهذوها . وفجأة . انتثر في أعماق (إدجار) شيء .. قيس أخبر انبعث من بينه .. وبهت إذ رأى الحقيقة تثبت على هذا النحو . وكأنها لا تزيد في قيمتها عن عود ثقاب عتوق ! .. وسرت في جسده قشعريرة .. وعندما تكلم أخيراً . بدا كل ما قال دامياً . موجعاً . وانحزاً :

— آه . كل هذا عرض لي في الحلم ! .. حتى ما جرى في الردهة ! .. هذه الكلمات الدامية .. وترهتكما بالأمس وحيدتي في ضوء القمر . ووجهه في أن يحوطك على سلوك الدرب المتحذر .. لعاني حلمت بكل هذا أيضاً ! .. أو ظننت أنني أرفض البقاء سجيناً في غرفتي كطفل صغير ؟ .. لا . لست أبله بالدرجة التي تغاليها ! .. إني أعرف ما أفعل !

وأشاح عنها في صلف . وإذا رأت الأم ابنها يقاومها على هذا النحو خرجت عن هدوئها . فصاحت وقد أربد وجهها بالكرامية . وجاش غضبها : « هيا .. اكتب قوراً .. وإلا .. » .. فقال بصوت انشوى على التحدي والاستنارة : « وإلا ماذا ؟ »

— وإلا خير بئس كما يضرب الطفل العتيد !

فاقترب منها خطوة . وأطلق ضحكة ساخرة . وإذا ذاك صفعته على وجهه . فصاح كشخص أشرف على الخرق : وانبعث في أذنيه طنين غريب . وأخذ يطوح قبضتيه به على قعر هدي .. وأبقى

أمام عينيه خيط من نور أحمر .. واستمر يضرب بقبضتيه كيفما اتفق ..
ثم أحس بأنه أصاب شيئاً ناعماً .. أحس بأنه يديه أصبحت وجهاً ..
وسمع صرخة !

وردته هذه الصرخة إلى وعيه .. إلى الحقيقة .. فندب .. بغتة - إلى
ما كان يفعل .. وشعر بما كان أبعد الأمور عن أن يتدفعه .. فندب
ضرب أمه ! .. واستبد به الألم .. والحزن .. والخوف .. واستأزمت
به رغبة جامحة في الهرب .. والاختفاء .. بل تحنى لو ابتلعته الأرض !
وإن هي إلا لحظة .. حتى قفز نحو الباب .. وهبط السلم مسرعاً .. ثم
غادر الفندق .. وانطلق يعدو في الطريق .. لما لو كان في أعقابها حماد
حائق بطارده !

● ووقف أخيراً .. بعيداً .. وقد أدركه الإعياء .. فاستند إلى جذع
شجرة .. وكانت ساقاه ترتجفان .. وأنفاسه منهكة .. فقد لاحظ
حول فعلته .. وراح الذعر والاستنكار يغتصمه .. ويزل كيانه في
عنف عتوم .. ترى ما الذي ينبغي أن يفعل بعد هذا ؟ .. أين يلتصق
المأوى ؟ .. وشعر بالوحدة الخيطة به .. برغم أنه كان في الغابة التي
أنشأها .. وعلى مسيرة ربع ساعة من الفندق .. وخيل إليه أن ما من شيء
يشعر به : أو يكثر ثله .. بل كانت كل شيء يبدى له العداء ! ..
لقد غدا وحيداً .. لاسند له .. حتى الأشجار التي أحاطته أمس
بهمساتها الخنون .. قست فجأة .. وبدأت ظلالتها متخفزة للانقباض
عليه ! .. ولكن .. كم من أمور ترتقبه : أشد من هذا قسوة ووجوداً !



فاستند إلى جذع شجرة .. وكانت ساقاه ترتجفان ..
وأنفاسه منهكة .. فقد لاحظ حول فعلته

وأحس بخور .. إذ وجد نفسه وحيداً وسط عالم واسع ينهله ..
لا ، لن بقوى على احتمال كل هذا .. وعلى احتماله وحده ! .. ولكن
بمن يلوذ ؟ .. إنه ليخشى أباه الغضوب . السريع الانفعال . الذى لن
يتورع عن طرده فوراً .. وهو لا يبغي العودة إلى أمه ! .. وشعر برغبة
فى المضى فى ركوب الأخطار وخوض المجهول . لاسيما وقد بدا له أنه
لن يقوى على رؤية وجه أمه . دون أن يذكر أنه صفعها !

وتذكر إذ ذاك جديته .. تلك الجدة العجوز . الطيبة القلب .
الرقيقة الجانب . التى دلتته منذ طفولته . والتى كانت تدافع عنه دائماً
كلما تعرض .. فى البيت - لعقاب أو ظلم ! .. إذن . ليخفي عندها
فى (يادن) - بالقرب من (فيينا) - ريثما يكتب إلى أبويه معتذراً ..
وأشعره ربيع الساعة الذى قضاه فى أول عزلة له . بالهوان والذلة .
إلى درجة جعلته - وقد خال نفسه وحيداً فى هذا العالم - أعزل من
التجربة والمعرفة . بلعن اعتزازه بذاته .. هذا الاعتزاز الذى ينفذ
فى نفسه شخص غريب لم يلبث أن غرر به -

ولم يعد يبغي سوى أن يظل الطفل الذى كانه من قبل .. الطفل
المطيع . الصبور . المجرد من هذا الصلف الذى أصبح يراه تنيفاً .
مزرياً ! .. ولكن . كيف يذهب إلى (يادن) ؟ . كيف يقطع هذه
الأميال التى تفصله عنها ؟ .. وجذب محفظة فتده الحديدية - التى
لا تفارقه - من جيبه . ثم حمد الله حين وجد بها قطعة النقود الذهبية
الجلدية ذات العشرين (كوروتا) - التى متحيا يوم عيد ميلاده -
محفوظة بلعائنها وبريقها .. كان قد أمسك حتى الآن عن أن ينشفيها ..

وكان فى كل يوم . يثبت من وجودها داخل المحفظة . واغبط
لرؤيتها . أليس غتباً بفضلها ؟ .. وفى رفق ينم عن عرفان بالجميل جعل
يفكرها بمئذيله حتى غدت فى ثالث الشمس الصغيرة !

ولكنه لم يلبث أن جزع . إذ خامرته فكرة جديدة .. هل تكني
هذه النقود ؟ .. إنه كثيراً ما سافر بالتقطرات . ولكن لم يخطر بباله
من قبل أن هذا السفر يقتضى ثمناً . ولا سأل مرة عن مقدار هذا الثمن .
أهو (كورون) واحد . أم مائة (كورون) ؟ .. وتبين - لأول
مرة - أن فى الحياة أشياء لم يفكر فيها من قبل .. وأن للأشياء الكثيرة
التي عاش بينها . التى اعتاد أن يتناولها بأصابعه وأن يلعب بها . قيمة
ذاتية . ومغزى خاصاً ! .. وفطن - وهو الذى كان منذ ساعة فقط
يتصور أنه يعرف كل شيء - إلى أنه مر بعدديد من المشكلات والألغاز
دون أن يلقي بالاً إلى واحدة منها . وأن بصيرته الصغيرة تخونه . ولما
يخط بعد سوى خطوات قليلة فى معترك الحياة !

واشدت تردده . وتعمرت مشيته . عندما اقترب من المحطة . كم
من مرة فكر فى الحرب على هذا النحو . وكم من مرة هم بأن يقذف
بنفسه فى حدم الحياة ليصبح إمبراطوراً . أو ملكاً . أو جندياً .
أو شاعراً ! .. ولكنه الآن . وقف ينظر فى خوف ووجل بالغين .
إلى مبنى المحطة الصغير . الصارخ اللون . القائم إلى جانب القضبان
الحديدية .. ولم يعد يفكر إلا فى شيء واحد . هو : هل تكني العشرون
(كوروتا) لإيصاله إلى بيت جدته ؟

وتأمل القضبان الحديدية اللامعة . وتأمل

البصر .. وألقي المحطة خالية من الناس أو تكاد . فأتيت وجلا إلى لفافة التذاكر . وسأل بصوت خافت .. حتى لا يسمعه أحد - عن تين تذكرة إلى (بادن) . وأطل عليه من خلف النافذة المعتمة ووجهه ضئيل الدهشة ، وهو يلقى نظرة بائسة - خلال عديمي نظارته - على هذا الغلام البادي الارتباك ، ثم سأله الموظف : « تذكرة كاملة ؟ » .. فأجاب (إدجار) في غير صلف أو غرور . وإنما في خوف من أن يكون الثمن مرتفعاً جداً : « نعم » .

— ستة كورونات .

إذن . أعطني تذكرة من فضلك !

وماء يده -- مغتبطاً - إلى الرجل بقطعة النقود اللامعة . فالتفت إليه . وتناول ما تبقى منها . قطعاً من النقد الضعيف .. وأحسن (إدجار) بأنه غدا مرة أخرى غنياً إذ باتت في يده قطعة الورق المقوى الضمحية اللون . التي تكفل له الحرية . وفي جيبه قطع النقود ذات اللون الصامت ! ! وعرف من لوحة المواعيد أن القطار يمتلئ بعد عشرين دقيقة ، فانزوى في أحد الأركان .. وأخذ ينتظر . وكان على الرصيف بضعة أشخاص : ينتظرون مثله . ولا يخفون بشيء . بيد أن انصي المضطرب خالط ينتظرون إليه .. ويبدأ له أنهم جميعاً في دهشة لرؤية طفل يسافر بمفرده ! .. بل وخيل إليه أن مرآه يشي بالذنب الذي اقترعه !

وتنفس الصعداء عندما طرق سمعه - آخر الأمر - صوت قادم من بعيد . أخذ يزداد شدة كلما اقترب من المحطة .. كان صوت القطار

انفتى سيحمله إلى العالم ! ولم يتبه - إلا بعد أن ركب القطار - إلى أن تذكرته من تذاكر الدرجة الثالثة ! .. فقد كانت أسفاره دائماً - قبل اليوم - بالدرجة الأولى .. وهنا أيضاً ، تبين أموراً جديدة عليه .. تبين أن بعض الأشخاص ينتازون - في الدنيا - على البعض الآخر ، وأن بين الناس فوارق لم يقطن إليها من قبل ! ..

وكان في المقعد المواجه له عمال إيطاليون . غلاظ الأصوات ، أمسكوا في أيديهم الخشنة فنوساً ومجارف . ولاح في أعينهم الأسى والاكتاب ! .. كان من الجلي أنهم قضوا يومهم في عمل شاق ، مضن إذ أسلم التعب المبرح بعضهم إلى النوم . فأسندوا ظهورهم إلى خشب المقاعد الصلب . وفغروا أفواههم . ولم يخطر ببال (إدجار) سوى أنهم كدوا ليكسبوا المال ، ولكنه لم يفكر في مقدار ما كسبوا . وإنما كان كل ما فطن إليه . إذ ذاك . أن المال شيء لا يكون في متناول الإنسان في كل وقت . وإنما لابد للمرء من اكتسابه بأية طريقة ! .. وأدرك أنه كان يرى الجو المترف الذي عاش فيه أموراً جميعاً . فنه بظن إلى أن في الحياة ثغرات ذات العجين وذات الشمال ! .. ثغرات فارغة الأفواه . لم يلق بالآ إليها في أي وقت من الأوقات . وانبه فجأة إلى أن في الدنيا مهناً ، وحرماً ، ومناصب متباينة ، وأن على جانبي حياته أسرار من اليسير تبنيها . ولكنه كان غافلاً عنها !

■ ما أكثر الأمور التي عرفها (إدجار) في تلك الساعة التي خلا فيها إلى نفسه . على ذلك المقعد الضيق ،

المتنوعة . نحو الأفق ! .. لقد بدأ يستبين وريداً . خلال القلق المليم شيئاً راح يتفتح ويبرز أمام بصيرته .. وما كان هذا الشيء : « السعادة » وإنما كان شعوراً من الإعجاب .. الإعجاب بصورة الحياة . وقد نمت وتضاعفت خطوطها أمام عينيه ! .. وعلى الرغم من أنه شعر بأن فواره كان خوفاً . وجبتاً . إلا أنه أحس مع ذلك بأنه ... ولأول مرة في حياته .. قد أقدم على فعل . بدافع من ذاته هو : .. كان يواجه للمرة الأولى .. هذا العالم الواقعي الذي طأها مر به من قبل دون ما اكتراث !

ووقر في نفسه أنه ربما غدا لغزاً غامضاً بالنسبة لأبيه وأمه . كما كان العالم من قبل لغزاً غامضاً بالنسبة له ! .. وأخذ ينظر خلال النافذة بعينين جديدتين .. بعينين انزعاج عنهما الستار الذي كان يجنب عنه الأمور والأشياء قبل اليوم . وخيل إليه أن كل الأشياء أخذت تطلعها على كنهها . وطبيعتها . وحوافز النشاط الخفية التي تساورها ! .. وكانت البيوت تلوح لناظريه كما لو كانت تطير . لفرط سرعة القطار .. كأنما كانت ثمة ربيع عاتية تحملها على أجنحتها ! .. ووجد فكره ينتجه .. دون إرادة منه - إلى أولئك الذين يعمرون تلك البيوت فراخ يسائل نفسه : « أأرياء هم أم فقراء ؟ أسعداء أم تأساء ؟ .. أترأهم مثله يتوقون إلى معرفة كل شيء ؟ .. وهل هناك أطفال لم يغفلوا حتى الآن بغير اللعب . كما كانت حاله ؟ .. وخيل إليه أن عمال سكة الحديد الذين كان يشاهدهم خلال أسفارهم - وهم يعرفون رايات الإشارة في طريق القطار - لم يعودوا دى ، أو لعباً لا حياة فيها . كما كانوا

يلوحون له من قبل . فقد أدرك أن هذه وسيلتهم للكنفاح من أجل العيش !

وازدادت سرعة القطار وهو ينتجه نحو بطن الوادى ، مبتعداً عن الجبال التي ما لبثت أن يدأت تتوارى . لينبسط السهل أمام بصر (إدجار) .. فالتفت مرة أخرى نحو الجبال المتباعدة ، وقد غدت كضباب لزرق مهتز ، أو شيء أشبه بالظلال ..

وخيل إليه فجأة ، أنه خلف طفولته هناك .. بين تلك الجبال التي أخذت تتلاشى أمام بصره !

* * *

■ ما لبث القطار أن وصل إلى محطة (بادن) . وما أن وجد (إدجار) نفسه وحيداً على الرصيف الذي عمرته الأضواء . وتراءت عنده أنوار الإشارات الحمراء والخضراء . حتى غشيت كآبة . إذ فطن إلى أن الليل قد أسدل أستاره .. كان - خلال النهار - يستشعر طمأنينة وأماناً لأن الناس يحيطون به في كل مكان . كما كانت المناظر تسرى عنه .. أما الآن . فكيف تكون حاله وقد أوى الناس إلى دورهم . حيث يجدون أسرهم في انتظارهم . وحيث التراش الوثير . والنوم الناعم ؟ . وأحس بغزلة لا قبل له بها . وبأنه هائم على وجهه - على غير هدى - تلاحقه فعلته ! .. وانتبه إلى أن لابد له من أن يأوى في أسرع وقت إلى ملجأ يحميه - وألا يمحكث دقيقة واحدة في الخارج .. في يثقه بجوهلة لذه !

وانطلق في الطريق الذي كان يألفه . لا يلتفت يمنة ولا يسرة . حتى وجد نفسه في النهاية أمام (القيل) التي كانت جدته تنظفها . وكانت تقوم في موقع بديع . في أحد الشوارع الكبرى . وقد صاتها عن الأنظار أشجار حديقة غناء ، فكانت (القيل) بسفنها الأحمر تلوح خلال الأشجار كلهب وسط بحاية خضراء ! .. أما جدرانها فكانت بيضاء .. وكانت من طراز بديع . قديم .

وأنتى (إدجار) نظرة خاطفة خلال سياج الحديقة .. وكأنه غريب يتعرف على الدار .. فلم يجد حركة في الداخل . كما كانت النوافذ مغلقة . وحس أن أهل الدار في الجانب الخلفي منها . وما أن وضع يده على مقبض الباب البارد ، حتى ساورته فكرة أزعجته : كان منذ ساعتين يرى في التجائه إلى جدته أمراً طبيعياً ، ولكنه فطن الآن إلى أنه أبعد الأمور عن أن يكون طبيعياً .. كيف يدخل ؟ .. وكيف يمثل بين يدي جدته ؟ .. وكيف ينبغي على الأسئلة التي ستوجهها إليه ؟ .. كيف يحتفل النظرات الأولى التي ستوجه إليه حين يضطر إلى الجهر بفراوه ؟ .. بل كيف يفسر شناعة مسلكه الذي لم بعد يرى له مبرراً ؟ ! وفجأة ، فتح الباب . فأجفل مذعوراً . وأسرع بالابتعاد خشية أن يفاجئه أحد . ولكنه لم يدر إلى أين يذهب . ووقف برهة أمام منتهه البلدية .. كان الظلام يرين عليه .. وخيل إليه أنه خال من أي إنسان . فمن له أن يجلس فيه ليستريح ويستعرض حاله ، ومن ثم دلف إلى المنتزه في وجل . وبدت له المصاييح الواهنة التي قامت بين الشجر عند مدخل المنتزه كأشباح التفت بغلالات خضراء .. وكان لابد من أن

يتحدر في طريق تنفضي به إلى قاب الحديقة ، حيث غرق كل شيء في ظلمة ليل الربيع المبكر ، حتى ليخال الناظر أنه إزاء عجيبة سوداء تختمر ! .. وخفق قلبه إذ مر بأشخاص جلسوا تحت أضواء المصاييح الغازية الواهنة ، يتحدثون أو يطالعون .. إذن . فلن يجد الوحدة التي يشدها ؟ .. وخطر له أنه ربما استطاع أن يتحاو إلى نفسه في الدروب المعتمة ، ولكنه سمع فيها نسمياً عمتجج . بين حين وآخر — برفيف الريح . وحفيف الشجر . ووقع أقدام بعيدة ، وضحكات مختنقة ، وأصوات خافتة كالأنغام ، تنظمها آهات وتنهيدات خيل إليه أنها تتصاعد من أفتدة الإنسان ، والحيوان ، والطبيعة الماهجة !

وأحس بهاجس محير ، قلق . منذ . في هذه الحياة النابضة التي أشاعها مطلع الربيع . والتي ملأت جنان الغلام المضطرب المساء موجعاً !

● وجلس فوق أحد المقاعد ، منطوياً على نفسه . في هذا الظلام الذي لا عهد له به . وجعل يفكر فيما سوف يقوله لجده ، يبد أن الأفكار كانت تفلت منه قبل أن يحسك بها ! .. كان . على الرغم من . يلقى سمعه إلى الحساسات الخافتة ، وإلى الحركات الغامضة التي كانت تنبعث في جوف الليل . لكن كانت هذه الظلمة مفزعة ، مخيفة ! .. ومع هذا . فكلم فيها من جال وسحر ! .. ترى من أين تنبعث كل هذه الأصوات . وكل هذه التبهيدات والسمسات والتداءات ؟ .. وأرهف السمع . فبين من هذه الأصوات برفيف الريح . من تتخلل الشجر وتزأ أوراقه .. على أنه تبين أيضاً . وبوضوح في هذه المرة ..

أن هناك أناساً جاءوا أزواجاً من المدينة المضيفة . فبعثوا الحياة في الظلمة بوجودهم المستر بين طبائنها ! .. ما الذي جاء بهم إلى هنا ؟! .. ما كان (إدجار) ليعرف . إذ أنهم لم يكونوا يتكلمون بصوت مسموع .. بل لم يكن يسمع سوى وقع أقدامهم فوق الأديم الخشن . وكان يرى بين الفينة والفينة أطرافهم تمر سراعاً في القطاعات المضيئة . وقد تلاصق كل اثنين . على نحو ما كان يرى أمه وهي مع البارون ! . إذن . فهنا أيضاً يكن ذلك السر .. السر الرهيب . الخفى . المثير ! .. وما لبث أن سمع وقع خطوات تردد منه دنواً . وضججات غثقة . فخشى أن يقع عليه نظر القادمين . وتوارى مغلاً في جوف الظلام .. ولكن القادمين صعدا الدرب المنحدر . ولم يرياه في الظلام الكثيف .. وما أن استعاد (إدجار) أنفاسه . حتى ألقى القادمين يقفان قرب المقعد الذي يجلس فوقه .. وتلاصق وجههما . ولم يستطع أن يقيّن شيئاً واضحاً . ولكنه سمع زفرة تنبعث من المرأة . بينما تتم الرجل بكلمات حارة محسومة . وأحس (إدجار) بشعور غامض . ملتهب . يبدت رعدة مبردة في كيانه . وظل الغريبان على وضعهما دقيقة . ثم سمع من جديد وقع أقدامهما على الأديم الخشن . فأصغت إليه حتى تلاشى في جوف الليل .

وارتجف الغلام في عنف . وأحس بالدم يغلي في عروقه .. ثم شعر فجأة بأنه وحيد في جوف هذا الظلام الرهيب .. وتولاه حنين ملح إلى صوت ودود ناعم . وإلى أحضان حانية . وإلى أن يبعد نفسه في غرفة تسطع فيها الأضواء . بين أشخاص يحبهم ! .. وخيل إليه أن

ظلمة الليل الحقيقة قد تجمعت واتسكبت في نفسه . وراحت تفرى قلبه !

وتنفض بفته . ماذا يمكن أن يحدث له ؟! .. قد يؤنب . ويضرب ؟! .. ولكنه لم يعد يخشى شيئاً . منذ عرف تلك الظلمات . وأحس رهبة العزلة ! .. ومن ثم انطلق في طريقه دون أن يدري ما هو فاعل . فإليث أن بلغ بيت جدته على غير وعى منه .. ومرة أخرى لامست يده المقبض البارد .. وكان القضاء . في هذه المرة - ينساب من النوافذ فوق الحضرة . فتخيل منظر قاعة الجلوس . وقد اجتمع فيها أصحاب الدار . وبدأ يستشر ارتياحاً واطمئناناً . إذ ألقى نفسه قريباً جداً من أناس يحبونه . فهذا روعه . وإذا كان قد تردد قليلاً قبل أن يدق الجرس . فما كان ذلك إلا رغبة منه في أن يزداد استمتاعاً بشعور الألفة والقرب ممن يحبهم !

وقبالة . انبثث إلى جواره صوت حاد . منفعل ! (إدجار) ! .. أنت هنا ؟!

كانت الخادم أول من رآه . فأسرت نحوه تربت كتفه .. وفتح الباب بفته . فانطلق نحوه كلب ينبع . وانساب الأضواء من داخل الدار . وسمع أصواتاً تتجاذبها الغبطة والمدهشة .. ثم استبان أصحاب هذه الأصوات إذ اقتربوا منه في ابتهاج .. وكانت جدته في المقدمة . تبسط ذراعها نحوه .. وخيل إليه أنه في حلم حين رأى أمه خلفها . وقبلا اعرورت عيناها بالدموع ! .. وارتحلت

وسرى إلى نفسه وجل وحيرة ، فلم يدر ماذا يفعل . ولا ماذا يقول .. بل إنه لم يدر ، أخوف هذا الذي كان يحس به : أم سعادة !

■ كانوا يرتقبونه منذ ساعات .. فقد ارتفعت أمه لقرأه برغم غضبها وحنتها . وأخذت تبحث عنه في كل مكان .. وسرى التلق والانعاج في (سمرنج) . وذهبت الهواجس بالقوم كل مذهب .. وفجأة ، أقبل شخص ذكر لهم أن الغلام شوهد عند نافذة التذاكر في القطة . حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر . وسرعان ما عرف أن (إدجار) ابتاع تذكرة إلى (بادن) .. وكانت الأم قد أبرقت إلى (بادن) وإلى (فيينا) .. حيث كان والد الصبي — بنياً القرار . ففضى الأب ساعتين في حركة دائمة . نشتم أخبار الهارب ..

وما لبثت الأم أن بدرت بالرحيل إلى (بادن) في أمر الصبي .. وأحاطت به الأسرة . فبدأ كالسجين في أيديهم . ولكن .. في غير ما عنف أو خشونة ! .. وقادوه إلى قاعة الجلسوس وقد سادهم شعور بالظفر ! .. ومن العجيب أن الغلام لم يحس للتأنيب وخزاً موجعاً فقد تبين أن الحب والعبرة كانا يطفران على أساور أهله .. بل إن فترة التأنيب لم تطل . فما لبثت جدته أن احتضنته وهي تجهش بالبكاء . ولم يعد أحده يتحدث عن خطئه ! .. وحفت به رعاية الأهل .. وما لبثت الخادم أن خلعت عنه ثيابه ، وألبسته غيرها — أدفاً منها — ثم سأله جدته إن كان يبغى شيئاً . كأن يكون جاثماً مثلاً .. وانبالت عليه بالأسئلة ، وهي تغمره بالحنان .

وإذ قضى القوم إلى أنه متبول القوى . كفوا في النهاية عن سؤاله . وإذ ذاك تولته غبطة ضافية . إذ عاوده الشعور بأنه ما زال طفلاً .. الشعور الذي كان يججل منه قبلي ذلك . فإذا به يستمره ، ويندم على ما تولاها في الأيام الأخيرة من كبرياء . وصلف . وجنوح إلى الاستثناء عن كل هذا ، وإلى أن يستبدل به ما خاله في الاستقلال من متعة !

وانبعث رنين جرس التليفون . وما لبث (إدجار) أن سمع أمه تردد عبارات متقطعة : « إدجار .. وجد .. وصل إلى هنا .. آخر قطار .. وأدهشه أنها لم تبد نحوه جنفاً ولا غلظة . وإنما راحت تغمره بنظرات هادئة . هادئة غريباً كل الغريبة ! .. وشعر بأنه يزداد ندماً .. وود لو أفلت من هذه الرعاية التي تحيط بها جدته وخلاته ، ليسعى إلى أمه يسألها الصفع ، ويسر إليها — في خضوع وانصياع — بأنه يحب أن يعود طفلاً ، كما كان . وأن يطعم أوامرهما ! .. ولكنه حين نهض في هدوء . معج جدته تقول في لهجة تمت عن الخسوف : « إلى أين ؟ ! »

وظل واقفاً وقد عراه الخجل ، إذ رآهم يضطربون لكل حركة يتحركها . كأنما كان ينفخهم جميعاً .. فقد كانوا يخشون أن يهرب منهم مرة أخرى ! .. آه . لو عرفوا أنه أكثر من أى منهم ندماً على هذا الحرب !

وأعدت المائدة . وقدم إليه عشاء خفيف . وكانت جدته تجلس بالقرب منه . لا تحول عنه نظرها . وأخاطبته بالهدوء في

صمت .. وأحس بأنه غداً مطشاً كل الاطمئنان وسط هذه العناية التي أغدقوها عليه .. لم يعد يشغله سوى أن أمه لم تكن بجانبه . آه ، لو أنها عرفت كم هو نادم ، إذن لما فارقت جواره قط !

وسمع بفتة صوت عربية تقف أمام المنزل .. وبدأ على الآخرين ذهول أزعج (إدجار) .. وأسرعت جدته تغادر الغرفة، ثم سمع حادياً يجري في الظلام .. وأدرك أن أباه قد جاء .. ثم فطن إلى أنه ترك وحيداً في القاعة ، فإذا هذه اللحظة القصيرة من الوحدة كافية لإيقاع الاضطراب في نفسه ! .. كان يعرف مدى صرامة أبيه ، فهو الشخص الوحيد الذي يخشاه خشية حقيقية ! .. وأرهف سمعه .. كان أبوه يبدو غاضباً ، إذ راح يتكلم بصوت مرتفع ، وفي انفعال شديد . وأخذ (إدجار) يسمع - من حين لآخر - جدته وأمه تهديتان من حقن أبيه ، ولكن هجة الأب ظلت غليظة ، غليظة كذلك الخطى التي أخذت تزداد اقتراباً ، حتى بلغت الباب ، الذي ما لبث أن فتح فجأة .. وكان والد (إدجار) بديناً .. وإذا به الصبي يدخل بخطى عصبية ثم عن غضب شديد ، أحس أنه بجانب أبيه غاية في الضالة !

وصاح الأب : « ماذا دهالك يا ابني حتى تهرب على هذا النحو وتسبب لأهلك كل هذا الانزعاج ؟ »

كان الأب متفعلاً ، ويداه ترتعشان بشدة .. ودخلت خلفه أم (إدجار) في رفق ، وقد شحب وجهها . ولم يجب (إدجار) .. كان يلزمه أنه مطالب بأن يبرر مملكته ، ولكن كيف يمكنه أن يقص قصة غشه والتغريب به وضربه ؟ ! .. ترى هل تعلم أبوه الأمر ؟ .. وعاد



وود لو أفلت من هذه الرعاية التي تحيط بها جدته وخالته ، ليسعى إلى أمه يسألها الصبح ...

الأب يقول : « هل قضيت لسانك ؟ - ما الذى حدث ؟ .. تكلم فى هدوء .. هل وقع شيء لا يروقك ؟ .. لابد من سبب لحربك بهذه الصورة .. هل منك أحد بسوء ؟ »

وتردد (إدجار) ، وقد نكأت الذكرى جراح نفسه من جديد : وهم بأن يتكلم . غير أنه لمح - فى انفعال شديد - أمه وهى تشير إليه من خلف أبيه إشارة غريبة .. إشارة لم يفهمها فى أول الأمر ، ثم ما عثم أن أدرك أنها تتوسل إليه بعينيها ، بينما رفعت أصبعها إلى قفها طلب منه أن يلتزم الصمت !

وبغته أحس الغلام بحرارة تفرغ كيانه .. أحس بسعادة طاعية عجيبة تملأ جوانحه .. أدرك أن أمه تستودعه سرها ، وأن مصير إنسان - هو أمه - رهن بكلمة تتعلق من شفتيه الصغيرتين .. ودخله زهو إذ رأى أمه تركز إليه .. وهذا بكل كيانه إلى التضحية ، فعول على أن يسالغ فى إظهار ذنبه ، ليبين لها أنه غدا بالفعل رجلاً - ومن ثم استجمع شجاعته ليقول : « لا ، لا .. لم يكن هناك سبب .. بل كانت أوى غاية فى الرقة معي ، ولكنى لم أكن عاقلاً ، فسكنت مسلماً شائناً ، وعندئذ .. وعندئذ .. هربت خوفاً ! »

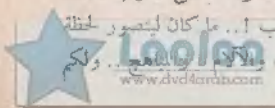
وأشاح أبوه عنه فى دهشة : كان يتوقع أى شيء إلا هذا الاعتراف .. وانفث غضبه ، فقال : « إن الندم إمارة طيبة ، وما دمت نادماً ، فليس لدى ما أقوله .. ولعلك تفكر ملياً قبل أن تفعل شيئاً - فى المستقبل - حتى لا تتورط ثانية فى حماة كهذه ! »

وأنتهم النظر فى ابنته ، ثم قال فى حنان : « لشد ما تبدو شاحباً .. ولكن ، يلوح ألك كبرت أيضاً ، فأمل ألا تصلر منك بعد اليوم مثل هذه الأمور الصبانية ، لأنك لم تعد طفلاً .. إنك الآن فى سن الإدراك ! »

وكان بصر الصبي - طيلة الوقت - عالقاً بأمه .. وخيل إليه أن شيئاً يبرق فى عينيها .. أترأه انعكاس الضوء ؟ .. لا .. كانت عيناها نديتين بالدموع .. وعلى شفتيها ، كانت ثمة ابتسامة خاصة ، وكأنها كانت تقول له : « شكراً ! »

واكتهل الليل ، فأشير على الطفل بأن يأوى إلى فراشه ! .. على أنه لم يشعر - فى هذه المرة - بما كان يخالجه فى الأيام السالفة من مرارة لهذا الطلب ، فقد كان يهفو إلى أن يخلو إلى نفسه ، ليفكر فى أشياء كثيرة ، وانفعالات عديدة ، حافلة ، متباينة ! .. كان كل ما عناه من ألم فى الأيام الأخيرة يتلاشى فى انبهاره بأول حدث هام يقع فى حياته .. وخيل إليه أنه يتذوق السعادة ، وهو يستعرض الأحداث الغامضة التى قد ينتهيها له المستقبل !

كانت الأشجار تهتز بعنف ، فى جوف الليل ، خارج الدار .. ولكن (إدجار) لم يشعر بخوف أو وجل .. لقد أصبح يواجه الحياة بجأش رابط ، بعد أن عرف كم هى غنية ، حافلة ! .. ألم يرها أمامه على حقيقتها ، عارية من كل أكاذيب الطفولة ، على كثرتها ؟ ! .. إنها فى تجردها تبدو له فى جمال فاتن ، مهيب ! .. ما كان ليصور لحظة أن الأيام قد تكن له كل هذه التغيرات ، واللامع .. ولكن



أخذ يشعر بالسعادة وهو يتصور أن عديداً من مثل هذه الأيام تنتظره . وأن حياته بأسرها تأهب لتكشف له عن أسرارها ! .. لقد ألم الآن بطرف عن جوانب هذه الحياة وتنوعها ، فحبل إليه أنه أدرك طبيعة البشر ، وعرف أنهم يحتاجون بعضهم إلى بعض ، حتى حين تفرق بينهم الضغائن ! .. ولقد تذوق عذوبة حب الناس له - ممثلين في أهله - ف شعر بأنه لا يقوى على التفكير في الكراهية .. لا يقوى على كراهية أى شيء . ولا أى شخص ، ولو كان هذا الشخص غريمه اللدود : (البارون) ! .. بل إنه شعر نحو البارون بعرفان الجميل ، لأنه أول من فتح أمامه باب هذا العالم الجديد .. عالم الجوارب الأولى في الحياة ! وراق له أن يفكر على هذا النحو في الظلام .. إلى أن غزت عقله صور غامضة ، تمثلت من عالم الأحلام . وفيها كان النوم يقشاه ، خيل إليه أن الباب يفتح ، وأن إنساناً يتقدم نحوه في رفق .. ولم يستطع تبيين القادم جلياً .. كذلك لم يقو على فتح عينيه ، إذ أن النوم غلبه . بيد أنه أحس وجهاً غضاً ، دافئاً ، ناعماً ، ينحني على وجهه ، ثم يلتصق به .. وعرف أنها أمه نعانته وتداعب شعره ، وأحس بالقبلات ، وبالدموع .. واستجاب في لطف لهذا الحنان الذي تقبله على أنه رمز للصالح وعرفان الجميل لما أسداه بكتبان إتيامه لها !

ولم يعرف الصبي إلا بعد زمن طويل ، بعد سنوات ، أن هذه الدموع الصامتة إنما كانت وعداً من امرأة تتقدم بها السن ، بأنها لن تكون بعد الآن ملكاً لغير ابنها ، بأنها ستكف عن المغامرات ، وسدخلى عن كافة رغباتها الأناثية ! .. لم يعرف أنها جاءت تعترف له

بالجميل . لأنه أنقذها من مغامرة عقيمة ، وأنها شاعت أن تمنحه في هذه القبلات ترائاً لمستقبل حياته هو : الحب .. بمرارة مذاقه وحلاوته معاً ! .. لم يدرك الصبي كل هذا ، ولكنه أحس نشوة هذا الحب .. هذا الحب الذي يصله الآن بسر الكون الخطير !

وعندما جذبت الأم يديها في رفق - وأبعدت شفيتها عن شفتي الغلام ، وانحنى طيفها من الغرفة - خلقت وراءها شيئاً دافئاً .. خلقت أنفاساً عذبة فوق فم (إدجار) - وفاض قلبه بالرغبة في أن يحس كثيراً بالشقاء الناعمة تلتصق به ، وأن يظل محوطاً بمثل هذا الحنان ! .. وأسدل النوم ستاراً كفيفاً على إحساسه بذلك السر الذي كان يتوق بكل كيانه إلى معرفته .. سر الحب .. وللمرة الأخيرة ، مرث بخاطر الصبي صور الساعات التي انقضت جميعاً .. وللمرة الأخيرة أيضاً ، انفتح أمامه كتاب صباه بصفحاته الحافلة بالإغراء ، ثم أسلم جفنيه للنوم .. وعندئذ بدأ حلم حياته العميق يفرض أسراراً !

(تمت بحمد الله)



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

يضم هذا الكتاب روايتين من روائع الأديب العالمى «ستيفان زهايج» - الذى سبق أن قوّات له روايته الخالدة (حذار من الشفقة) - والروايتان هما : (١) الأرملة العاشقة (٢) والأم العاشقة .. وكما هو الشأن فى كل روايات «زهايج» تصادف هنا فى كلتا الروايتين جمال الأسلوب ، وعمق التحليل النفسى لخلجات النفس الإنسانية ، مما يتيح لك الاستمتاع بما تقرأ !

ويجمع بين الروايتين عامل مشترك ، هو أن البطلة فى كل منهما تجاوزت طور الشباب ودخلت فى مرحلة خريف العمر ، سواء فى ذلك الأرملة والأم ، فكلتااهما تمارس العشق بعد أن لم تعد شابة يافعة ، وعشق الأرملة مثل عشق الأم ، له خصائص تختلف كل الاختلاف عن عشق الفتاة ، التى يتفتح قلبها للحب وهى فى ربيع العمر ، وهنا تبدو مقدرة «زهايج» الفذة فى النفاذ إلى العاطفة البكر لدى الأنثى فى مستقبل حياتها !

وقد سبق أن سردت لك صفحات من حياة «ستيفان زهايج» منذ لمع نجمه فى سماء الأدب ، إلى أن أدركه اليأس من الحياة فى أعقاب المأسى التى جلبتها النازية على أوروبا والعالم ، مما دفعه إلى الهجرة من وطنه النمسا إلى البرازيل ، حيث أقدم على الانتحار !

والآن أتركك كي تستمتع بقراءة هاتين الروايتين من روائع عملاق الأدب النمساوى «ستيفان زهايج» !

عالمى مراد